المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

* الفن التشكيلي في تجلياته الابداعية. الدكتورة نجاح العطار ـ وزيرة الثقافة
* المجتمع العربي بين التخلف والتبعية وآفاق التنمية .
* كوكب الأرض كائن حي .
* ملف أيام الثقافة الاسبانية .
* خبز وَورد ـ حوار بين الشمال والجنوب ـ شعر .
* فضاء للموت ... فضاء للحياة ـ قصة .

السنة الثلاثون ـ العدد ٣٣٨ تشرين الثاني « نوفمبر» ١٩٩١

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية
تصدرها
وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

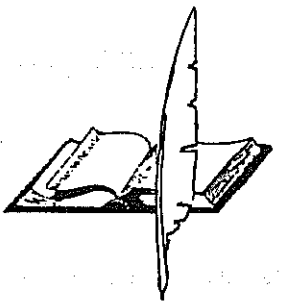

هيئة الإشراف

انطون مقدسي
د. عدنان درويش
د. حسام الخطيب
د. الياس نجمة
سميح عيسى

رئيس التحرير

عبد الكريم ناصيف

الإشراف الفني

زهير الحمو

الخطوط:

عبد الرزاق القصيباتي

السنة الثلاثون ـ العدد ٣٣٨ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٩١

تنـــويـــه

- المراسلات باسم رئيس التحرير :

  جادة الروضة ــ دمشق ــ الجمهورية العربية السورية

- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية ، ولا علاقة له بقيمة المادة أو الكاتب .

- المواد التي تصل الى المجلة لا تعاد الى أصحابها سواء انشرت أم لم تنشر .

- ترجو « المعرفة » من السادة الكتاب أن يرسلو موضوعاتهم منسوخة على الآلة الكاتبة ، وذلك تسهيلاً للعمل .

سعر النسخة الواحدة (١٥) ل.س أو ما يعادلها
تضاف اليها أجرة البريد خارج القطر

في هذا العدد

الفن التشكيلي في تجلياته الابداعية	الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة	٤
□ الدراسات والبحوث :		
المجتمع العربي بين التخلف والتبعية وآفاق التنمية « ملامح أولية »	محمد علي جمعة	١٢
كوكب الارض كائن حي	ديمتري افيرينوس	٤٣
فلسفة الاخلاق والدين لدى برغسون	محمد سليمان إحسن	٦٥
□ الابداع :		
◇ شعر		
خبز وورد ... كلام في حوار الشمال والجنوب	يوسف طافش	٩٦
◇ قصة		
فضاء للموت ... فضاء للحياة	ممدوح السكاف	١٠١
□ آفاق المعرفة :		
نافذة على العالم	ترجمة واعداد : كمال فوزي الشرابي	١٢٢
ملف ... ايام الثقافة الاسبانية :		
ـ عُرسُ ... للشعر في زمن الغازات الخانقة ..	سليمان العيسى	١٥٢
ـ فلسطين في الشعر الاسباني	د. محمود صبح	١٥٩
ـ بصمات عربية عند بعض شعراء القرن العشرين الاسبان	بقلم : خاثينتو لوهث غورخه ترجمة : رفعت عطفة	١٧١
ـ العربي وحركة التعاطي مع ما هو عربي في الادب الاسباني المعاصر	بقلم : خيسوس ريو ساليدو ترجمة : رفعت عطفة	١٨٣
ـ مدينة دمشق في عيون شاعر اسباني	بقلم : خواتين بينيتو ده لوكاس ترجمة : رفعت عطفة	١٩٥
القديم والجديد ، نلتفت الى الوراء كي نتقدم	ميخائيل عيد	٢١٤

الفـــن التشكيـلي
في تجليـاته الابداعية

الدكتورة نجاح العطار
وزيـرة الثقافـة

نص الكلمة التي القتها السيدة وزيرة الثقافة

الدكتـورة نجـاح العطـار

في افتتاح مؤتمر الفنانين التشكيليين في سورية

ايها المبدعون بالايماءة الى ما هو فوقها : الوطن والانسان

أن نقول : الفن ! فكأننا نقول الوجود ، كذلك نختصر ، في تكثيف شديد ، كوننا هذا ، الذي يترامى بأبعد من الظن، ويتعالى بأرفع من الفضاء ، على رحابة المدى وهمـاً ، وشاهق المجرات خيالاً، نبلغهما طيفاً مجنحاً ، له من أسطورة بساط الريح حقيقة ومجازاً ما يجعله يحلم ، وله من هذا الحلم طاقة على تمثل هذه الأسطورة ، في تلك القدرة الخلاقة التي هي الابداع ، يحملنـا جناحاه عبر المسافات ولا مسافات ، بل انخطاف الروح في ومضة التأمل التي تنداح وتنداح الى ما لا نهاية .

إن هذا الفن ، وهذه عظمته ، يقدم الرؤية والجمال والمعرفة بلغة تشكيلية • أكثر من ذلك : ان الفن الذي يعكس العلم والفلسفة المعاصرين ، يقدمهما بلغة تشكيلية أيضاً ، وهذا هو السبب الرئيسي في أن التشكيل قد غدا ، في أيامنا هذه ، موضع هذا التثمين المتعاظم • لا في التذوق وحده ، ولا في السفارة التي يقوم بها وحدها ، ولا بما هو تزيينات جدارية ، في صالونات النخبة والأثرياء ، إنما في هذا الدور التأثيري الفعال الذي يمارسه على العقول ، ليصبح أحد عوامل التغيير الذي يقوم على مهاد من التنوير والتثوير ، في الأحداث الجارية والمقبلة لعالمنا •

إن غاليليو ، وهو الطليعي والتثويري العظيم للقرن السادس عشر ، والذي كان شهيد مقولاته العلمية ، يعرّف عصر النهضة بقوله : إن هذا العصر هو كتاب الفلسفة الحقيقي، وكتاب الطبيعة المخطوط بحروف لم تألفها أبجديتنا ، وهذه الحروف هي المثلثات والمربعات والدوائر ، والكرات ، أي بكلمة ، هو كتاب الفن التشكيلي ، بكل تجلياته •

وهذا الفن التشكيلي الذي انتزع هذا الاعتراف النبيل ، من عالم جريء لا يماري في اعلان الحقيقة ، هو فن يسلك الطريق القويم الى غايته في نشر الوعي ، لا عن طريق الخطوط والدوائر والكتل والأضواء والظلال، بل عن طريق التعبيرعن حركةالأشياء، وصيرورتها ، وفعاليتها ، التي هي أساس الفهم الجدلي لهذا القرن •

ومن هم الفنانون التشكيليون الذين يملكون هذه الطاقة التغييرية ؟ إنهم الشعراء ! الشعراء لا بالوزن والقافية ، وانما بالفرشاة والازميل . إنهم شعراء دون أن يدروا أنهم شعراء . لأنهم ينطلقون من تنسيق العناصر العلمية المكتسبة مع العنصر الشعري الفطري ، وبذلك يملكون الأداتين الأهم في نقل المعرفة للناس : أداة اللون الموحي وأداة الكلمة الموسقة ، وكلاهما الى نفاذ عميق في النفوس ، ولدينا ، في التاريخ الحديث شاهد باهر ، هو اقتران اللوحة بالقصيدة عند بيكاسو وايلوار ، فقد صور بيكاسو جريمة الفاشية في اسبانيا بلوحته غيرنيكا ، وجاء ايلوار بقصيدته غيرنيكا ، ليمجد ما في هذه اللوحة النابضة بطاقتها الايحائية ، من صرخة ضد الفاشية المجرمة .

وإذا كان الفن ، في كل تألقاته ، يفعل فعل السحر الذي تبدى في الغيرنيكا لوحة وقصيدة ، فان الموسيقا والكلمة لهما الدور نفسه ، وقد كانا في صلب أفكار كل الفلاسفة الذين مهدوا الثورات الكبرى تمهيداً هيأ النفوس والعقول للقيام بهذه المآثر العظمى .

ومن الناقل القول أن الفن التشكيلي ينطوي بذاته على الموسيقا كما ينطوي على الشعر ، ولهذا كانت له هذه الأهمية القصوى في رسم الطبيعة الناطقة حتى في صمتها ، ورسم المكافحين حتى وهم عزّل ، ورسم المناظر المستمدة من المدن والأرياف ، في حركيتها الدالة على أنه لا سكون في الأشياء ، ما دام التبدل ، والانتقال من مرحلة الى مرحلة ، ومن نظام الى آخر ، هو قانون السيرورة التاريخية كما تعلمون .

بهذا المنظار الرؤيوي ، ومن هذا المنطلق التقويمي ، نتعامل نحن في سورية مع فنوننا التشكيلية ، هذه الفنون التي حققت حضوراً متميزاً ، كماً وكيفاً ، في العقد الأخير وما قبله ، فصارت حاملاً طليعياً لرسالتنا الى شعبنا العربي وشعوب العالم ، من خلال المعارض التي تتكاثر ، وتتنوع ، وتتوزع ، في المكان والزمان ، توزعاً لا عهد لنا به ، وتتنوع في المواضيع ، تنوعاً غير مألوف ، وتتأصل ، تراثاً وحداثة ، تأصلاً مدهشاً ، وتحظى باقبال مشهود ، في صالات العرض التي تزداد ، وفي الطلب الذي يشتد، الى درجة أن لدينا الآن ، كما لدى الأمم الأخرى المتطورة ، سوقاً للوحات ، وبأثمان تتدرج صعوداً كل يوم .

وانه لواقع موضوعي ، أن يكون الأمر على هذا النحو ، ما دام الفن التشكيلي ، منذ الثلاثينات ، قد صوّر ، وبواقعية رومانتيكية ، معاركنا الوطنية والقومية ، وعالج ، على امتداد الزمن اللاحق ، كل قضايانا وهمومنا ، وأسهم ، في كل المراحل المتعاقبة ، في التحريض الفكري ، ثورة ونضالاً ، وفي ايقاظ النفوس همة وجارحة، وفي دفع التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي شوطاً بعد شوط الى أمام .

لقد نهض الفن التشكيلي بهذا كله ، ومنذ مطلع النصف الثاني لهذا القرن تخصيصاً ، بتدرجات ملحوظة الى أعلى ، سواء في تجويد السوية الفنية ، أو تقديم الرؤية الجمالية في اطار من الشفافية التي تنأى عن المباشرة والفقاعة والفجاجة التي تصدم

الرائي ، وتستفز المتأمل بابتذالية التلقين الصارخ • لقد أعطانا الفن التشكيلي ذاته ، وجذبنا الى دائراته ، واستأثر بمشاعرنا ، وخاصة في العقد الأخير ، بما حفل به من تقنية ابداعية ، ومهارة معلمية ، في تناول المواضيع من زوايا مختلفة ، فيها خضرة الحقل، وزرقة البحر ، وبياض الياسمين ، وعطر التوق ، فوق مهاد مدروس بدقة ، وتوزيع فيه تناغم شاعري ، يضع المشاهد في الجو الذي تتوخاه اللوحة ، دون أن يفطر هذا المشاهد الى ما تتوخاه اللوحة مباشرة ، لأنها تعتمد على دلالتها في مقولتها ، وتملك تأثيرها بفعل قدرتها على التأثير في الأحاسيس ،عبر استبطان رهيف يستولي علينا من الداخل ، ويدوم ثمة حتى بعد أن ننصرف عن اللوحة بوقت طويل •

ان نتائج ابداعية بهذا القدر من النضج ، ما كانت ممكنة ، ولن تكون ممكنة دون توفر وسائلها ، مثل الدراسة الأكاديمية، والممارسة العملية ، والتشجيع المستمر ، ووجود صالات دائمة للعرض ، ومعرض سنوي كل عام ، ومعارض كثيرة متفرقة ، في العاصمة والمدن والحواضر ، واقتناء اللوحات المختارة ، والدأب على تقدير هذا الفن مادياً ومعنوياً • وكل هذه الوسائل ، في توفرها غير المحدود ، تستند الى رعاية كريمة ، لا تصدر الا عن راعٍ كريم ، يعرف ما للفن من أثر وخطر ، في حياة الشعب والأمة ، فيولي الفن والفنانين اهتمامه وعنايته المتواصلين ، وهذا الراعي الكريم الذي يستند في رعايته السابغة هذه الى ثقافة وقناعة ، هو الرئيس حافظ الأسد ، قائد أمتنا العربية في رحلة القبض على المصير وصولاً الى الغد المنشود •

لقد بات واضحاً الآن أن المستقبل للعلم والفن والأدب ، وأن امتلاك هذا المستقبل يرتكز على هذه الأسس ، لأنه بها ينبني ، وعلى دعائمها ينهض ، وهـذا الكشف مردّه عندنا الى حافظ الأسد لا بما هو قائد عسكري وسياسي تطاول قامته قامـات القادة العظام في التاريخ فحسب ، بل لأنـه هو ، في حـدة بصره وبصيرته ، وفي ممارسته الثورية ، نظرية وتطبيقاً ، قد توصل الى يقين راسخ بعلميّة هذا الكشف أيضاً .

وإذا كانت الثورة تتخلق بالثوار ، فان الثقافة تتخلق بالقادة المثقفين ، غير أن القائد المثقف لا يملك العطاء الثقافي بالضرورة ، فهذا يحتاج الى ايمان ، الى فعل ، الى بـذل ، الى نظرة تعتبر الثقافة ضرورة لا حلية ، وهذه الصفات ، على امتداد عمر الحركة التصحيحية ، قد وجدت معادلها الموضوعي في محقق نهضتنـا الثقافية ، وراعي هذا المؤتمر الأول من نوعه في تاريخ الحركـة التشكيلية في هذا القطر .

ولأن النهضة ، في أي بلد ، لا تكون إلا بتكاملها وشموليتها ، فان النهضة في هذا القطر قد كانت في تكاملها وشموليتها أيضاً ، ولسنا بحاجة الى اقتباسات واستشهادات كي نوثق هذه البدهية . إن الذي قـاد حرب التحرير في تشرين ، هو الذي قـاد معركـة السياسة في التشرين الآخر ، وهو الذي يقود الآن ، وباعتراف الجميع ، معركة السلم في مؤتمر السلام المقبل ، على أساس راسخ ، متين ، واضح ، هو تطبيق الشرعية الدولية في قضيـة فلسطين ،

كما طبقت في قضية الخليج ، وهذا منطق يدعمه الحق ، وتدعمه كذلك القوة ، ويأتي النفس الصمودي الطويل ، ليفضح كل المناورات والمداورات والتصريحات الاسرائيلية الوقحة ، الرامية الى نسف هذا المؤتمر ، فنحن ، حسب المواقف المبدئية الثابتة لقائدنا وقطرنا ، نريد تطبيق القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ وهما قراران واضحان ، يؤكدان حقنا في استرداد أرضنا ، مقابل السلام لغيرنا ، ولن نمل في محادثة من يريد المحادثات ، سواء كان هذا أو ذاك ، ففي هذا المجال تعرف الدنيا كلها أن حافظ الأسد هو سيد من ناقش وحاور وأعاد القضايا الى منطلقاتها الصحيحة ، إذا ما أراد الآخرون ابعادها عن هذه المنطلقات الصحيحة .

لماذا أقول كل ذلك ؟ وماذا أريد أن أثبت من وراء كل ذلك ؟ إن ما أريد اثباته هو أن الأشياء لا تتجزأ ، فمن بنى للثقافة نهضة، وللسياسة نهضة ، وللتحرير نهضة ، قادر أن يدفع عن كل ما بناه الأذى ، بالوثوب عليه ، ودفعه ، ودحره دحراً كاملاً .

لقد حاولت أن أظهر ما للفن التشكيلي من قيمة جمالية ومعرفية وتغييرية ، وهذا حسبي ، أما أنتم ، أيها الفنانون التشكيليون المتواجدون في هذا المؤتمر ، فقد تجاوزتم ، بما قدمتم على مدى أعوام طويلة ، المحاولة الى ما هو أكثر توكيداً منها : الموقف الواعي في القرار الواعي ، لكل ما يعود عليكم بالنفع ، وعلى نقابتكم بالنجاح .

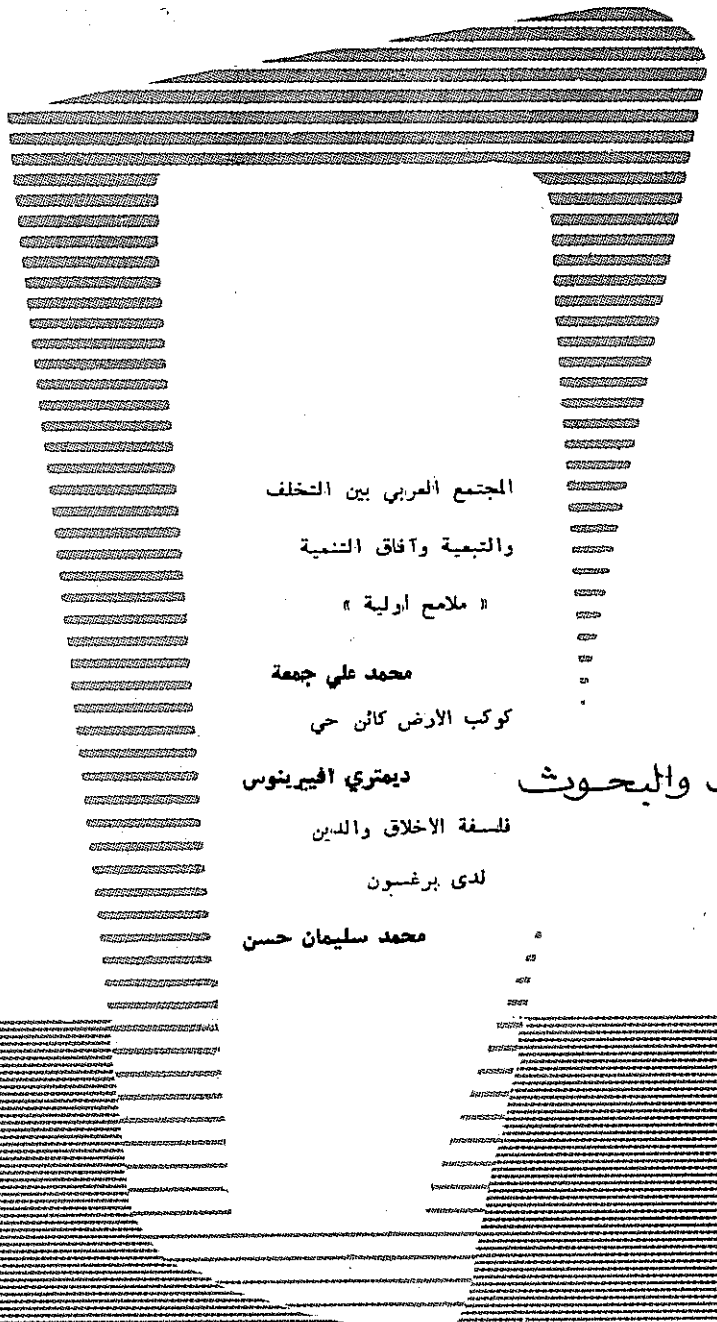

الدراسات والبحوث

المجتمع العربي بين التخلف
والتبعية وآفاق التنمية
« ملامح اولية »

محمد علي جمعة

كوكب الأرض كائن حي

ديمتري اڤيرينوس

فلسفة الاخلاق والدين
لدى برغسون

محمد سليمان حسن

الدراسات والبحوث

المجتمع العربي
بين التخلف والتبعية وآفاق التنمية
« ملامح أولية »

محمد علي جمعة

اولا مقدمة :

كثيرة هي الاشكاليات المزمنة في الواقع العربي ، والتي تطرح نفسها امام العقل العربي ، مطالبة اياه دراستها ووضع الحلول المناسبة لها . فاذا مستفسر حيناً ، ومتحدية حيناً آخر ، ولكن هذا العقل الذي كان منذ عدة عقود من السنين ، لا بل مئات ، يقف جامداً فاقد الحركة .

---

* محمد علي جمعة : باحث من سورية ، يهتم بالدراسات الفلسفية والاجتماعية .

قد بدأ منذ فترة قصيرة من الزمن يتفاعل مع هذه الاشكاليات ، وها هو اليوم ، قد خرج من هول المفاجأة ، وتجاوز مرحلة الاندهاش . نجد نفسه قادراً على البحث في ذلك الركام من التحديات ، ويضع الحلول اللازمة والمناسبة لها .

اما اهم هذه الاشكاليات التي تقف حجر عثرة امام اعادة التواصل للفعل الحضاري العربي ، ومن ثم المساهمة الفعالة في الفعل الحضاري العالمي ، تلك العقبات الناتجة عن ظروف التخلف والتخليف ، مع ما يرافق ذلك من ظواهر ــ التبعية ــ التغريب (الاوربة) وازمة الانتماء في نهاية المطاف ، ورغم الصعوبة التي تعتور المرء حين البحث في مثل هذه الأمور المشكلة . الا اننا سنحاول أن نخطو خطوات ولو بسيطة في هذا الاتجاه ، تمهيداً لإماطة اللثام ــ جزئياً عن خفايا تلك الظواهر المأزومة والمتجذرة في واقعنا العربي .

ثانيا الواقع العربي وطبيعة العلاقة مع ظاهرتي التخلف والتبعية :

لا بد من الاشارة بادىء ذي بدء ، بأن هناك اشكالا متعددة للتبعية ــ منها الاقتصادية ومنها العسكرية ومنها التكنولوجية ، ومنها الثقافية . كذلك التخلف ، فهو ظاهرة نوعية ودرجية ، فقد تكون هذه الأمة أو ذاك الشعب متخلفاً في مجال دون آخر نسبياً . وغالباً ما يكون التخلف ناتجاً عن ازمة حضارية ادت الى تراخي مجموع فئات الشعب وفق منظور ابن خلدون . مما يؤدي الى التخلف الكلي أو الجزئي ، وهذا يفضي بالتالي الى تبعية من هذا النوع او ذاك ، والتاريخ القديم والحديث مليء بالشواهد على حصول التخلف في هذا البلد او ذاك وعلاقة ذلك بنشوء التبعية . ومن الثابت ان هناك علاقة عضوية بين كلا الظاهرتين اللتين تنيخان بكلكلهما على الواقع العربي خصوصاً والعالم الثالث عموماً . فالتخلف من جهة يمسك بزمام الظروف والشروط التي تمنح التبعية اسباب استمراريتها ، كما أن التبعية تعطي التخلف شروط قوته وتأصيل ذاته في الواقع القائم فيه . ومن هنا فاننا سنحاول فيما يلي أن نوضح المعنى المراد بكل من الظاهرتين المفصح عنهما اعلاه .

اما التبعية : فنعني بها وفق قراءاتنا عنها ما يلي : الاعتماد شبه المطلق على الخارج المغاير بالانتماء الوطني أو القومي والالتزام بهذا المغاير سياسياً واقتصادياً وثقافياً مع انعدام شبه كلي لكافة الشروط والمستلزمات التي توفر للتابع القدرة على تجديد ذاته واعادة بنائها .

ولن نجانب الحقيقة اذا استنتجنا أن التخلف عن التبعية ، من حيث انه تقوقع وانكفاء على الذات ، وفقدان الاتصال مع العالم الخارجي بشكل شبه كلي ، والبقاء ضمن واقع اجتماعي ـ اقتصادي ، لا يمت الى الحاضر بصلة . في حين أن التبعية تتضمن ـ ولو بشكل جزئي ـ محاولة اولية قاصرة على طريق التنمية . وعليه فان نظرة فاحصة للوضع بعموميته في الوطن العربي منذ مرحلة التشرذم في أواخر الدولة العباسية مروراً بعصر الهيمنة العثمانية ، ومن ثم مرحلة الاستعمار الحديث والى أيامنا هذه . فاننا نجد أن هذا الوطن قد انضوى تحت لواء التخلف بشكل ليس له مثيل ، وان كانت هناك أو هنا بعض الاستثناءات من صحوة لم يكتب لها الاستمرار . لأن التخلف بشروطه كان قابعاً في الداخل العربي ككل . اما التبعية فانها استقت كما قلنا سابقاً اسباب قوتها من الوضعية الاجتماعية ـ الاقتصادية العربية المتخلفة ، هذا أولا وقبل كل شيء . وثانيا فان التبعية احد النواتج الاساسية للمرحلة الامبريالية والتمركز الاقتصادي والراسمالي العالمي . وبناء عليه فان الوطن العربي بجميع بلدانه قد توفرت عليه جميع الظروف لسد آفاق التنمية امامه . حتى انه يمكن القول بأن اكثر البلدان العربية تعيش ظروفاً واشكالا من التبعية . وان اهم ما يوجه من انتقاد للعالم العربي حسب قول يوسف حلباوي هو (تبعيته الى العالم الخارجي فاغلبية المشاريع الصناعية تنتقى بحسب المشورات الاجنبية وتدرس بحسب الدراسات الأجنبية ... و ... وتدار من قبل العديد من الخبراء الاجانب ويدرب صناعها لدى المعاهد الاجنبية ، وتشغل بالعديد من المواد الاولية او شبه المصنعة المستوردة »(١) ورغم بعض المحاولات التنموية في البلدان العربية فان هذه المحاولات بقيت قاصرة وفاقدة لاستقلاليتها ، ذلك نظراً لارتكازها على الخارج من جهة ، ولان الواقع الذي تجري فيه المحاولة متخلف جداً من ناحية ثانية ، وهنا يصبح قول سمير امين « ان التخلف والتنمية هما وجهان لنفس

الظاهرة ، اي ظاهرة التوسع الامبريالي ، وهذا التوسع بدوره غير متكافىء بالطبيعة »(٢) . التنمية والتخلف غير المتكافئين من وجهة نظر سمير أمين ، لانه لا يمكن أن تكون التنمية في ظل التخلف والتبعية اللتين ترتبطان بالامبريالية ارتباطاً مباشراً ، واذا كانت التنمية مبنية على علاقة مع هذه الامبريالية بموجب الطريقة التي اشار اليها يوسف حلباوي . فان اي تنمية ، هي في آخر الامر تنمية للتخلف بحد ذاته ليس الا . فالامبريالية لا تسمح الا بتنمية محدودة تلبي احتياجاتها ورغباتها ، وعلى أن لا يزيد عن معدل التنمية ـ المساوي للصفر كما يقول علماء الاقتصاد ، وهذه المعدلات التي تسمح بها الراسمالية العالمية المتقدمة ضمن شروط محددة ، ولدول معينة في العالم الثالث ، وليس لجميع هذه الدول . وما فتىء الغرب ـ أوربا وامريكا ـ يمارس مهمتهالتاريخية من وجهة نظره ، لابقاء دول العالم المتخلفة ومنها بلدان الوطن العربي ، لابقائها في مازق التخلف . وكما يقول غالي شكري « كانت مهمة الغرب الاولى والكبيرة هي تسويد الاستهلاك سوقاً ومنهجاً وبنى اجتماعية ، وضرب محاولات الانتاج مهما كانت بدائية »(٣) . وما يزال الغرب يمارس مهمته المشار اليها آنفاً لابقاء دول العالم الثالث ضمن اطار التبعية ، ولاجترار أغلب منتج هذه الدول ، لمنع القيام باي محاولة ذاتية تساعد على الخروج من منظومة التبعية . بهذا التنفيذ للمهمة ، يبقى الغرب منسجماً مع نفسه كاول أبدي ، منسجماً مع طروحاته الاستعمارية التي بدات كشعارات ، واهمها مقولة كيبلنغ الذائعة الصيت :

ـ الشرق شرق ، والغرب غرب ـ

شعار ينزّ بالتمييز ، والغرب يعلن عن ذاته باستمرار من خلال مقولة كيبلنغ المتجددة ابداً فالشرق يجب ان يبقى متخلفاً حتى يستطيع الغرب أن يبقى متقدماً ، على الأول أن يبقى تابعاً لانه متخلف ، والثاني هو القائد والقيّم دائماً لانه الغرب المتقدم ، وتبقى العملية الاقتصادية المحور الرائز للتقدم والتخلف ، لما لها من فاعلية وتاثير في الانشطة الاجتماعية الأخرى . لذلك فان الغرب ذا الاقتصاد القوي يساهم باستمرار في خلق التناقضات الكثيرة في البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المحيطة ، كالوطن العربي ، مما يفضي بشكل تلقائي الى

« ظهور التشوه والتناقض والازدواجية والتعايش الفارق في مستويات الابنية التحتية والفوقية ، الاقتصادية والثقافية ، تناقض في البناء الاجتماعي ، تناقض في البناء المعرفي الثقافي ، تناقض آيديولوجي بعيد عن مسار التاريخ الاجتماعي والواقع الفعلي للشعوب العربية . تناقض في البنائين الثقافي والسياسي »(٤) .

ان التناقضات الصارخة التي برزت في المجتمع العربي، وبدت واضحة في ظل الهيمنة البترو ــ دولارية . جعلت عملية التنمية دائرية الشكل ، قاصرة عن بلوغ اهداف المجتمع ذاته ، وبالتالي مشوهة لهذا المجتمع ، اقتصادياً واجتماعياً . ومن هنا فان العملية لم تكن عملية تنمية حقيقية . وانما كانت وما زالت عملية اعادة انتاج الاستهلاك . ان المحاولات التنموية بقيت مشوهة بسبب اعتمادها على الاستيراد وشبه الكلي لاكثر من ٩٥٪ من احتياجات اغلب البلدان العربية ، هذا من جهه . ومن جهة ثانية فان هذه الاحتياجات المستوردة غالبا ما تصب في خانة الصناعات الاستهلاكية المحلية او الوسيطية . وجواباً على ذلك وتبريراً له ، يدعي المصنعون والمنتجون قائلين : ان تطوير الانتاج ، وزيادة انواعه وكميته وتحسين المواصفات ، وموافقة المواد المصنعة محلياً للمواصفات والمقاييس العالمية . كل ذلك لا يتم تحقيقه حسب ادعائهم ، الا من خلال الاستيراد من الدول الاوربية والشركات العالمية الانتشار . ولا ينقص اولئك المنتجون بالواسطة او بالتكليف ، الوسائل والاساليب التي تمكنهم من تسخير وسائل الاعلام التي لها مالها من سطوة على المستهلك لتحقيق اغراضها . ولهذا يلاحظ ان الكثير من المواد المعلن عنها في وسائل الاعلام العربية تتمحور حول نماذج متعددة . نذكر المثالين التاليين منها .

١ ــ صنعت هذه المادة ؟ بترخيص من شركة ... ؟ الفرنسية .. او الهولندية ــ او الانكليزية ــ او الامريكية .

٢ ــ تم انتاج هذه المادة ؟ وفق احدث المقاييس العالمية ... !؟.

ان هذه الاشكال الانتاجية الوسيطة والاستهلاكية الطابع ، والوطنية الاقامة . تستطيع بفضل الدعم الخارجي من الشركات التي رخصت لها باسماء بعض منتجاتها ، تستطيع مع مضي الوقت تحطيم

النمط الانتاجي في البلد العاملة فيه ، بعد أن تتم خلخلة هذا النمط ويصبح في حالة تمفصل بين قطاعاته الانتاجية . اضافة الى ذلك تستطيع هذه الشركات الوسيطة بفضل أشكالها الانتاجية التابعة ، والمدعومة من الشركة عابرة القومية ، تستطيع فرض سماتها « الاهلاكية » على مجتمعاتها . وتخترق بشكل فظ مجموعة النظم والتقاليد الاجتماعية واحكام دائرة التبعية الاقتصادية بكامل دورتها ـ استيراداً وانتاجاً وتوزيعاً ـ وهذا ما يتحقق من خلال اتفاق المصالح بين المركز الراسمالي العالمي والمحيط الاستهلاكي ـ المتبرجز ـ التابع . هذا التابع الذي يؤدي وظيفته الاساسية في التقسيم الدولي للعمل لصالح المركز الراسمالي . وتلك المظاهر التي تتمثل ، في تشوه البناء الهيكلي لتلك المجتمعات ودولها التابعة واحداث التغييرات الجوهرية في الابنية الاقتصادية لتلك الدول،وكذلك بناها الاجتماعية،كما يرى أحمد حجازي ان من أهم هذه التغييرات « تغيير الابنية الاجتماعية في هذه الدول ليس فقط في مجال القيم الاجتماعية ، وانما أيضاً في مجال الاتجاهات السياسية . فالتبعية ـ كمحصلة للتكامل في السوق العالمي لا تعني فقط تكريس التخلف أو نموه وانما تعني أيضا فقدان سيادة وحرية واستقلال الدول التابعة »(٥) من هذا المنطلق نستنتج بشكل أولي وضمن هكذا معطيات ، ان ما حققه الغرب في أغلب بلدان الوطن العربي والعالم الثالث عموماً ، كفيل بأن يتركهما متخلفين زمنا طويلا . يعيشون على تخوم العالم ، اذا لم يتم السعي الحثيث الى تعطيل قانون التبعية من خلال فك الروابط الالحاقية مع العالم الراسمالي الغربي والتخلص من « قانون القيمة الراسمالية العالمية ، واحلال محله سيادة قانون قيمة وطنية شعبية ينعكس فيه مقتضيات التحالف الطبقي الشعبي الحاكم »(٦) .

ان قانون القيمة الوطنية الذي يتحدث عنه سمير أمين توآ ، هو وحده الذي يمكننا من احداث النقلة النوعية المطلوبة ، اقتصادياً واجتماعياً ، نقلة تضعنا في مستوى الفعل التنموي الذاتي ، المبني على أساس تطويري شعبي وديمقراطي الممارسه ، لا على أساس التطوير الخارجي القائم على تشرذم وتخلع في البنى الاقتصادية التابعة والمرتبطة

بنموذج التراكم العالمي التابع ايضاً لمركز التراكم الراسمالي العالمي . فنمط التطور الخارجي التابع « هو الذي يخلق ظروف استمراره الاقتصادية والاجتماعية وتهميش الجماهير ويضمن للاقلية دخلا متزايدا ضرورياً لاتباع انماط الاستهلاك الاوربية . ان نمط الاستهلاك هذا ، يقوي من ريعية القطاع الذي ينتج منتجات البذخ ، ويؤكد الاندماج الاجتماعي ، الثقافي ، الايديولوجي والسياسي للطبقات المحظوظة فيما بينها »(٧) .

مما سبق نخلص الى القول : إن واقع التخلف وظروف التبعية التي يعيشها المجتمع العربي ويتسم بها . لا تتجاوز الا بالتخلص من الاندغام مع النظام الراسمالي العالمي المتمركز . وان التنمية لا تتحقق الا في ظل علاقات استهلاكية تابعة تعيد شروط انتاج ذاتها باستمرار ضمن دائرة مغلقة مثلها ومثل العامل على تسييدها ، كمثل ثور الناعورة المعصوب العينين يدور ضمن دائرة مرسومة له ولكنه حقيقة لا يعي لماذا يدور . كذلك هي البورجوازيات العالمية والنظم الكومبرادورية المشاركة لها ، لا تستطيع الانفكاك من اسار المركز الامبريالي ففي انفكاكها اعلان موتها ، لأنها اضافة لتبعيتها فهي طفيلية وهجينة في مجتمعاتها التي تعيش على ارزاقها ، لا بل على دمائها .

ثالثا : الآثار الاجتماعية والثقافية للتخلف والتبعية على المجتمع العربي :

ربما لن يكون بمقدورنا تسجيل جميع الآثار السلبية للتخلف والتبعية على مجتمعنا العربي . ولكننا سنحاول قدر استطاعتنا ان نلخص ما نراه انه مهم منها اجتماعياً ـ اقتصادياً .

آ ـ ظاهرة التقليد من منظور اقتصادي واجتماعي .

يكاد يتفق معظم الباحثين على أن المفكر العربي الفذ ـ ابن خلدون ـ كان اول من تصدى لدراسة ظاهرة التقليد في تاريخ الفكر الاجتماعي ، حين تحدث في مقدمته قائلا « ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده »(٨) وربما ان المقولة

الخلدونية تنطبق للاسف على مجموع البلدان العربية من خلال بعض شرائحها الاجتماعية . واذا جاز التقسيم التالي للمجتمع العربي ، أو للشعب العربي ، فاننا نقسمه الى مجتمعين ، الاول يسمه النفط بميسه ، والثاني غير نفطي . الا أن كلا النوعين يشتركان بالكثير من القيم والعادات ـ حسنتها وسيئها ـ واذا كان فعل التقليد ، فعل حيادي من حيث الاساس ، الا أن المقلد هو الذي ينقل هذا الفعل إما الى السلب واما الى الايجاب .

وفي معرض بحثنا هنا ، فاننا نلاحظ غلبة للجانب السلبي على فعل التقليد في المجتمع العربي . خاصة حين نتابع هذه الظاهرة الى حدودها القصوى . فاننا نجد أن الكثير من أبناء الشعوب العربية ، تقلد الآخر المتفوق دون وعي لاسباب تفوقه ؛ ولاسباب تخلفهم وتدني مستواهم المعرفي ، ومن الامثلة الصارخة على ذلك حالة ازدواجية اللغة ، حيث نجد الكثير من أبناء العربية يعولون على استخدام الفاظ من اللغات الاوربية مثل :

Hard luck — Card — Pardon — Sory — No broblem — Tank — by — Hi — Mach — Game — System — Groub — Convoy — Bark — Control .. etc.

مع العلم أن الفاظا وتراكيب كثيرة تبنتها بعض الشرائح الاجتماعية العربية للتدليل على انها مثقفة حتى أننا نلاحظ حالة اعوجاج اللسان هذه لدى بعض الاوساط الاكاديمية العربية ، مما يدل اضافة على أن في ذلك تقليد من قبل الادنى للاعلى ، والشعور بالنقص والدونية ... الخ ان ذلك يدل على نوع من التخارج الانتمائي لدى هذه الفئات الراغبة في التأورب ولو باللسان . ناهيك عن المحاولات المنتشرة للتقليد للغربيين في الافعال والتصرفات والالبسة . واذا كانت اللغة هي وعاء العقل كما يقال ، فان احلال لغة محل أخرى أو تطعيمها بمفردات من اللغات الأخرى ، فيه من الرغبة المبطنة ما فيه للتخلي عن الانتماء للبنية العقلية الاساسية ، والالتحاق بالبنية المرغوبة « ومما لاشك فيه ان استعداد اعطاء اللغة والثقافة الاجنبية هذه المكانة لن يساعد على خلق عقلية وانشاء واقع جديد يعزز من احترام اللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية بين هذه

الاجيال الممزوجة الثقافة واللغة »(٩) وما تجدر ملاحظته ان ظاهرة التقليد من قبل العربي للغربي الاوربي والامريكي تتسع طردا مع ازدياد اليسر المادي ارتقاءً بين طبقات الشعب . والعكس صحيح ، الى أن يصل الامر الى مرتبة تقليد المقلد أو التقليد بالواسطة . وهذا التقليد الاخير يزداد تباعا مع زيادة نسبة الاميةفي المجتمع العربيبنوعيها ـالتعليمية والثقافيةـ ويمكن القول : إن التقليد عبارة عن محاولة احتجاجية من قبل المقلد على الوضع الذي يعيشه ، وللخروج من مركب النقص الذي يعتريه . كما أن منطق التعويض يستبد بالمقلد . ومن هنا فان محمود الذواوي يصيب كبد الحقيقة عندما يقول : « ان رغبة الفرد أو الجماعة في تحسين مكانتهما الاجتماعية عامل مهم في تفسير ظاهرة التقليد بين المجتمعات والثقافات »(١٠) .

ان التقليد بحدود تؤدي الى تجاوز التخلف والوصول الى ندية حقيقية للمقلد سابقا ، لهو تقليد ايجابي ومطلوب ، واننا لندعو اليه ؛ وتطبيقه على الطريقة اليابانية . أما اذا كان التقليد ينطوي على ترسيخ للدونية وقيم التبعية والالحاقية ، فاننا نحذّر منه ، وخاصة اذا كان هذا التقليد يتصل بالقضايا الاجتماعية والسياسية المحورية . كما هو حال بعض الاقطار العربية التي تعلن أنها تستعد لتطبيق الديمقراطية على الطريقة الغربية . أي أنها ستستورد طريقة تطبيق الديمقراطية كما تستورد التكنولوجيا والأغذية وحتى الثياب . استيراد ، استيراد ، استيراد . ؟ ! وكأننا نذهب الى هناك ، الى حيث كل شيء ، الى اوربا لنصنع وفق معطياتهم المادية والمعرفية ، تلبية لرغبتهم ورغبة البعض منا ـ للاسف ـ ومع أننا لا ننكر لانه ليس بامكاننا الانكار ، بأن اللغات أوعية الثقافة والعقليات ، وان الحضارة الارقى تفرض نفسها على الحضارة الادنى ؛ كما هو حالنا اليوم . فنحن نرى أن اللغة الانكليزية أو حتى الفرنسية تنتشر بين أوساطنا ، سواء من خلال البعثات أو الخبراء أو وسائط الاعلام . مع ما يرافق ذلك من « انتشار قيم حضارة هذه اللغة، خاصة بين الفئات التي تعلمتها وتأثرت بالنظام التربوي للحضارة الاجنبية »(١١) فذلك كله يشير الى اعادة انتاج غرب مشوه أصلا في وضعية اجتماعية مخالفة لا بل مناقضة .

ننتهي الى القول بأننا سنبقى غرباء على العالم مالم نع الدور الايجابي للتقليد . ذلك الدور الذي استطاع اليابانيون ـ وهم مثلنا شرقيون ـ أن يعوه فكان أن جعلوا الغرب لديهم يابانيا لا أن يجعلوا اليابان غربيا ، وصدق رئيس الوزراء الياباني في بداية السبعينات حين قال : اننا سنغزو العالم أجمع . وهم فعلا استطاعوا غزوه بتقنيتهم ومنتجاتهم شرقا وغربا على حد سواء .

ب ـ الهجرة العربيـة ـ البينية والخارجية وآثارها الاقتصادية والاجتماعية :

قد لا يوافقنا البعض على ادراج قضية الهجـرة كواحد من عوامل تخلف التنمية في الوطن العربي . ولرب قائل : ان الهجرة بين البـلاد العربية ، وخارجها وخصوصا الى الامريكيتين ، جنوبا وشمالا قديمة ومنذ اكثر من قرن ، فما علاقة ذلك بالتخلف .

اننا لا ننكر أن تاريخ الهجرة سواء البينية العربية ، أو الخارجية ، هو تاريخ مديد نسبيا . ولابد أن ننوه أن الاسباب الاساسية للهجرة أيا كانت ، هي في الاساس أسباب اقتصادية ، ومن ثم هي أسباب سياسية. أما الاقتصادية فقد تمثلت بضيق أسباب العيش وزيادة التراكم الضريبي على الانسان العربي . خصوصا زمن الهيمنة العثمانية . اما الاسـباب السياسية ، فاننا أيضا وفي ظل الهيمنة العثمانية ، نلاحظ أنه كلما اقتربنا من مركز السلطة العثمانية وازدادت سـيطرتها ، كلما ازدادت نسـبة المهاجرين بسبب الضغط السياسي اضافة للضغط الاقتصادي المفروض على الانسان العربي . وهذه المعادلة هي ؛ هي مازالت تتحكم بالهجرة . ولكن بعد أن انتقلت الى الحيز القطري . اضافة الى عوامل أخرى سنأتي على ذكرها في سياق البحث . وقد كان المواطن العربي على اختلاف انتمائه العقيدي يهاجر رغبة في تحسين ظروف عيشـه ، وتخلصا من الواقـع الاستبدادي الذي تفرضه عليه الدولة . واذا كانت الهجرة ، إبان الهيمنة العثمانية ؛ تتـم باتجـاه مصـر ودول الامريكيتين ـ الولايات المتحـدة ـ البرازيل ـ الارجنتين الخ . فان الهجرة العربية الحديثة قد حدث عليها

بعض التحول . فقد اخذ الكثير من العرب يمّمون وجههم شطر أوربا وأمريكا ودول النفط العربي . وتختلف الهجرة الى الغرب عن الهجرة الى بلدان النفط العربي اختلافا بالدرجة مع شيء من الاختلاف بالنوع الى حد ما . وقد سبب انخفاض مستوى الدخل وقلة فرص العمل الهجرة الكثيفة الى بلاد النفط العربي من البلدان المصدرة للعمالة ـ مصر ـ سورية ـ الاردن ـ اليمن ـ السودان ـ لبنان ـ وهذه الاخيرة تشترك ببعض الخصائص مع بلدان شمال أفريقيا العربية ـ تونس ـ المغرب ـ موريتانيا والجزائر ـ بتوجيه الرغبة بالهجرة الى أوربا أكثر من البلدان النفطية نسبيا ، وان كان لها مهاجرون باتجاه هذه الاخيرة . الا انها لا تماثل الهجرة الى أوربا كماً . ان هذه الهجرة بنوعيها وبعد الفورةالنفطية كانت تمثل للفرد في البلدان العربية المصدرة للعمالة نموذجا للخلاص من الواقع الاقتصادي المتردي الـذي يعانيه . ولكن هـذه الهجرة النفطية الخصائص منذ سبعينات هذا القرن . قد خلقت ، أو ساهمت في خلق انماط من السلوك ، وتحول في بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية الى حد خطير « ولعل من أخطر الآثار الاقتصادية للطفرة النفطية التيشهدتها الاقطار المصدرة للنفط ، والتي امتدت لتشمل سائر الاقطار العربيـة الاخرى بسرعة ملحوظة ، تلك الظاهرة التي تتمثل في التوسع الكبير في الاستهلاك الترفي والمظهري وفي اقتنـاء السلع الاستهلاكية المعمرة ، وفي سرعة معدلات اهلاك هذه السلع التي هي في أغلب الأحوال مستوردة»(١٢) هذه النزعة الاهلاكية التي يتحدث عنها الجهيمي ، والمنتشرة في المجتمعات العربية النفطية . فيها من أشكال الهدر غير الواعي لطاقات مالية كبيرة جدا ، يمكن أن توظف في التنمية العربية . ولكن عدوى التقليد وظاهرته وانعدام الوعي الاقتصادي والسياسي ، يحولان دون توظيف هذه الاموال في مكانها الصحيح وفي اتجاهها المطلوب ، كذلك الحال بالنسـبة للعمالـة العربية ، التي انتقلت اليها عدوى الاسـتهلاك والتقليد ، حيث هـذه الاخيرة ؛ اخذت تقلد المقلد النفطي الباذخ ، فالعمالة المهاجرة تقلد دون أن تعي حقيقة الفعل الممارس . لان وعيها مشوه أصلا ، ونحن واجدون في الهجرة أصنافا عديدة هي كما يصنفها عفيف ضاهر الى ثلاثة مستويات:

« ١ ـ الهجرة المؤقتة التي تضم المتكسبين والمرافقين .

٢ ـ الهجرة الاحلالية .

٣ ـ الهجرة غير القانونية ـ او المتسللة . »(١٣)

الهجرة المصنفة أعلاه ، ولدت آثارا سلبية كما أشرنا سابقا . وهذه الآثار كانت على الصعيدين الفردي والاجتماعي ، وذلك نظرا لانعدام التخطيط المبرمج والمتبادل بين البلدان العربية . سواء المستقبلة للعمالة أو تلك المصدرة لها . فقد أحدثت هذه الهجرة خللا وظيفيا كبيرا في مجتمعات البلدان المصدرة للعمالة . خصوصا ذلك الفراغ الكبير في العمالة الداخلية ـ زراعة ـ صناعة ـ وخدمات ـ مما أثر سلبا على كافة القطاعات الاقتصادية ، وخصوصا الزراعي منها ، لان اقتصاد البلدان المصدرة للعمالة اقتصاد زراعي السمات . ولان نسبة هذه العمالة المهاجرة من هذه البلدان ، الى سوق عمل البلدان النفطية وكذلك الى اوربا . كان ومايزال يترك عمله الزراعي . اضافة الى تحول قسم كبير من العمال الزراعيين ، كما يقول عفيف ضاهر « الى قطاع البناء كبديل عن الطلب على عمال التشييد من قبل الاقطار النفطية »(١٤) مما شكل تضخما لا مثيل له في قطاع الخدمات العربي عموما ، وضمورا لا مثيل له أيضا في قطاع الزراعة . فانخفضت مستويات الانتاج وتثاقلت سرعة وتيرة التنمية ، وحدث شبه فراغ في الريف العربي من العمال الزراعيين ، الذين يعتبرون الرصيد الاول لانتاج الدخل الوطني . حتى أن بعض الاقطار العربية قد ظهرت فيه الهجرة الاحلالية للعمالة بشكل بارز . فقد عمل على استقدام العمالة الآسيوية محل مهاجريه الى الاقطار النفطية . والهجرة الموسومة أعلاه تساهم بشكل غير مباشر في تأصيل التخلف في البلاد العربية . واذا كان البعض يرى أن هذه الهجرة قد عملت على رفع مستوى الدخل الوطني للبلدان المصدرة للعمالة ، من خلال تحويلات العاملين المالية . فان ذلك ادعاء قاصر النظر . لان هذه الهجرة قد أدت بنسب متفاوتة الى تحطيم بنى الانتاج الاساسية . وبلغت الازمة أوجها مع انخماد الفورة النفطية . وبعد قيام الأقطار النفطية بالاستغناء عن

خدمات جزء كبير من العمالة العربية ، ليتشكل بذلك عبء كبير على بلدان العمالة الاصلية ، وتتأصل لديها مشكلة متأزمة تمثلت بجيوش العاطلين عن العمل . وكل ذلك سبب نوعا من وجود عداء ضمني أو صريح « فردي أو وطني » تجاه البلدان النفطية . هذا العداء النفسي المظهر ، القائم على أساس اقتصادي ، قد نشأ إثر قيام البلدان النفطية باستقدام العمالة الآسيوية الرخيصة ، واحلالها محل العمالة العربية المرتفعة الثمن . هذا التصرف ادى الى ردود أفعال مختلفة ؛ ذاتية ونفسية ، وشعور عام لدى المستغنى عن قوة عملهم بالغبن لحقهم ؛ اضافة لشعور العداء الذي أشرنا اليه سابقا تجاه من كانوا سببا في رحيلهم ، سواء من أبناء الدول النفطية؛ أو تجاه المهاجرين الجدد من الآسيويين . وما تجدر الاشارة اليه ، أن حجم الهجرة البينية العربية قد اخذ بالتناقص منذ بدء الثمانينات ، مع ازدياد ملحوظ في حجم العمالة الآسيوية ــ هندية ــ كورية ــ فليبينية ــ باكستانية ... الخ بحجة قبول هذه العمالة بثمن أقل وظروف معيشة غير مكلفة . وهذا مالا تقبل به العمالة العربية . علما أن حجم العمالة في البلدان النفطية قد حافظ على حجمه بالرغم من التخلي عن العمالة العربية. هذا الاستغناء الذي زاد معدلات التضخم في البلدان غير النفطية مما حال دون تنفيذ خطط التنمية مع ما رافق ذلك من مشاكل اقتصادية واجتماعية ونفسية ، تراكمت مع السابق من نوعها . وعادت دائرة التخلف تتحكم من جديد في آليات البلدان العربية ، الاقتصادية والاجتماعية . وعليه فان الآثار السلبية المترتبة على الهجرة . اذا لم يتم تجاوزها بقيام الاقطار العربية بوضع خطط تنموية متكاملة أو متناسقة للاستفادة من طاقات العمالة وتوظيفها عربيا قوميا ؛ ووطنيا قطريا . فان حلقة التخلف ستبقى محكمة الاغلاق .

أما الهجرة الثانية . الى أوربا . فهي أخطر من الهجرة البينية بأشواط . ذاك أن الهجرة البينية العربية تتسم بالموسمية والمرحلية في حين أن الهجرة الى أوربا تتسم بالاستقطابية والديمومة . فالدول الغربية غالبا ما تعمل على المحافظة على المتفوقين العرب لديها بتقديم مختلف المغريات لهم . وحيث أن الهجرة العلمية للدراسة والبحث ،

لا تتم الى أقطار النفط وانما الى أوربا ، فاننا نلاحظ أن الهجرة الخارجية تختلف عن الداخلية العربية ـ بأنها هجرة لها أشكالها الاجتماعية والاقتصادية وانواعها هي :

١ ـ الهجرة العلمية للدراسة والبحث العلمي وهجرة الادمغة العربية.

٢ ـ الهجرة بحثا عن العمل لتلبية أسباب المعيشة .

٣ ـ هجرة المال العربي .

ان الهجرة من النوع الاول والهجرة من النوع الاخير اذا كانا يساهمان في استمرار تقدم المتقدم « أوربا وأمريكا » فانهما بالوقت ذاته يحافظان على تخلف المتخلف « الوطن العربي » فالمال العربي الفار من أرضه ووطنه الصادر منه ؛ الى أوربا نتيجة ظروف استثمار غير متوفرة عربيا . يؤدي الى زيادة التراكم الراسمالي العالمي التمركز وقوة دورته الاقتصادي وسطوته ، في حين يؤدي الى زيادة التخلف والافقار والتهميش الاقتصادي في الوطن العربي . فاذا كانت مقولة : « ان المال لا وطن له صحيحة » فان مقولة « ان صاحب المال له وطن » صحيحة أيضا . ولذلك فان المجتمعات والدول المتقدمة جدا تغذي وتعمل على ترسيخ المقولة الاولى ، تعمل على طمس المقولة الثانية . ففي الاولى فائدتها وفي الثانية ضرر لها. ولذا علينا توضيح المسألة لجعل الاولى مرتبطة بالثانية وتابعة لها ، حتى نستطيع أن نستفيد منهما عربيا وهذا ما سنبينه لاحقا . أما هجرة الكفاءات والمهارات والأدمغة ، فان أوربا وأمريكا ، لا تبرح حتى تاريخه تعمل على استقطابها بشتى السبل . فهي كما تحاول اغراء المال العربي بشروط استثمار مشجعة وشعورا بالثقة لصاحب المال بالمحافظة على ماله ونماء هذا المال . كذلك تغري الكفاءات العلمية بتوفير أسباب الرفاهية وأساليب البحث العلمي ، والعوائد المالية الكبيرة . وكل ذلك ما يشجع الكفاءات العربية نسبيا على الهجرة . مما يساهم ويزيد الفجوة بعدا بين البلدان المتقدمة والبلدان العربية ، ثقافيا معرفيا واقتصاديا . مع الاشارة الى أن الاقطار

العربية عادة ما تستقدم العلماء والخبراء من اوربا وغيرها تحت شروط مادية باهظة التكاليف ، فهو يفقد ابناءه باستمرار ويستقدم باستمرار البديل عنهم . وتقدر « هجرة الكفاءات العربية العالية الى البلدان المتقدمة بـ ٤٠٠٠ سنويا . وهذه الهجرة العلمية والفنية ادت الى عرقلة مشاريع التنمية وحرمت التنمية من عناصرها الأساسية ، كما أن الهجرة الحقت بالعالم العربي خسائر جسيمة من ناحية المبالغ والكلفة التي قدمت الى هذه الكفاءات أثناء الدراسة وخسارة انتاج هذه القوى البشرية العالية التأهيل والكفاءة ، واخيرا ، ان هجرة الادمغة والكفاءات ادت الى خلل في بنية الدول العربية وكرست تبعية العالم العربي للدول الرأسمالية(١٥) ونحن كثيرا ما سمعنا عن علماء وخبراء عرب قدموا الى العديد من المؤسسات العربية كموفدين للدول الغربية وشركاتهم وممثلين لها الى هذا البلد العربي او ذاك . بعد أن تمكن الغرب من استقطابهم لديه ، وبعد أن قدم لهم المغريات المادية ورسم لنفسه لديهم صورة آسرة ومغرية « بواسطة وسائل التأثير في الراي ، وفي هذه الحالة ، لا يعود الاعلام سوى شكل من أشكال السيطرة »(١٦) .

السيطرة التي يتحدث عنها البرتيني تتحكم بقوة يدينامية التخلف والتبعية في البلدان المتخلفة بمنع ابنائهم من تنمية بلادهم بعد العودة اليها . انما عملت الدول المتقدمة على قطع انتمائهم بالبلد الأصل ودمجهم كليا في المجتمعات التي هاجروا اليها .

وتبقى مسألة هجرة العمالة العربية الى أوربا وامريكا . فان جميع الاقطار العربية تشترك من خلال ابنائها بهذه الهجرة بنسب متفاوتة وتبلغ قمتها وحدها الأقصى في بلدان المغرب العربي ، فعمال هذه البلدان مثلهم كمثل المهاجرين الى البلدان النفطية رغبة بتحسين ظروفهم الاقتصادية والمعيشية من خلال العمل في البلدان الاوربية واولها فرنسا . وتشير البيانات التي وضعها أحمد تفاسكا الى ضخامة الهجرة العربية المغربية الى أوربا(١٧) وتكاد تتشابه ظروف العمل والأعمال التي يقوم بها العمال العرب في بلدان أوربة وبلدان النفط العربي . من أعمال مهنية يدوية وميكانيكية قاسية وخطيرة لا يقبل القيام بها عمال البلاد المستقبلة

للعمالة . ومع ذلك تمارس هذه الأخيرة مختلف الضغوط على العمالات العربية الوافدة والمقهورة . فمثلا تلعب ورقة الاقامة قمة الضغوط سواء في الاقطار النفطية أو في أوربا . وزيادة على ذلك يتعرض العمال العرب في أوربا لضغوط اضافية نتيجة الاختلاف في الانتماء القومي والديني مما يولد لديهم حالة من الفراغ الثقافي . فالوسط الاوربي « لا يسمح ولا يتيح للعامل العربي امكانية الاستفادة من مختلف النشاطات الفكرية والثقافية في هذه المجتمعات ، ونادرا جدا ما تخصص انشطة ثقافية أو ترفيهية للعمال العرب المهاجرين »(١٨) فالثقافة التي يريدها العامل العربي هي ثقافة الوطن الأم في بلد الاغتراب كتعويض عن منطق التمييز في المعاملة والاجور ، الذي يحدث لديه شعورا متفاقما بالغربة والدونية تجاه الغير الاوربي ، لأنه ليس في مستوى المجتمع الذي يعمل في محيطه . انه يحس ويشعر بأنه مستلب تماما ، وانه ليس غير اداة وكمية مبتذلة ولاحقة لمحيط لا تربطه به أدنى صلة .

ج ـ النزعة الاستهلاكية المبتذلة ـ الاهلاكيه « والتنمية بالآخر » :

تعتبر النزعة الاستهلاكية ، التي كان النفط واحدا من اسباب تكونها ، تعتبر احد اهم المظاهر التي طغت على المجتمع العربي منذ بداية السبعينات . ومن دلالات تأصل هذه النزعة في مجتمعنا العربي ، ميل الفرد العربي سواء كان من أبناء الأقطار النفطية أم من العرب العاملين فيها ؛ الى التشبه بالغربيين بتصرفاتهم وعاداتهم ، لا بل واحيانا تجاوزهم في بعض الامور . ومن الامثلة الصارخة على ذلك اقتناء السيارات الحديثة والفارهة وتبديلها بشكل دوري لافت للنظر ، وكثيرا ما حاولت العمالة العربية استنساخ أشكال السلوك التي تمارس من قبل بعض مواطني البلاد النفطية للتعبير على المقدرة الاستهلاكية ، والمفاخرة بتلك المقدرة ، ونتيجة لذلك أصبح « الثمن الذي دفعته المجتمعات المحلية لقاء رواج الهاجس الاستهلاكي في ظل ظروف الفقر المدقع لعموم فئات الشعب . كان على حساب منظومة القيم والروابط الاجتماعية التقليدية التي لعبت في الماضي دور صمام امان لحماية هذه المجتمعات من الانهيار والتفكك رغم كل ما واجهته من صعوبات ومحن على الصعيدين الاقتصادي والسياسي »(١٩) وقد مر معنا في مستهل البحث أن النزعة الاستهلاكية

احد الاشكال المعبرة عن اعادة انتاج التبعية وتأصيل شروط التخلف . فقد ساهمت التبعية والازالت تعمل في ترسيخ عوامل التجزئة السياسية والاقتصادية والتشرذم الاجتماعي في الوطن العربي . مما يؤدي بالتالي الى نوع من التوليد الذاتي لها بتقوية اشكال الارتباط الالحاقية للعالم العربي بالعالم الراسمالي المتقدم ، مع ما يرافق هذا الارتباط من أساليب متنوعة للنهب الامبريالي لمقدرات العرب الاقتصادية ، سواء بشكل مباشر من خلال الشركات العابرة للقومية . أو بواسطة الشركات التابعة ــ الابن شبه الشرعي ــ لها والتي لها حق التخلي عن تبنيه متى قصّر عن أداء واجبه ووظيفته كخادم وسمسار . وحقيقي أن الشركات العظمى قد حققت والاتزال ، أرباحا خيالية ، اضافة للارباح الهامشية التي تحققها الشركات الوطنية الصغيرة الخادمة ، من خلال زيادة احجام الاستهلاك غير الرشيد ، سواء في البلدان غير النفطية او النفطية ، وان كانت هذه الأخيرة بنسبة اكبر . حيث يرى الجهيمي أن النزعة الاستهلاكية يتم تمويلها من « الايرادات النفطية وهي ايرادات ريعية ، أمكن الحصول على معظمها كنتيجة لتذويب مورد طبيعي « المخزون النفطي » وليس كنتيجة لانتاج حقيقي . لذلك فان معظم الاستهلاك لا يمكن تبريره اقتصاديا »(٢٠) لان الجدوى الاقتصادية لاي منتج تتكون من خلال اعادة توظيف راس المال مع جزء من هامش الربح في شكل انتاجي جديد لا استهلاكي . وهذا ما لا يتحقق بالشكل المطلوب بعد أن يتم تسويق النفط المستخرج . بل غالبا ما يستخدم المال الناتج عن بيع النفط في اعادة انتاج الاستهلاك . لا الانتاج الحقيقي الصناعي والزراعي . وهذا ما يشير اليه أسامة عبد الرحمن في حديثه عن دور عائدات النفط المتعاظمة في الدول العربية النفطية ، حيث يوضح أن هذه العائدات قد خلقت ذلك « التوجه الانفاقي الاغداقي على مشروعات البنية الاساسية التي لم ينظر اليها على أنها وسيلة ، بقدر ما كانت النظرة اليها على أنها غاية وصاحب الانفاق الاغداقي ... توجه انفاقي استهلاكي على صعيد القطاع العام وكذلك الخاص ، اضافة الى الساحة المجتمعية ، الامر الذي ترتب عليه زيادة كبيرة في الواردات من السلع الاستهلاكية والكمالية الترفية »(٢١) ان هذا الانفاق البادخ للانتاج الريعي ليس انتاجا وطنيا من حيث الاساس.

لأنه يتم بواسطة الشركات العالمية الانتشار التي تسقط صفة الوطنية عن المنتج نفسه « البترول » بمجرد اكتشافه لا عند استخراجه وتوزيعه لأن جزءاً كبير من ثمنه يكون قد دفع قبل استخراجه أساساً . ولهذا فان ما ينتج لا يصب في خانة الانتاج الوطني وانما في خانة الانتاج الاستثماري للشركات العالمية . كما لا يصب في مجرى التنمية الوطنية وخدمتها بكليته . انما بشكل جزئي مما يبقي التنمية كما هو مراد لها ! مشوهة وقاصرة ليستمر نموذج اعادة انتاج الاستهلاك قائماً . وهنا قد يمكن القول : ان هناك نوعين من التبعية أمر وارد . الأول وهو ما يمكن أن نسميه بـ : التبعية الدولارية . والنوع الثاني نسميه : التبعية المزدوجة ـ البترو دولارية ـ فالبلدان المتخلفة عموماً ترتبط بتبعية مشروطة للمركز الرأسمالي العالمي ، وأما النموذج الثاني من التبعية . فهو كما هي حال دول العالم المتخلفة . فهي تابعة اتوماتيكياً للمركز الامبريالي المالي العالمي ، وهي أيضاً تتبع له بالواسطة من خلال تبعية « خلالية » لبلدان البترول . ولو كانت هذه الاخيرة تملك الرساميل العظيمة الا انها غير قادرة على توظيفها . فهذا المال وطني من جهة وعالمي من جهة ثانية ، لأنه « غير قابل للتحقق على مستوى النظام الرأسمالي ، ولهذا ينبغي اعادة انشائه على المستوى الدولي ، ليهيمن على المزيد من الموارد وقوة العمل دافعاً في ذلك عملية التدويل الى أقصاها . والحقيقة أن عملية تدويل راس المال الاجتماعي في المنطقة العربية لم تقتصر على البلدان البترولية ، بل انها شملت كل أرجاء المنطقة »(٢٢) هذا الرأسمال المزدوج ، يسم الاقتصاد أيضاً بالازدواجية من خلال اندماجه بالرأسمال العالمي ؛ استهلاكاً وانتاجاً . وذلك لمنع المال العربي من أن يتدول لذاته ، وانما يتم ادخاله في المنظومة المالية العالمية ؛ وليفقد جنسيته الاساسية ويزيد في تمركز الرأسمال العالمي ـ الغربي ـ ولتزداد بالتالي آليات التخلف والتبعية في أطراف النظام العالمي مع التحكم بآليات الأطراف الاقتصادية ، وحتى في آليات حركية مجتمعاته . والحقيقة انه في الوقت الذي تتحقق فيه عملية تدويل رأسمال الدول التابعة ؛ في الوقت الذي نجد فيه ازدياد تدهور وضعيتها الاقتصادية وتتزايد الخلخة والشروخ في وضعياتها الاجتماعية عموماً . فتتزايد الفروق الطبقية وتنشأ عادات وقيم جديدة ليتحقق التلاؤم ؛

ما بين المهام التي تنفذها كل طبقة أو شريحة اجتماعية ، وبين الدور الاقتصادي المنوط بها(٢٣) . من كل ما سبق نخلص الى القول : ان النزعة الاستهلاكية هي بنت ظروفها. فالطفرة النفطية وتزايد التمركز الرأسمالي العالمي وبداية توضح الفرز الطبقي في المجتمع العربي ، والتفارق الكبير بين المداخيل ، كل ذلك ، عوامل أدت الى « النزوع الى الاستهلاك الكلي ، أي الى النزوع الى تحويل فائض الانتاج الى استهلاك اضافي »(٢٤) وعدم لجوء المستهلكين الى العمل على الادخار وتوظيف المدخر في تحقيق فائض اقتصادي انتاجي . وذلك عائد اساساً لنمط التفكير الاقتصادي المتخلف وعدم الدراية بالكيفية التي يتم بها خلق تراكم انتاجي مستمر عوضاً عن تحويل فائض الانتاج الى استهلاك اضافي كما يقول ستنس . وهذا المطلوب تحقيقه أخيراً ، يتم بتحسين ظروف المجتمع العربي وتضييق الشقة ما بين شرائحه الاجتماعية ، والعمل على زيادة الوعي الاقتصادي من خلال مؤشر ايديولوجي وطني أو قومي . فالتنمية لا تقاس بمدى الانفاق فردياً أو جماعياً ، ولا تتحقق عن طريق القروض الدولية ، ولا بواسطة الآخر . انها تتحقق بالفعل الذاتي القادر على منع استثمار الآخر للموارد العربية ، واستثمار هذه الموارد باشراف وطني وبأيد وطنية ، وخلق دورة انتاج وطنية وقومية تراكمية والعمل بالشكل الانسب لتوزيع المداخيل بما يحقق تضييق الفروق الى أدنى حدودها أو بالأحرى إلغاؤها .

د ـ التبعية الثقافية ـ ظروفها ودعاتها و (هل الى انفكاك من سبيل) :

ان تاريخ تجارب الشعوب وحياتها قد أثبت ، أن كل مجتمع مهما كان بسيطاً ، ومهما كانت درجة تطوره الاقتصادي والاجتماعي ، ودرجة غناه أو فقره ـ مادياً وثقافياً ـ ان الجيل المسيطر فيه يحرص كل الحرص على نقل ثقافته وقيمه الى الجيل التالي . وكذلك يفعل هذا الأخير مع الذي يليه ، ومع أن هناك بعض التعديلات والاضافات من التالي على ثقافة وقيم السابق له . الا أن السمات العامة تظل نافذة تاريخياً في هذا الشعب أو ذاك . ومن هنا يمتلك هذا الشعب خصوصيته على امتداد تاريخه الاجتماعي . ولكن أي مجتمع عندما يفقد حاسة التطوير والتجديد من ذاته ولذاته ويصبح نسخة كربونية لجيله السابق . فانه يخرج من نطاق

التاريخ والفعل التاريخي ، وبالتالي يفقد حتى الاحساس بذاته . فقدان الاحساس هذا قد يطول او يقصر . وكلما طال خروجه عن التاريخ ـ كلما تراكمت الاشكالات الحضارية تراكماً تأزيمياً لديه . تلك هي حال الشعب العربي الذي عاش حالة من انعدام الوزن ترتد تاريخياً الى مرحلة ما قبل الهيمنة العثمانية لعدة قرون . ولذلك فاننا ما زلنا نواجه اشكالات مأزقية . مثل : اشكالية العلاقة بين ـ القديم والجديد . وبين ـ التقليدي والعصري ـ وبين ـ الكفر والايمان . وبين ـ الشرق والغرب ـ وبين ـ التخلف والتنمية ـ وبين ـ النحن والهم ـ ... الخ . وكما اشرنا في مستهل البحث . انها اشكاليات كثيرة انتصبت مواجهة عقلنا العربي ، متحدية منذ اكثر من قرن من الزمان وان كانت قبل ذلك بكثير ـ الا ان العقل العربي لم ينتبه لها الا في حدود التاريخ الذي ذكرناه ، فكانت محاولات هذا العقل المستيقظ من سباته كثيرة ، تهدف الى اختيار الموقف المناسب . وكان أن برزت تيارات ومواقف عديدة ، فكان الموقف « إما رفضاً وهمياً وايديولوجياً لمعطيات المعاصرة ، وأما تغريباً عنيفاً لا يتفق والجذور الاجتماعية والدينية للانسان العربي »(٢٥) وأما تلفيقاً بين هذه وتلك والانغماس بنزعة انتقائية لشيء من الماضي وتوشيته بجزء من الحاضر المعاصر . ولذلك فان الانسان العربي ، وجد نفسه أمام هذه المسائل مجتمعة ، منقسماً على هذه النفس وموزعاً بين هذه المواقف الثلاثة التي لا يستطيع أن يتفلت من أسر أي منها . الا بعد أن يعيها جميعاً . وقلة هم الذي وعوها فعلا وتعاملوا معها من خلال منطق العلم وبأسلوب معرفي ، دون أن يرفضوا الماضي او الحاضر ، ولا هم دمجوها دمجاً عشوائياً . ان علينا أن لا نرفض التعامل مع الماضي ، كونه مضى ولا فائدة منه ويجب الانقطاع عنه تحت حجة التحديث والمعاصرة . كما أن علينا ان لا نرفض التحديث والمعاصرة ، خوفاً منهما ونقبع في فردوس الماضي حتى ننسى اننا نعيش مع الاحياء في هذا العصر . ان من واجبنا أن ندرس الماضي حتى نتمكن من استيعابه ، ولا نغرق فيه فيستوعبنا هو فنتوه فيه الى غير رجعة ، بالوقت نفسه ، علينا ان ندرس الغرب المتقدم المعاصر ، ونحاوره بهدف استيعاب علومه وثقافته من غير أن نسمح لأنفسنا أولا ، وللغرب ثانياً بأن يستوعبنا افراداً

وجماعات تحت حجة المعاصرة والتحديث . كتلك التى دعانا اليها سلامة موسى حين قال « فلنول وجهنا شطر أوربا »(٢٦) وتبعه فيها من تبعه ، والتزم بها من التزم تحت حجة المعاصرة . هذه الدعوة وان كانت قد أخذت شكلها الأولي قبل سلامة موسى . إلا انها أخذت لديه شكلها التبريري للالتحاق بالغرب. واتسعت ظاهرة الدعوة للأوربة بمظهرها العلني على يد عدد لابأس به من ارباب الفكر العربي . كطه حسين ، خاصة في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» وايضاً كتابه الثاني «في الشعر الجاهلي» فقد أوضح عميد الأدب العربي ، أن من أراد أن ينتمي للحضارة وللقرن العشرين ، أن ينتمي للحيز المكاني للحضارة ، الى أوربا . وعلى الشرق أن ينتمي للحضارة « فمن أراد الغاية أراد الوسيلة »(٢٧) ودخول الحضارة عند طه حسين كما عند سلامة موسى ، يتم من خلال شروط أوربا المادية والكيفية ، وبكل آفاقهما . وكذا هو الحال عند كل من دعا لهذه الدعوة كلطفي السيد وشارل مالك وسعيد عقل ويوسف السودا وغيرهم في مشرق الوطن العربي ومغربه قديماً وحديثاً . حتى أنه تألفت بعض الأحزاب السياسية مهمتها تحقيق الأوربه وخصوصاً في لبنان وبعض اقطار المغرب العربي . وفي الوقت نفسه برز التيار السلفي بشكله الديني المتزمت كرد على تيار المعاصره والتغريب . وكلا الاتجاهين لقي التشجيع من الغرب بهذا الشكل أو ذاك ضمن المخطط المرسوم للابقاء على واقع التخلف والتبعية . وربما كان جائزاً أن نقول : ان التيار السلفي ينفذ أحد أهم المسائل التي تريدها أوربا والغرب عموماً ، وهي المحافظة على التخلف من خلال بنية عربية داخلية . كما أن تيار المعاصرة والتحديث ودفن الماضي ، يقوم بمساعدة الغرب بتحقيق الشق الثاني من المعادلة ، ألا وهو التبعية ، ليبقى العالم العربي ينوس بين قطبي هذه المعادلة الصعبة فعلا ، ولكنها ليست مستعصية على الحل ، الا عند قطبي المعادلة أنفسهم . والذين يقومون بالمهمة خير قيام ، سواء بالتعاون المباشر مع الغرب واجهزته الثقافية والسياسية والاعلامية ، أو بشكل غير مباشر ، وذلك ما كون لدى الكثير من أبناء الشعب العربي رغبة ملحة للتخلص من الحرب الدائرة بين القديم والجديد ، بين السلفية والمعاصرة واذا بأنصار الايمان القديم يلفون رؤوسهم بوشائج تشدهم للماضي باستمرار ، واذا بأنصار المعاصرة يمدون ابصارهم الى ما وراء الحدود تحدوهم رغبة جامحة للتخلص من انتمائهم واستعداء الذات القومية ،

وامل زائف بالالتحاق الكياني بالحضارة الغربية ، وفك الارتباط مع الانتساب الوطني والانتماء القومي ، ولسان حال كل منهم يقول مع سلامة موسى : علينا ان نخرج من الشرق « وان نلتحق بأوربا ، فاني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بانه غريب عني وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد حبي لها وتعلقي بها ، وزاد شعوري بانها مني وانا منها ... فانا كافر بالشرق مؤمن بالغرب »(٢٨) ان القضية المتبناة من قبل ارباب الاستشراق المقلوب ، للخروج من الشرق والاستغراق في الغرب ، ما هي الا محاولة من المتأوربين تهدف لالغاء الوجود للشرق ، وبالتالي فانهم لا يوافقون على مقولة كيبلينغ الواردة في مستهل البحث ، الذي يقر بوجود الشرق رغم النزعة الاستعمارية والتمييزية . اما المتأوربون التغريبيون ، فان العالم عندهم احادي الوجه والطابع ، إنه الغرب والغرب فقط . فالشرق الذي لا يعي ذاته ولا يفهم غيره ، لن يفهم ولن يعي الا بانتقاله الى الجانب الحقيقي للوجود ، الى الغرب ويلتحق به ، هذا الطلب يبرز صارخاً عند شارل مالك بقوله : « الحقيقة هي أن غيرنا يفهمنا على حقيقتنا بما في ذلك اننا لا نفهم غيرنا ولا نفهم حتى انفسنا »(٢٩) قمة التبخيس للذات والتمجيد للآخر تدخل في نطاق الاصرار على الأوربه والتغرب ، في الثقافة ، في العادات ، في التقاليد ، في اساليب الحياة .. باختصار كما يقول شارل مالك ومن لف لفه : يجب أن نكون هم .

من خلال « النهم » هذه هناك رمزان عربيان متغربان تماماً ، ثقافة وانتماء . انهما ريشارد دكمجيان وفؤاد عجمي(٣٠) اللذان انضويا كلياً تحت لواء التغريب ، وكثيرون هم الذين انساقوا تحت هذا اللواء الواهم الذي وضعت أسسه وعملت على نشره المؤسسات الثقافية والاعلامية الغربية الواسعة الانتشار والهيمنة . التي يسميها البرتيني بـ « الامبريالية الفكرية ، لان النماذج الثقافية الامريكية والاوربية التي تجللها ابهة النجاح المادي تمارس غواية خطيرة على الوجدان . ان نظام القيم في الغرب وثقافته ولغته ودينه ، هي ايضاً وسائل للارتقاء لهؤلاء الذين يشعرون بانهم ضحايا التقاليد وأساليب التفكير الرجعية »(٣١) لذلك نجد الكثير وتحت تأثير ما ذكره البرتيني ، يرون في الغرب المبتدأ والخبر

في الحياة ، وهو ما كان طه حسين يؤكده للمصريين ، حتى وصل به الامر للقول : « كانت مصر دائماً جزءاً من اوربا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافة »(٣٣) .

ان طه حسين ولطفي السيد وسلامة موسى وغيرهم في مصر والحبابي التونسي وبورقيبه وغيرهم في الجزائر والمغرب وسعيد عقل ويوسف السودا وشارل مالك وفؤاد عجمي في لبنان ودكمجيان السوري الاصل ؟ وغيرهم الكثير ــ للاسف ــ الذين تزعموا من خلال تبعيتهم الثقافية والسياسية للغرب ، الدعوات ــ المتوسطية والاقليمية التابعة والتغريبية الالحاقية ــ والتي ماتزال تجد بعض الراغبين باتباعها . لهي دعوات تنز بالتمييز الإثني والعنصري ، وتحشى بالاحتقار للاجناس غير الاوربية بقدر ما تمتلىء بالاعجاب والانبهار بالغرب الى حد التخمة ، لا بل الى حد الاقياء من فرط التخمة ؛ لدلالة على المستوى المفرط من التبعية للغرب كما تبدت لدى شارل مالك وسلامة موسى . وان كان طه حسين لم يصل الى مرحلة الغاء الوجود كما فعل موسى . الا انه كان تغريبيا واتباعيا أوربيا حين قال : ان علينا « ان نسير سيرة الاوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم اندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة ... ما يحمد فيها وما يعاب »(٣٣) ان ما دعا اليه رواد تلك النزعات المومأ اليها فوق ، انما هي محاولات لمواكبة المعاصرة ، ولكن شابها الكثير من التاثيرات الثقافية والسياسية الاستعمارية الغربية ، وعابها بذات الوقت انها محاولات تريد القفز فوق الواقع والتاريخ وتناسي تام للدور الذي كان على هؤلاءالمفكرين والسياسيين أن يؤدوه ، وطنيا وقوميا وانسانيا ، مع أن اساتذتهم الاوربيين كانوا على عكسهم تماما ، ولم نسمع أن أحد رجال الفكروالثقافة في الغرب ، قد دعا لتمثل ما دعا اليه بعض مفكرينا من دعوات الحاقية بالغير ، ثقافة وانتماء كما فعل سلامة موسى الذي يقحم نفسه بالغرب دائما خاصة حين يقول : « اذا كنا نحب السير مع اوربا فليس ذلك لاننا والاوربيين **من دم واحد واصل واحد فقط** . بل لان ثقافتنا تتصل بثقافتهم من عهد مدرسة الاسكندرية ومجمع أثينا »(٣٤) .

وحين لم تنجح دعوات التخلع الانتمائي ، عملت المؤسسات الثقافية

والعلمية الغربية المهيمنة على الترويج لدعوة قديمة جديدة ، دعوة اسلامية السمات العامة ؛ غربية المضمون والقسمات الخاصة . ومضمون هذه الدعوى ؛ ومؤداها . أن فكرة القومية العربية وبالتالي ، الانتماء الى هذه القومية هو انتماء زائف . والانتماء الحقيقي هو الانتماء للامة الاسلامية . وقد صدرت كتب كثيرة لمنح هذه الدعوة الرصيد الكافي ثقافيا وايديولوجيا . وعادة ما كانت هذه الكتب تراجع وتدقق من قبل المؤسسات المهيمنة ، ثم تروج لها وتسعى الى ترجمتها الى لغات عديدة. نذكر منها على سبيل المثال ، كتاب ريشارد دركمجيان « الاسلام في ثورة» الصادر في أمريكا عام ١٩٨٥ . ولا يخفي الكاتب أن هذا الكتاب قد وضع اعتمادا على تقرير رفع الى الحكومة الامريكية ، وأن أستاذا اسرائيليا قد افاده ببعض المعلومات التي وردت في سياق الكتاب . ويؤكد المؤلف على ان الخلاص في الاسلام . وأن تباشير الصحوة الاسلامية في المنطقة دليل على ان الفكرة القومية العربية ، غير قادرة على الصمود أمام الفكر السياسي وهذا ما يؤكده فؤاد عجمي في كتابه « المحنة العربية ـ الفكر السياسي العربي والممارسة منذ سنة ١٩٦٧ » الصادر عن جامعة كمبريدج عام ١٩٨٢(٣٥) وفيه ينفي عجمي وجود قومية عربية أصلا ، وهي لديه أسطورة صنعها العرب . ولا يفوت عجمي الاعتماد في كتابه على بعض الكتاب ممن ذكرناهم آنفا وغيرهم ممن يسعى للنيل من الفكرة القومية العربية .

ان عودة الى مقولة البرتيني حول الامبريالية الفكرية ، نعرف الى اي مدى استطاعت مؤسسات الغرب أن تسيطر على الكثير من أبناء الوطن العربي . ان تخوفنا له ما يبرره ، خاصة حين نرى أن بعض دول أوربا بدأت تتخوف وتخشى هيمنة الاقتصاد والثقافة الانكلوساكسونية عليها. فهذا فرانسوا متيران في كتابه « القشة والحبة » يشير الى أن هناك ستين شركة عالمية تسيطر على كل دوائر القوة والسلطة في العالم(٣٦) ويشير هاشم صالح نقلا عن سيرج لاتوش الى أن « السيطرة الاقتصادية والمصرفية على العالم ترافقها سيطرة ثقافية ، واقتلاع للثقافات الاخرى من جذورها ، وينطبق هذا الكلام بشكل خاص على ثقافات العالم الثالث،

ولكنه ينطبق على ثقافات أمم أوربا العتيقة كفرنسا مثلا . فالفرنسيون يخشون الآن من هيمنة الثقافة الانكلوساكسونية وخصوصا اللغة الانكليزية على ثقافتهم ولغتهم »(٣٧) وهذا ما نخشاه فعلا كعرب خصوصا ظاهرة ازدواجية اللغة لدى رجال السياسة والمفكرين والكتاب وانصاف المثقفين، لاستخدامهم الكثير من المفردات في سياق كتابتهم أو حديثهم بالعربية . انها الحالة التي لاتزال تنتظر الحل ، وكأن الذي يرطن بكلمات يدخلها في لغته من لغة أخرى ، قد برهن عن نفسه بأنه عالم أو مثقف ، دون أن يدري أنه فعلا تابع ثقافيا . فالمثقف الحقيقي والعالم الحقيقي هو من يستخدم قدرته في فهم اللغات الاخرى بنقل علومها الى لغتنا ليستفيد منها كل طالب علم ، ويتحقق التطور من منظور داخلي ، لا من خلال منظور ثقافوي خارجي يفضي الى التصور الغربي للتطور المتمثل بالقول « ان المجتمعات الاخرى مضطرة الى أن تضاهي النموذج الاوربي اذا أرادت أن تواجه التحدي . وان المضاهاة تفترض أن تتخلص من خصوصياتها الثقافية ، اذ هي المسؤولة عن تخلفها طبقا لهذه النظرية »(٣٨) فمواجهة التحدي لا تكون بالاندماج بالغرب ومضاهاته خصوصياته ، والتخلي عن خصوصيات من يريد المضاهاة . فالخصوصية عند شعب كشعبنا العربي لا تمنع التجاوب والتفاعل مع أوربا . لا الانفعال بها والبقاء في مرتبة المستهلك اقتصاديا والمتلقي ثقافيا . بل بالانفتاح الآخر مقرونا بمحاولة فرض الإرادة والقيم الذاتية العربية ، حتى يتم بناء هذه الذات ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا . . . باختصار . حضاريا !.

ثالثا : جماع الموقف « تصورات اولية للتنمية المطلوبة »

بداية نقول : ان من الاهمية بمكان أن نعمل ــ افرادا ومؤسسات ــ لخلق تراكم معرفي عموما ، وفي مجالي التربية والثقافة خصوصا . لتحويل الانسان العربي من تكوينه الحالي كفرد ، الى شخصية اجتماعية ايديولوجية ، ضمن علاقات اجتماعية ديمقراطية ، ويكاد يجمع اغلب الباحثين العرب ، على ان التنمية والتحرر من قيود التخلف والتبعية . لا يتحققان الا بعد أن تصبح الاشتراكية ، أو كما يقول البعض « عدالة التوزيع » هي المضمون الاجتماعي للتنمية . وتصبح الديمقراطية مضمونا

اجتماعيا للممارسة السياسية . هذان شرطان لا بد منهما للبدء في خطوات تنموية عربية متسارعة ، وهذا ما يشير إليه سعد الدين ابراهيم حين يلاحظ : ان بلدان العالم الثالث المتخلفة ، والخاضعة عموما لبلدان العالم الراسمالي حتى تاريخه . قد تمت اعادة تشكيل هياكلها الاقتصادية والاجتماعية بواسطة القوى الراسمالية العالمية حينا ، وبواسطة البرجوازية العالمثالثية حينا آخر « ويعود ذلك الى ترابط قطاعات الاقتصاد العربي مع قطاعات الاقتصاد في البلدان الراسمالية بدرجة اشد من تكاملها مع بعضها البعض ، وتركز التصدير العربي على النفط في المقام الاول مما يجعل تغطية الاستثمار رهنا بعائدات التصدير والاستيراد خاصة في حالات الركود والانتعاش في الراسمالية »(٣٩) هذه المقولة تدخل في التصور العام الذي وضعه سعد الدين ابراهيم لدول العالم الثالث التي اخضعت ، ولم تزل خاضعة حتى الآن لسيطرة النظام الراسمالي(٤٠) مما يجعل عملية استغلال ونهب الموارد الاقتصادية وترسيخ التخلف الاجتماعي والاقتصادي قائمة باستمرار من قبل النظام المسيطر ، الذي يحول بين البلدان المتخلفة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والنهوض الحضاري . فهو يجهضها وهي بعد في حالاتها الجنينية كما فعل ويفعل مع محاولات النهوض في بلدان الوطن العربي . غير أن ذلك الذي نشير اليه ليس دعوة للتسليم بالامر الواقع . بل العكس تماما ، اننا ندعو الى مواجهة الواقع العربي المتعدد القسمات سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ودراسته دراسة امبريقية متانية تضع الحلول والتصورات المستقبلية ، وعدم الهرب من مواجهة هذا الواقع . والقاء اللوم على البديل الوهمي وصب اللعنات عليه . ان ارباب الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع العرب ، لن يخدش حياؤهم ولن ينقص كبرياؤهم اذا هم اعترفوا بقصورهم عن وضع مشروع عربي للتنمية ؛ ومتعدد الاوجه بحسب درجة نمو هذا الجزء أو ذاك وضمن اطار عربي شمولي متكامل . فالبلدان العربية جمعاء بحاجة الى تجديد وتنمية وضمياتها الاقتصادية والاجتماعية ضمن اطار ديمقراطي يفي بحاجات الواقع العربي . لا على الطريقة الليبرالية الغربية ، لان الديمقراطية الغربية كما يقول سمير امين « ناقصة من حيث المضمون الاجتماعي فالاكتفاء بالديمقراطية الشكلية دون الاخذ

بالاعتبار أهمية الاصلاحات الاحتماعية ، لابد أن يؤدي الى كاريكاتور للديمقراطية يستحيل أن تدافع عنها الجماهير ، فالديمقراطية عندنا لا مستقبل لها الا اذا نجحت في الربط بين الممارسة الديمقراطية وبين تطلع يتجاوز منظور الرأسمالية »(٤١) .

اننا مطالبون أن نعي الآخر المتقدم وندرس تصرفاته ورغباته ومايريده ومالا يريد . فنعرف موقعنا لديه . حقيقي ان الغرب ما خرج يوما عن تصوره للعالم ككل ، على انه تابع له . ونحن نلاحظ انه بعد أن وصلت نظريته حول ــ الغرب والشرق ــ الى حد الافلاس تقريبا . طلع علينا بنظريات متعددة . أهمها ــ الشمال والجنوب ــ والنظام العالمي الجديد. والشمال هو الغرب والنظام الجديد هو نظام الغرب ، وضعه هو لينفذه على غيره . فالغرب ومنذ أن « اصطدمنا به حتى الآن وهو يعيد درسا قديما : انه ديمقراطي في موطنه ، وعادل في موطنه ؛ لكنه مستبد وحاقد وفظيع في أرضنا . انه متحضر حيث يكون أبناؤه ، وعنصري حيث يكون الاغيار . لم يخرج الغرب من هذه المعادلة / المفارقة ، فلِمَ نخرج نحن من موقفنا منه »(٤٢) فالغرب كان وما زال مستغلا واستعماريا و ... و ...؟ لذا فنحن مطالبون ، بموقف عربي جماعوي قد يبدأ فكريا ؛ ولكنه لابد أن ينتهي اجتماعيا ، وتحدث النقلة النوعية من مجال **الأنا** ؛ الى مجال **النحن** في كافة الميادين ، ويحصل الانسان العربي على تلك النظرة الموضوعية . فيثق بذاته وبالآخر ، ضمن ممارسة ديمقراطية ، تعطيه القدرة باستمرار للعلو بذاته الاجتماعية ؛ وبانتمائه الاجتماعي والسياسي. حينها يجد الاجابة على السؤال المشروع حول انتمائه : من نحن . الى أين نسير . واذا كان تصحيح الاخطاء مطلوبا من كل أبناء الامة ، فاولى بطلائعها أن تبدأ مشروع التغيير لجعل جميع أفراد المجتمع اهل عطاء « لا أهل أخذ ، يقدمون أداء الواجب على طلب الحق ... بل يتخطون حدود الواجب الى العطاء الذي لا ينتظر بديلا »(٤٣) .

على هذا الاساس يمكن أن تتحقق التنمية ــ اقتصاديا ــ اجتماعيا ــ معرفيا ، ويكون الخروج من واقع التخلف ودائرة التبعية ، الى مرتبة الاستقلال الحقيقي . بفعل ذاتي التوجه والتوجيه . حينها لا ضير اذا

استقى هذا المشروع التنموي بعض مقوماته من الآخر الغربي أو الشرقي. فالتنمية التي نتطلع اليها ، تنمية يتم معها وفيها ؛ التحكم بآليات الانتاج والتوزيع والاستهلاك ـ عربيا ـ وليس أجنبيا كما هو حال امتنا اليوم . اذ نرى المتعددة الجنسيات تعمل جاهدة لاخواء الارض العربية والانسان العربي من قدراتهما ، كي لا تبقى لديهما امكانية التطلع للتحرر من التبعية ؛ التي خلفتها التأثيرات الاقتصادية والثقافية التي بثتها هذه المتعددة ودولها ، والتي مع ذلك لم تستطع أن تجعل من البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية العربية ـ ككل ـ صورة زائفة عنها ، أو نسخة كربونية مشوهة لها . حتى في ظل مرحلة الاستقطاب الدولي الاحادي الطرف . فالأمة العربية بما تملكه من إرث حضاري وأرضية مادية . لقادرة على أن تتجاوز الاسلوب الاستيرادي لكل شيء ، وتحقق تنمية حقيقية ؛ لا مظهرية . فالتنمية « ليست مجرد مقاييس مادية جديدة ، وانما هي عملية بناء حضاري تأخذ دون عقد ولا انبهار ماتراه ضروريا ، وتخلق داخل المجتمع الملكة التقنية والابتكارية والذات الحضارية وفق نظرة انسانية شاملة »(٤٤) فالتنمية حتى ولو بدات من الخيار = ..، فالمهم أن تبدا بوضع علاماتها على درجات السلم التصاعدية لصالح مجموع الشعب . لا لصالح فئة أو شريحة ووفق اختيار الشعب. ونحن في نهاية هذا البحث نتصور أن الخيار التنموي الامثل لعموم المجتمع العربي ؛ ربما كان متمثلا بالاشتراكية . وربما كان هذا الخيار صعبا ، وهو كذلك لان هذا « الخيار هو بين الاشتراكية وبين الهمجية ، ان هذا الخيار يفرض نفسه في الظروف الراهنة بقدر لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسانية »(٤٥) وخيار التنمية الاشتراكي ؛ المفتوح اعلاه ، لا يتم تطبيقه استيرادا ، ووفق مقولات ونظريات اقتصادية جاهزة للتطبيق . وانما يخلق وفق ظروف وشروط ومتطلبات الواقع العربي خلقا . واذا كانت بعض المجتمعات العربية قد توصلت الى وعي هذا الخيار ؛ سبيلا للتنمية والانعتاق من التبعية . فلا نظن أن بعضها الآخر سيطول به الزمن حتى يكتشف أن خلاصه النهائي من التخلف والتبعية ، انما يتمثل في هذا الخيار .

←

مراجـع البحـث

١ ـ يوسف حلباوي « تحديات المستقبل وقضايا الثقافة الحديثة في الوطن العربي » مجلة المستقبل العربي ـ العدد ١٣٠ ـ ١٩٨٩ ص ٩٦ .

٢ ـ د. سمير أمين ـ أزمة المجتمع العربي ـ دار المستقبل العربي ـ ط ١ ـ القاهرة ١٩٨٥ ـ ص ٢٩ .

٣ ـ د. غالي شكري ـ دكتاتورية التخلف العربي ـ مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة ـ دار الطليعة ـ ط ١ ـ بيروت ١٩٨٦ ـ ص ٩٨ .

٤ ـ د. أحمد مجدي حجازي « المثقف العربي والالتزام الايديولوجي ، دراسة في أزمة المجتمع العربي » مجلة المستقبل العربي ـ العدد ٨١ / ١٩٨٥ / ص ٢١ .

٥ ـ د. أحمد مجدي حجازي ـ المرجع السابق / ص ١٥ .

٦ ـ د. سمير أمين ـ أزمة المجتمع العربي ـ مرجع سابق / ص ٢٦ .

٧ ـ د. سمير أمين ـ التطور اللامتكافىء ـ ترجمة د. برهان غليون ـ دار الطليعة ط ٤ ـ بيروت ١٩٨٥ / ص ١٥٢ .

٨ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ طبعة دار الفكر ـ دمشق بدون تاريخ / ص ١٤٧ .

٩ ـ د. محمود الذوادي « بعض الجوانب الاخرى لمفهوم التخلف الاخر في الوطن العربي » مجلة الوحدة العدد ٥٠ / ١٩٨٨ / ص ٨٣ .

١٠ ـ د. محمود الذوادي ـ المرجع السابق ص ٨٥ .

١١ ـ د. محمود الذوادي ـ المرجع السابق ص ٨٣ .

١٢ ـ الطاهر الهادي الجهيمي « التنشئة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية في الوطن العربي » مجلة الوحدة ـ الرباط ـ العدد ٤٥ / ١٩٨٨ / ص ١٢٣ .

١٣ ـ عفيف ضاهر « بعد الهجرة الى النفط ـ قوافل العودة الى القحط » مجلة الوحدة العدد ٥٧ / ١٩٨٩ / ص ٦٠ .

١٤ ـ عفيف ضاهر ـ المرجع السابق ـ ص ٥٧ .

١٥ ـ عفيف عواد « العالم العربي والتكنولوجيا » مجلة الفكر العربي ـ بيروت العدد ٤٥ / ١٩٨٧ / ص ١٢٣ .

←

١٦ ـ ج. م. البرتيني ـ التخلف والتنمية في العالم الثالث ـ دار الحقيقة ط ٣ . بيروت ١٩٨٠ / ص ١١٢ .

١٧ ـ احمد تفاسكا « الهجرة العربية الى اوربا : طبيعتها ، بنياتها ، تطوراتها ، مجلة الوحدة ـ الرباط ـ العدد ٥٧ / ١٩٨٩ .

١٨ ـ احمد تفاسكا ـ المرجع السابق ـ ص ٧٦ .

١٩ ـ عماد هرصلاني « نظريات التنمية ومازق الخطاب الايديولوجي » مجلة الوحدة العدد ٧٥ / ١٩٩٠ / ص ٨٥ .

٢٠ ـ الطاهر الهادي الجهيمي ـ مجلة الوحدة ـ مرجع سابق ـ ص ١٣٤ .

٢١ ـ اسامة عبد الرحمن « دور العمالة المواطنة في بعض اقطار الخليج العربي النفطية» مجلة المستقبل العربي العدد ١٣٠ / ١٩٨٩ / ص ١١٥ .

٢٢ ـ هادي الحسن « تدويل راس المال الاجتماعي في المنطقة العربية » مجلة الوحدة ـ العدد ٦٦ / ١٩٩٠ / ص ١٨٩ .

٢٣ ـ راجع /بحثنا ـ « نحو منظومة عربية للقيم » مجلة المعرفة العدد ٣٣٣ ـ ١٩٩١ ـ لمزيد من الاطلاع حول النزعة الاستهلاكية وعلاقتها بنشوء قيم جديدة .

٢٤ ـ توماس سنتس ـ الاقتصاد السياسي للتخلف ج ٢ ـ ترجمة فالح عبد الجبار ـ دار الفارابي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٧ ص ٢٤٥ .

٢٥ ـ المختار الهراس « ملامح حول التقليد والتغير في المجتمعات العربية » مجلة الوحدة العدد ٥٧ / ١٩٨٩ / ص ٩ .

٢٦ ـ سلامة موسى ـ اليوم والغد ـ المكتبة المصرية ـ القاهرة ١٩٢٧ ص ٢٥٧ .

٢٧ ـ طه حسين ـ مستقبل الثقافة في مصر ـ مطبعة دار المعارف في مصر ـ القاهرة ١٩٣٨ ص ٤٢ .

٢٨ ـ سلامه موسى ـ اليوم والغد ـ مرجع سابق ـ راجع ص ٢٥٥ ـ ص ٢٦٠ لمزيد من الاطلاع على دعوة موسى الالحاقية .

٢٩ ـ شارل مالك ـ المقدمة ـ دار النهار للنشر ـ ط ١ ـ بيروت ١٩٧٧ ص ٤٢٤ .

←

٣٠ ـ ريشارد دكمجيان ـ سوري متامرك ومدرس في الجامعات الامريكية ـ وفؤاد عجمي لبناني متامرك ايضا واستاذ جامعي ـ اصبحا من الرموز الدالة على تهجمها على الوجود والحق العربيين ، وعداوتهما للامة العربية يدل عليها صلتهما بالمؤسسات الصهيونية وادواتها في امريكا .

٣١ ـ ج. م. البرتيني ـ التخلف والتنمية ـ مرجع سابق ص ١١٣ .

٣٢ ـ طه حسين ـ مستقبل الثقافة في مصر ـ مرجع سابق ص ٢٦ .

٣٣ ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص ٤٣ .

٣٤ ـ سلامه موسى ـ اليوم والغد ـ مرجع سابق ص ٢٢٤ .

٣٥ ـ سمير بطرس ـ تحدث في بحثين مستقلين عن دكمجيان وعجمي ـ الاول في مجلة المستقبل العربي العدد ١ لعام ١٩٨٥ راجع ص ١٤١ ـ ص ١٥٦ وبحثه الثاني في مجلة الوحدة العدد ٥٠ لعام ١٩٨٨ ، ص ١٠٩ ـ ص ١١٥ .

٣٦ ـ نقلا عن هاشم صالح « عرض لكتاب سيرج لاتوش » مجلة الوحدة العدد ٧٥ ـ ١٩٩٠ ـ ص ٢٢٦ .

٣٧ ـ المرجع السابق ص ٢٢٦ .

٣٨ ـ سمير امين ـ بعض قضايا للمستقبل ـ تاملات حول تحديات العالم المعاصر ـ دار الفارابي ط ١ ـ بيروت ١٩٩٠ ص ١٦٦ .

٣٩ ـ جورج المصري « محاولة في تصور مفهوم عربي للتبعية » مجلة الوحدة العدد ٤٥ / ١٩٨٨ / ص ٢٤ .

٤٠ ـ سعد الدين ابراهيم « النظام الدولي واليات التبعية ـ اليات التبعية في اطار الراسمالية المتعددة الجنسيات » مجلة المستقبل العربي العدد ٩٠ / ١٩٨٨ / ص ٨٤ ـ ٨٥ .

٤١ ـ سمير امين ـ بعض قضايا للمستقبل ـ مرجع سابق ـ ص ٢٣٨ .

٤٢ ـ عبد الاله بلقزيز « مستقبل العمل الوطني في الوطن العربي في ضوء التحولات الدولية الجارية » مجلة المستقبل العربي العدد ١٤٥ ـ ١٩٩١ ـ ص ١٠ .

٤٣ ـ قسطنطين زريق ـ هذا العصر المتفجر ـ دار العلم للملايين ط ١ بيروت ١٩٦٣ ص١٤

٤٤ ـ عفيف عواد « العالم العربي والتكنولوجيا » مجلة الفكر العربي ـ مرجع سابق ص ١٢٤ .

٤٥ ـ سمير امين : بعض قضايا للمستقبل ـ تاملات حول تحديات المعاصر ـ دار الفارابي ط ١ ـ بيروت ١٩٩٠ .

* * *

الدراسات والبحوث

كوكب الأرض كائن حي

ديمتري افيرينوس

« الا فليرو صانع المطر الأرض ـ الأم عساها تصبح جميلة المنظر » .

بذا تستهل صلاة الى او تِلِن تسيته Awitelin Tsita إلهة الأرض لدى هنود الزوني Zuni في نيومكسيكو ... وتتواصل الترنيمة ... « الا فليرو صانعو المطر الأرض ـ الأم كيما تصبح مثمرة وتهب اطفالها والعالم كله ثمار كيانها فيتوفر لهم الطعام بسخاء . الا فليعانق ابونا الشمس أمنا الأرض فيكون الطعام وفيراً ويحيا أطفالنا فسحة العمر، فلا يموتون، بل يفقون ليصبحوا في صحبة آلهتهم » .

* ديمتري افيرينوس : باحث من سورية ، عضو الجمعية الكونية السورية .

لقد بجّل الكثير من أقوام أمريكا الشمالية الأرض وكرموها وما انفكت قدسيتها تسمهم بسمتها . ففي مطلع القرن العشرين كان واحد من هنود عشيرة الشيين Cheyenne يشرح لأحد الزوار : « **إننا نحيا بالأرض .. ولا وجود لنا بدونها .. إنها تغذينا وتعيلنا .. منها تنمو الثمار التي نطعَمها والعشب الذي يقوم باود الحيوانات التي نقتات بلحومها .. منها تنبجِس وعليها تجري المياه التي نشربها .. إننا نمشي عليها ، وما لم تكن مستتبة راسخة فلا حياة لنا .** »

لم يكن سكان امريكا الأصليون هم الشعب الوحيد الذي أتى على ذكر الأرض بهذه الحميمية وذلك التعاطف الوجداني العميق . ففي عموم التاريخ وعبر الثقافات كلها ظلت الشعوب متشبثة بتصوراتها عن الأرض ـ الأم المقدسة ، فلم تقطع صلتها بها تدريجياً إلا مع اجتياح ما عرف بـ « الثورة الصناعية » . فحري بنا اليوم ، ونحن نقف على وصيد القرن الواحد والعشرين ، أن نسعى الى فهم هذه التصورات وننفعل بها من منظور جَدَد . فهي تفصح لنا في المقام الأول عن حقيقة تظل محتجبة بأي لغة غير لغة الأسطورة والشعر . ثم إن دراسة صور الأرض في الحضارات القديمة ، الحيّ منها والبائد ، لها مساس مباشر بفهمنا موقع الانسان ومنزلته في الكون كما راتهما الأسرة الانسانية الكبرى عبر تاريخها المديد . وليس لزاماً علينا ههنا أن نغوص في أعماق مضامين أساطير الأقدمين ونصوصهم المقدسة ونتمثل معناها أو معانيها الباطنة ، فندرك السر الكامن **في تقديس الأرض والرمز بها الى المبدأ المؤنث الشامل المبطون في الوجود باسره** ـ فإن لهذا مقاماً آخر . حسبنا الآن أن نلمع الى أن الكون من منظور الأقدمين ما هو ـ حتى في وجهه الظاهر ـ إلا مستودع هائل للقوى والطاقات المقدسة ، وإلى أن الأرض من هذا المنظور عينه ابرز تجلٍّ قدسيٍّ لجملة انساق من الظهورات المقدسة : فالتربة والصخور والأشجار والماء والظلال والنبات وسائر المشاهد الطبيعية للعالم تؤلف فيما بينها **وحدةً كونية حية شاملة لا تحدّ ولا تنتهك** . والتراب ، بما هو رمز ، يشير الى هذا التفاعل والاشتباك بين مظاهر الحياة . أما الأرض فهي الأصل أو المنبع الخلاق لكل تجلٍّ للوجود في حالته البكر . وفي أقدم ما وقعنا عليه من

سجلات التاريخ الروحي للبشرية نجد الأرض متحدة بكل الموجودات ، تعيل وتضم في كنفها كل صور الحياة ، بما فيها البشر . فالأرض عين للوجود لا تنضب ولا تكل والدرس الذي لقنه رجل الشيين زائره هو ان المعنى الروحي للأرض جزء لا يتجزأ من الحياة التي تتخذ صوراً متعينة عبر قوى الأرض جميعاً ، جبالا وغابات ، ومياهاً ، ونباتاً ، وحيواناً . وعلى الرغم من أن إلهة الأرض لا تحتل مقاماً بارزاً في الأناشيد المنسوبة الى الشاعر الاغريقي هو ميروس ، فإن واحداً منها مرفوع إليها : « **اغنّي الأرض ، المستوية على عرشها آمنة ، أمّ كل الأشياء ، الكابرة الجليلة التي يقتات بتربتها كل ما هو موجود [...] لكِ سلطان منح الحياة للبشر واستردادها منهم .** » (النشيد الى الأرض) .

ولا مراء في أن التصوّر الروحي للأرض باعتبارها ام كل شيء يولد صلة رحم ، أو بالأحرى يكشف عنها ، بين كل تجليات الحياة لأنها جميعاً بنات الحواء أو الرحم الكوني عينه ؛ والصلة الحميمة بين الأرض والأشكال البشرية والحيوانية والنباتية للحياة مردها في مآل الأمر الى إدراك ووعي ان مبدأ الحياة فيها جميعاً واحد . فلا غرو أن تكون الأرض في نظر الأقدمين كائناً حياً يمثل الرحم الشامل الذي يتمخض عن الحياة في ظهورات متعينة لا حصر لها .

لم يكن غرضنا من هذا الوقوف السريع على نظرة الأقدمين الى الأرض إلا تذكيراً بغربتنا وانسلابنا عن هذا الجرم العظيم الذي يبحر بنا في أعماق الفضاء ويعتبر العالم الخارجي المباشر الذي ينبغي علينا ان نشعر من خلاله بانتمائنا الكوني . اما التساؤل الذي يفرض ذاته في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ البشرية فهو يتعلق بقدرة العلم ، بما هو في نظر الكثيرين الفكر الأسطوري للعصر الحديث ، على القيام بقراءة جديدة للكون ... قراءة لا تحصر المشروع البشري في ارتياد العالم المادي والسيطرة عليه ، بل تفتش بين سطور كتاب الطبيعة العظيم عن المغزى الذي ينطوي عليه الوجود الانساني وعن الغايات القصوى التي ترمي اليها الحياة ، أقله على مستوى الوجود الأرضي .

في هذا البحث نعرض لمحاولة جادة من محاولات العلم لتعديل منظورنا الى العالم ــ إن لم نقــل لتغييره ــ تندرج في إطــار النموذج Paradigm الجديد في العلم والفكر والمجتمع الذي يدعى **بالنظرة الكليانية الى العالم** holistic world view **التي لا تشــدّد على الأجزاء الكليانيــة الى العالــم على الكل ، ولا ترى العالم مجموعة من الأشياء المعزولة بل تراه شبكة من الظاهرات المتواشجة والمتواكل بعضها على بعض في الجوهر .**

*

تساؤلات تمهيديــة :

ما الموطن ؟ الموطن في نظر انسان عادي منهمك في همومــه اليومية ويقوم بزيارة لأحد جيرانه القاطنين في البناء المجــاور هو بيته أو داره بكل ما يشتمل عليه مفهوم « الدار » من معانٍ .. الموطن في نظر فلاح يأتي كل يوم الى المدينة لبيع جنى أرضه هو قريته أو « ضيعته » .. الموطن في نظر المسافر أو المغترب هو بلاده .. تلكم خبرات بشرية عامة ، وكلنا ذات يومٍ ، بصورة أو بأخرى ، دعا مدينته أو بلاده أو امّته بالموطن أو بالوطن . لكن ثمّ موطناً اوسع من كل ما ذكرنا لم يدخل في حيّز الوعي المشترك للبشرية إلا مؤخراً ، مع أنه كان موطننا طوال الوقت دون أن نعي ذلك كل الوعي ... هذا الموطن هو كوكب الأرض !

عندما ارتحل روّاد الفضاء الأوائل عن أرض الكوكب ، وظهرت لهم الكرة الأرضية من بعيد فإن الحدود القومية بدأت تفقد معناها في نظرهم ، إذ لم يعد معظم هؤلاء يشعر بنفسه متواحداً نفسياً مع وطن معين أو طبقة معينة أو عرق معين ، إنما مع الانسانية ككل . لقد أبصر رواد الفضاء وهم واقفون على سطح القمر ما لم يبصره غيرهم من البشر ؛ أبصروا جرم الأرض أكبر من القمر نفسه بأربع مرات واسطع بخمس مرات .

لقد كانت هذه التجربة في نظر إدغَر مِتْشل ، سادس انسان يطأ أرض القمر ، تجربة مؤثرة جعلته يشعر بصلة عميقة بالكوكب . وقال :

« كان كوكباً جميلا ، متناغماً ، هادىء المظهر ، ازرق ذا سحب بيض، كوكباً يمنحك إحساساً عميقاً ... بالموطن ، بالوجود ، بالهوية . ذلك ما اوثر ان أسميه وعياً شاملا آنياً . »

وقد لاحظ متشل ان كل من ذهب الى القمر انتابه شعور مشابه : « يعود المرء بشعور انه لم يعد مواطناً امريكياً إنما بانه مواطن كوكبي . »

كذلك رسل شفايكارت ــ وهو رائد فضاء آخر ، شعر على نحو مماثل بتحوّل عميق في صلته بالكوكب :

« إنك لتدرك بأن على تلك البقعة الصغيرة ، على ذلك الشيء الضئيل الأزرق والأبيض ، ثَمَّ كل ما يعني لك شيئاً ذا بال ــ التاريخ برمته ، الموسيقى ، الشعر ، الفن ، الموت ، الولادة ، الحب ، الدموع ، الفرح ... كلها على تلك البقعة الضئيلة هناك ... وإنك لتتعرف الى انك قطعة من هذه الحياة الكلية ... ولدى عودتك تجد فرقاً في العالم . تجد فرقاً في تلك الصلة بينك وبين ذلك الكوكب وبينك وبين كل اشكال الحياة الأخرى تلك على ذلك الكوكب ، لانك قد عاينت ذلك الضرب من التجربة . »

بيد ان رواد الفضاء ليسوا وحدهم الذين اختبروا هذا التغيير العميق في منظور الرؤية . فإن الصور التي التقطت لكوكبنا واتتنا من الفضاء حرضت هي الأخرى استجابات عميقة مماثلة لدى العديد من النساء والرجال المشدودين الى الأرض ــ مشاعر خشوع وتواصل . ذلكم هو موطننا وقد رايناه اخيراً ككل واحد في كل جماله وبهائه .

ليس من قبيل المصادفة ان تحقق صورة الأرض الملتقطة من الفضاء شعبية عظيمة في وقت يتزامن مع اهتمام متزايد لدى الكثيرين للصلة بين البشرية والكوكب ومع حاجة كل منا الى العيش متناغماً مع رفاقه البشر ومع بيئته . اجل ، لقد باتت صورة الأرض هذه رمزاً روحياً في عصرنا ، وهي بمثابة شاهد على إدراكنا المتنامي باننا وكوكبنا جزء من منظومة واحدة ، وبانه لم يعد في وسعنا أن نعزل انفسنا عن الكل .

فلعل اثمن ما خرجت به البشرية من الرحلات الفضائية ليس على صعيد العلم أو الاقتصاد أو السياسة أو على الصعيد العسكري ، إنما **على صعيد الوعي** . لقد سمح الوصول الى القمر للبشرية للمرة الأولى في تاريخها المعروف بالنظر الى هذه اللؤلؤة الزرقاء البديعة التي ظلت موطننا آلاف السنين وبرؤيتها ككل . وبذلك تحققت نبوءة الفلكي البريطاني فردرك هويل التي تفوّه بها عام ١٩٤٨ : « **متى ما باتت صورة للأرض ماخوذة من خارجها متيسّرة ... فإن فكرة جديدة تماثل في قوتها قوة اية فكرة في التاريخ سوف تنطلق .** »

*

الأرض الحيــة :

لقد جلبت مشاهدة الأرض من الفضاء معها بارقة جديدة ، ألا وهي إدراك أن الكوكب ككل قد يكون كائناً حياً . لقد كان شأننا نحن البشر حتى وقت قريب شأن طائفة من البراغيث قضت حياتها على جلد فيل ضخم غير دارية بما هو عليه في حقيقة الأمر ، فكانت ترسم خرائط للأراضي ــ بكل رقع الجلد والأشعار والنواتىء ــ وتدرس كيمياءها وترصد تغيرات الحرارة وتصنف أنواع الحيوان الأخرى التي كانت تشاركها عالمها ، وصولا منها ، على حد ظنها ، الى فهم معقول للمكان الذي تعيش فيه .

وذات يوم خطر لبضعة براغيث أن تقفز قفزة هائلة بحيث استطاعت ان تنظر الى الفيل من مسافة ثلاثين متراً . وهكذا تبدت لها الحقيقة : « إنه حيّ ! » ذلكم هو الانطباع العميق الذي خلفته الرحلة الى القمر لدى الكثيرين . لقد بدا الكوكب برمّته حياً : لا يزخر بالحياة وحسب بل هو متعضية حية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى .

لئن كانت فكرة الأرض باعتبارها كائنا حيــا صعبة القبــول في البدء فذلك مردّه الى مفاهيمنا الحالية الضيقة عما يجب أن تكون عليه المتعضيات أو لا تكون عليه . واننا لنقبل أنساقا واسعة من المنظومات ،

بدءا من البكتيريا حتى الحيتان الزرق، بوصفها متعضيات حية، لكننا حين يتعلق الامر بالكوكب فاننا قد نتردد في البت في الامر . غير أنه يجدر بنا ان نتذكر بأنه ماكان لاحد في الاوساط « العلمية » قبل أربعة قرون ان يتصور وجود متعضيات فينا ومن حولنا هي من الضآلة بحيث تتعذر رؤيتها بالعين المجرّدة ، فكان لابد من اختراع الميكروسكوب حتى يتيقن الناس من وجود متعضيات مجهرية بهذا الصغر . أما اليوم فنحن ننظر الى الحياة من وجهة نظر «ماكروسكوب» الأرض ككل. وإننا لفي سبيلنا الى التيقن من أن جرما ككوكبنا هو كذلك كائن حي .

إن القبول بهذه الفرضية لهو من الصعوبة بمكان لأن الأرض الحية ليست متعضية في وسعنا عادة أن نراقبها خارج أنفسنا : إنها متعضية تشكل جزءاً لا يتجزأ منها . لقد كان شأننا شأن البراغيث المشدودة الى جسم الفيل فلم نتمكن حتى عهد ليس ببعيد من رؤية الكوكب ككل . فهل لخلية في جسمنا ، إذ لا تبصر الا حيزاً ضئيلاً من داخل الجسم لفترة قصيرة معلومة ، ان تحزر يوما أن الجسم ككل انما هو كائن حي بكل معنى الكلمة ؟

ومن الأسباب الأخرى التي قد تجعل هذه الفكرة تبدو لأنظارنا غريبة بعض الشيء هو كون منظورنا وتفكيرنا اليوميين عن كوكبنا مصاغان عموما وفقا لمقاييس زمنية تتناسب والحياة البشرية . أما المقياس الزمني للكوكب فهو أعظم بكثير من سلم قياسنا . ففي الوسع مثلا اعتبار ايقاع الليل والنهار نبض الكوكب الذي تقابل فيه دورة واحدة مئة الف نبضة قلبية بشرية على وجه التقريب . أما اذا عجلنا الزمن على نحو مناسب لابصرنا الغلاف الجوي والتيارات المحيطية تمور حول الكوكب، ناقلة الاغذية ومتلقية الفضلات ، بما يشبه نقل الدم للاغذية وتلقيه الفضلات التي تطرحها الخلايا في جسمنا ..

ولو عجلنا المقياس بمقدار مئة الف مرة لابصرنا القارات الشاسعات تنزلق وتزحف وتتدافع مشكلة في اماكن تلاقيها السلاسل الجبلية الكبرى ، والانهار الشبيهة بخيوط الفضة تتلوى من جهة لاخرى مشكلة

عراوي متعرجة توائم بينها وبين التغيرات الطارئة على وجه اليابسة ، والغابات المنداحة والاراضي العشبية تتحرك عبر القارات مادة اطرافها في اراض خصبة جديدة تارة ومنحسرة حين يتغير المناخ والتربة طورا مخلفة وراءها صحارى جرداء .

واو نظرنا الى جوف الكوكب لابصرنا كتلة هائلة من المعادن السائلة تجيش وتنبض بين مركز الأرض وقشرتها الرقيقة وتنز من حين لآخر عبر المسام البركانية لتوفير المواد المعدنية الضرورية للحياة ..

ولو كان لحواسنا أن تستشف القسيمات المشحونة لأبصرناالكوكب مستحما ليس في الضوء والحرارة وحسب بل في الريح الشمسية المكونة من الشوارد تتدفق من الشمس ، ولشاهدنا هذه الريح تهب حول الارض متخذة شكل حقلها المغنطيسي على هيئة هالة نابضة تنساب من ورائها ، وهي تبحر في الفضاء ، الوف الوف الكيلومترات ؛ لو كان لنا حقا أن نبصر على هذه السوية لرأينا التغيرات في الحالة الكهرطيسية المتذبذبة على هيئة تموجات ولرأينا « ألوان » هذه الهالة العظيمة الشبيهة بالمذنب ولعاينا الأرض نفسها كرة زرقاء مخضرة على رأس هذا الحقل الواسع من الطاقة .

واذا نظرنا الى الكوكب وفقا لمعايير سلمه الزمني لرأينا مستوى من النشاط هو من التعقيد بما يذكرنا بمستوى التعقيد الذي نصادفه في متعضية حية. غير أن مثل هذه التآزيات لا تشكل أي ضرب من البرهان، والسؤال المطروح هو ما اذا كان في وسع العلماء ان يقبلوا فكرة الأرض متعضية واحدة مثلما يقبلون البكتيريا والحيتان ؟ فهل الأرض متعضية حية فعلا ؟

ان هذا لم يعد بعيد المنال ، اذ ما انفكت فرضية علمية باتت تلاقي شعبية متزايدة تشير الى ان خير سبيل الى فهم كيمياء الكوكب وبيئته وبيولوجياه هو النظر اليه كمنظومة حية واحدة .

* * *

فرضية الأرض ـ الأم Gaïa

هل تشكل المادة العضوية والهـواء والمحيطات وسطـح الأرض مجتمعة منظومة مركبة في الوسع دراستها بوصفها جسما واحدا قادرا على صون خصائص عالمنـا الحيوية ؟ ذلكم ما اعتقـده الاقدمون ، ومنهم الأغريق الذين أطلقوا على كوكبنا اسم الارض ـ الأم Ge . والواقع ان معطيات العلم الراهنة باتت تؤيد هذه النظرة . وإن واحدا من ابرز العلماء انصارالنظرة القائلة بأن الارض تسلك مسلك منظومة حية هـو الكيميائي والمبتكر البريطاني جيمس لقلوك James Lovelock المستشار في وكالة الفضاء الامريكية NASA في حقل التحضير لبرامـج فضائيـة مختلفة والاستاذ الفخري في قسم السبرنتيك في جامعة ريدنغ الانكليزية. وما يثير الاهتمام حقا هو أن افكاره التي غيرت بعمق رؤية العديد من الناس للكوكب هي ثمرة أخرى من ثمار سباق الفضاء .

خدم لقلوك في أوائل الستينات بوصفه مستشارا في فريق علمي في معهد كاليفورنيا للتقانة عاملا ضمن مشروع لاستقصاء وجود الحياة على كوكب المريخ . وكانت احدى الصعوبات التي واجهها الفريق في تفتيشه عن أشكال غريبة للحياة أنهم لم يكونوا متبصرين بما يفتشون عنه . فقد تكون أشكال الحياة الاخرى مبنية على كيمياء مختلفة عن كيمياء الحياة التي ألفناها كل الاختلاف (على السلكون مثلا بدلا من الكربون) فـلا تصرح بوجودها في اختبارات أساسها النمط الأرضي للحياة .

بيد أن لقلوك فكر في خاصية لابد أن تكون موجودة في الحياة غـير الارضية مهما كانت كيمياء الحياة وشكلها المفترضين غريبين : فكل شكل من أشكال الحياة يضم ويصير ويطرح مادة وطاقة بما يشي بظواهر قابلة للكشف عنها في المحيط الفيزيائي . بذا فان خلو كوكب من الحياة سوف يجعل المكونات الكيميائية للغلاف الجوي والمحيط والتربة نتيجةتفاعلاتها طوال ملايين السنين تستتب في حالة من التوازن بحيث تكون نسبمختلف المكونات في هذه الحالة قابلة للتكهن بها على وجه التقريب بقوانين الكيمياء المعدنية . أما اذا وجد على غير ذلك شكل من أشكال الحياة فمن المؤكد

مهما كانت العمليات الكيميائية التي يقوم عليها انه سيترك البيئة في حالة ملموسة الاختلاف عن الحالة التي تكهنت بها الكيمياء المعدنية وحدها .

في وسعنا كمثال بسيط على هذا المبدأ أن نتناول حوجلة تحوي مزيجا من السكر والماء . تتنبأ الكيمياء المعدنية بأن السكر سوف ينحل حتى بلوغ تركيز معين يدعى حد الاشباع . اما اذا وجدت الحياة على هيئة خلايا خمائرية وتركت تنمو فان المزيج سيكون شديد الاختلاف ، فسيكون ثم تركيز أقل بكثير من التركيز المتوقع ومستويات من الكحول وغيره من النواتج العضوية أعلى بكثير . بذا تحصل على تصور واضح الى حد كبير عما اذا كان ثم الآن (أو في الماضي) حياة في الحوجلة بفضل قياس تركيزي السكر والكحول .

ان موطن الجمال في مقاربة لقلوك للكشف عن الحياة هو في اننا لن نحتاج الى القيام بزيارة لكوكب آخر لمعرفة ما اذا كان ثمة حياة فيه او لم يكن . فكيمياء الغلاف الجوي يمكن استنتاجها بالفحص الارضي لمختلف الامواج تحت الحمراء والضوئية والراديوية القادمة من الكوكب . وفي الستينات كان المعلوم عن غلاف المريخ كافيا للدلالة على انه كان قريبا جدا من حالة التوازن الكيميائي ، اذ لم يبد الكوكب الاحمر أدنى علامة تشير الى كيمياء تميز وجود الحياة . وبذلك خرج لقلوك بنتيجة مفادها أن من المستبعد أن تكون ثمة حياة على المريخ .

وبتطبيق مقاربة مشابهة على غلاف كوكبنا ومحيطاته وترتبه وجد لقلوك أن المكونات الكيميائية كانت أبعد ما تكون عن التوازن الذي تتنبأ به الكيمياء المعدنية . قد يبدو للناظر غير المدقق انه بذلك برهن على وجود حياة على الارض ليس الا ؛ لكن لقلوك بدأ يرى في هذه الاختلالات في التوازن مغزى أعظم بكثير .

إن تركيز الغازات في الغلاف الجوي للارض يختلف بمقدار الوف المرات عن المستويات التي تتنبأ بها الكيمياء المعدنية. فمستوى الاكسيجين المتنبأ به في الجو يجب أن يكون شبه معدوم ، لكن التركيز الفعلي يبلغ

حوالي ٢١٪ ؛ وهذا محير لان الاكسيجين غاز عظيم النشـــاط يتحد على الفور بعناصر كيميائية أخرى عديدة والمفروض بالتالي أن ينمتص بسرعة؛ وهو محير ايضا لان التركيب الفعلي للجو قد بقي محافظا على نسب غازية هي النسب المثلى لاستمرار الحياة .

بعد تفكر طويل حول خواص عديدة غير محتملة كهذه توصل لڤلوك الى ما اعتبره « التفسير الممكن الوحيد » على حد تعبيره ، ألا وهو أن الغلاف الجوي ينخرط على نحـو موصول في العمليات الحيـة العديدة للارض . وتبدو جملة انساق المادة الحية على الارض من الڤيروسات الى الحيتان ومن الطحالب الى الثيران بالاضافة الى الهواء والمحيطات وسطح الأرض وكأنها جزء من منظومة عملاقة قادرة على التحكم بحـرارة الهـواء والبحر والتربة وتركيبها بحيث تتم المحافظة على الشروط المثلى لاستمرار الحياة على الكوكب . ولقد أطلق لڤلوك على هذا التصور اسم **فرضيـة غيبيا** تكريما للارض الام الاغريقية القديمة . وغيبيا في هذا السياق تعني المنظومة الحيوية برمتها ــ كل النبات والحيوان والفطور على الكوكب ــ بالاضافة الى الغلاف الجوي والمحيطات والتربة .

وتفصح غيبيا في محافظتها على الشروط المثلى للحياة عن خاصيـة تشترك فيها كـل المنظومات الحية ، ألا وهي « الاستقرار المتجانس » Homeostasis ؛ والاصطلاح مشتق من كلمتين يونانيتين تعنيان «الحفاظ على السواء » ، نحته أول ما نحته في القرن التاسع عشر عالم الفزيولوجيا الفرنسي كلود برنار Claude Bernard الذي صرح بأن « **لكل الآليات الحيوية على تنوعها هدفا واحدا ، هو المحافظة على ثبات شروط الحياة .**»

من الامثلة على الاستقرار المتجانس في البدن المحافظـة على الحرارة عند ٣٧° م وهي الحرارة المثلى لمعظم عمليات الايض (= الاستقلاب) في البدن . فمع أن الحرارة الخارجية قد تتغير بمعدل عشرات الدرجات فان حرارة اجسامنا الداخلية قلما تتبدل بمقدار درجة أو اثنتين حيث يقوم البدن عندئذ بتبريد ذاته بالتعرّق أو تدفئتها بالنشاط البدني والارتجاف .

ومن الامثلة الاخرى على الاستقرار المتجانس نظم عدد كريات الدم البيضاء ، ضبط نسبة الحموضة (PH) ونسبة الملح والتوازن الكيميائي الدقيق للدم ، المحافظة على توازن مائي ثابت بفضل الكليتين ، الخ . وهذه العمليات ، الى جانب عمليات أخرى لا حصر لها ، تحافظ جميعا على البيئة الداخلية المثلى لاستمرار سيرورات الحياة في بدننا . ومثل هذه العمليات لا توجد في الجسم البشري وفي جميع المنظومات الحية وحسب بل وضمن غيبيا نفسها ايضا .

تبدو غيبيا اذن وكأنها تحافظ على الاستقرار المتجانس الكوكبي بشتى الطرق ، مشرفة على العديد من المكونات الرئيسية للغلاف الجوي والمحيطات والتربة ومعدّلة لها . والمعطيات التي جمعها لفلوك لتأييد هذه الحجة رائعة ومذهلة حقا نكتفي منها بعرض بعضها باختصار شديد دون الدخول في التفاصيل . وهاكم بعض المؤشرات على قيام غيبيا فعلا بضبط آليات للاستقرار المتجانس :

ـ **ثبات حرارة سطح الارض** : فمع أن الحياة توجد في أوساط تتراوح حرارتها بين ـ ٥٥ و ١٠٥ م فان المجال الامثل يقع بين ١٥ و ٣٥ م . ويبدو أن معدّل حرارة معظم سطح الارض قد لبث يتراوح بين هذين الحدين مئات الوف الوف السنين على الرغم من التغييرات البالغة الشدة في تركيب الغلاف الجوي والزيادة الكبيرة في الحرارة القادمة من الشمس . فلو أن الحرارة الاجمالية في وقت ما من تاريخ الارض قد خرجت عن هذين الحدين فان الحياة كما نعرفها كانت ستفنى اذا جاز التعبير . ويذكّر هذا المسلك بمحافظة اجسامنا على حرارة داخلية مثلى على الرغم من التغيرات الكبيرة في الحرارة الخارجية .

ـ **تنظيم مقدار الملح في المحيطات** : تحوي المحيطات في الوقت الحاضر حوالي ٣٫٤ ٪ من كتلتها ملحاً ، وتبين المعطيات والادلة الجيولوجية أن هذا الرقم قد لبث ثابتا الى حد كبير على الرغم من أن الملح يرد عليها بصورة متواصلة عن طريق الانهار . فلو أن تركيز الملح ارتفع يوماً ليمسي ٤ ٪ لكانت الحياة البحرية تطورت عبر متعضيات مختلفة كل الاختلاف

عن المتعضيات التي نجدها في السجلات الاحفورية . اما لو تخطى ٦٪ ولو لبضع دقائق لوضع حد للحياة على الفور بسبب تخرب جدار الخلايا ولكانت الخلايا تفككت تماما وأصبحت المحيطات كالبحر الميت ـ بيئة لا تطاق .

ـ **استقرار تركيز الاكسيجين في الغلاف الجوي عند نسبة ٢١٪ :** ذلكم هو التوازن الأمثل للمحافظة على الحياة . فانخفاض هذه النسبة بمقدار بضع واحدات في المئة يحول دون حصول الحيوانات الكبيرة والحشرات الطائرة على مايكفيها من الطاقة للبقاء على قيد الحياة ،وارتفاعها بنسبة بضع واحدات في المئة يتسبب في احتراق سريع لأرطب النباتات . وحريق غابة قد يتسبب البرق في اضرامه ، ربما استمر والحالة هذه الى أجل غير مسمى فأحرق بذلك كل الغطاء النباتي على وجه اليابسة .

ـ **وجود كمية صغيرة من النشادر في الغلاف الجوي :** هي على وجه الدقة الكمية المطلوبة لتحييد حمضي الكبريت والآزوت القويين الناتجين عن الاتحاد الطبيعي لمركبات الكبريت والآزوت مع الأكسيجين (العواصف الرعدية على سبيل المثال تنتج أطنانا من حمض الآزوت) . والنتيجة التي نخلص اليها هي أن المطر والتربة يحافظ عليهما عند مستوى من الحموضة هو الامثل للحياة .

ـ **وجود طبقة الأوزون في الغلاف الجوي :** وهي بمثابة درع يقي الحياة على سطح الأرض من الاشعاع فوق البنفسجي الذي يخرب الجزيئات الاساسية للحياة وخصوصا جزيئات الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين DNA الموجودة في نواة كل خلية حية وتتعذر الحياة بدونها نظرا لاستحالة نقل الخصائص الوراثية .

على أساس هذه المسالك وغيرها كثير مما ينحو الى بلوغ الاستقرار المتجانس خلص لفلوك الى أن الخواص المناخية والكيميائية للارض تبدو وكأنها ظلت مثالية بما يكفل استمرار الحياة كما نعرفها .

قد يرد النقاد على فرضية غيبا بأن أصل الحياة على هذا الكوكب والمحافظة عليها نجما عن سلسلة طيبة من المصادفات السعيدة . غير أنه لو كانت نسبة النشادر في الغلاف الجوي الاول على سبيل المثال أعلى أو أدنى مما ينبغي بقليل لانتهت الارض بكونها اسخن أو أبرد من أن تنطلق عليها رحلة الحياة . وقد يردون أيضا بأنه قد جرت على الارض سلسلة أخرى من الرميات من غير رام حافظت على حرارة سطح الكوكب رغم تغير وارد الشمس عليها ، وسلسلة أخرى من الرميات من غير رام حافظت على مستويات ثاني أكسيد الكربون والاكسجين والملح والعديد من المركبات الكيميائية عند مستويات مثلى للمحافظة على الحياة ؛ ورمية أخرى من غير رام هي وجود الدرع الاوزوني الذي يقينا من المقادير المميتة من الاشعة فوق البنفسجية .

وعلى نحو مشابه فان خلية الجسم البشري تراقب بقاء الجسم المتواصل على قيد الحياة في الحر والقر وتغيرات عديدة اخرى قد تعزو الامر اذا طاب لها ذلك الى سلسلة من المصادفات السعيدة . فالجسم يتفق له أن يتعرق عندما يسخن ويتفق له أن يرتعد عندما يبرد ويتفق له أن يلتمس المقادير المناسبة من الاغذية ساعة يحتاج اليها . ولعلها رمية من غير رام أيضا أن يبقى سكر الدم والحموضة والملوحة عند المستويات المثلى وأن يتفق لكريات الدم الحمراء أن تقوم بجلب الاكسجين وطرح ثاني اكسيد الكربون . فمن وجهة نظر كهذه يبقى الجسم على قيد الحياة من لحظة الى أخرى من جراء سلسلة سعيدة جدا من المصادفات .

غير أن من الواضح أن الامور لا تتم على هذا النحو . فالبدن يتصرف على نحو عظيم التنظيم وباحساس محدد بالغاية . انه يتعرق ويرتعش ويتغذى ويتنفس ويطرح فضلاته وينظم عملياته ووظائفه الداخليةومركباته الكيميائية كيما يحافظ على حالة الاستقرار المتجانس ويبقى بالتالي على قيد الحياة .

وكما أن هذا يعلل نشاطات البدن على نحو كأشد ما يكون معقولية فانه يعلل على نحو مماثل نشاطات الكوكب . فكما تقول لين مرغوليس ،

عالمة الاحياء التي عملت مع لڤلوك وتناصر فرضية غيبيا : « **الحيـاة بالفعل تصنع وتشكل وتغير البيئة التي تتكيف معها ثم تغذي هـذه « البيئـة » ارتجاعيا الحياة التي تتغير وتفعل وتنمو فيها . فثمة تفاعلات دوريـة موصولة** » غيبيا تبدو لنا اذن منظومة ذاتية التنظيم ، ذاتية التقوت ، تعدل على نحو مستمر عملياتها الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية كيما تحافظ على الشروط المثلى للحياة وعلى تطور اشكالها الذي لا يكل ولا يقف عند حد . وتلخص مرغوليس فرضية غيبيا بقولها : « **تقول فرضية غيبيا كما تنص عليه ببساطة ان وجه الارض الذي طالما اعتبرناه بيئة الحياة هو حي بحق** » فهل لنا وقد بلغنا هذه النقطة من البحث أن نعتبر النطاق الحيوي للكرة الارضية متعضية حية واحدة ؟ ان لڤلوك يلزم عنـدها جانب الحـذر ولا يجازف باطلاق حكم متسرع ، فهو يرى الغلاف الجوي بوصفه خلية نحل أو فراء قطة ـ بناء بيولوجيا شيد للمحافظة على بيئة مصطفاة وان لـم يكن حيا في حد ذاته . قد يصح هذا على الغلاف الجوي معزولا ، فهـل يصح كذلك على النطاق الحيوي biosphere الذي يشكل الغلاف الجوي جزءا لا يتجزأ منه ؟ قد لا يكون فراء القطة حيا بحد ذاته لكنه مع ذلـك جزء من القطة ؛ فهل نستطيع ان ننظر الى المنظومة ككل باعتبارها حية ؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال فلنمعن النظر في الخصائص التي تشترك فيها جميع المنظومات الحية ولنر الى اي حد تستوفيها غيبيا .

النظرية العامة للمنظومات الحية :

كان كل موضوع علمي حتى منتصف هذا القرن يعالج الى حد ما بوصفه قطاعا معزولا ، فكان علماء الفيزيولوجيا يدرسون وظائف الأجسام الحية وكان علماء الاجتماع يدرسون التجمعات البشرية وكان المهندسون يدرسون المنظومات الآليـة . وكان لكل فرع من فروع العـلم نظرياتـه ومفاهيمه فلم يكن بين كل من هذه الفروع وغيرها من الفروع عموما الا ارتباط على نطاق ضيق جدا .

وفي أواخر الأربعينات قام بيولوجيون رواد أمثال لدڤغ فـون برتلانفي Ludwig Von Bertalanffy وپول ڤايس Paul Weiss بتـلافي

هذه الثغرة في البنيان العلمي بتسليط الضوء على المبادىء والخصائص المشتركة المبطنة للظاهرات التي تبدو مختلفة الى حد كبير ، فمفهوم الاستقرار المتجانس ، على سبيل المثال ، المنطبق اصلا على العمليات الفيزيولوجية مدّده فون برتلانفي ليشمل جملة أنساق أخرى من الظاهرات ــ بدءا من خلية واحدة حتى مجتمع بأسره . وعلى نحو مماثل فان مفهوم التغذية الارتجاعية Feed - back الذي جاء اصلا من الهندسة قد قبل التطبيق كما وجد هؤلاء العلماء على الظاهرات الفيزيولوجية والنفسية والاجتماعية . وقد جاءت الاستبصارات المكتسبة على هذا النحو (من بسط النماذج العامة) بالدافع إلى تطوير دراسة تشمل كافة فروع العلم بما يعرف الآن **بالنظرية العامة للمنظومات** General Systems Theory .

إن اصطلاح « نظرية » في الواقع مضلل الى حد ما ، فالنظريةالعامة للمنظومات ليست نظرية معينة بقدر ماهي طريقة للنظر الى العالم . فهي ترى العالم بوصفه تراتبية موصولة من المادة والطاقة ، وما من شيء وفقا لهذه النظرية يصح أن يفهم بمفرده لان كل شيء جزء من منظومة ، يعرّف بها بمعناها الاعم بكونها نسقا من الواحدات يتصل كل منها بالواحدات الاخريات ويتفاعل معها . فكما تقول مرغوليس : « **ليس ثمة أجزاء ، ثمة تواصلات وحسب** » . فقد تكون المنظومات مجرّدة ، كالمنظومات الرياضية أو المنظومات الميتافيزيائية ، وقد تكون عيانية ، كمنظومات الهاتف أو منظومات النقل .

ويختص فرع من فروع النظرية العامة للمنظومات بدراسة المنظومات الحية . ففي أهم مؤلفاته ، « المنظومات الحية » ، يقترح جيمس ملّر ــ وهو واحد من رواد هذه المقاربة ، بأن جميع المنظومات الحية تتركب من منظومات فرعية أو تحتانية تضم وتصيّر وتطرح مادة أو طاقة أو معلومات أو هذه جميعا . وقد حدد وميز تسع عشرة منظومة تحتانية واضحة المعالم يبدو أنها تميز المنظومات الحية .

تختص المنظومات التحتانية الثماني الاول بعمليات المادة / الطاقة وتصور على وجه الدقة الطريقة التي تقوم بها المنظومة الحية بادخال

وتمثل وطرح المادة والطاقة الفيزيائيتين فلجميع المنظومات الحية على سبيل المثال **مُدْخِل** Ingestor ـ وسيلة ما لايلاج المادة والطاقة ـ سواء كان فتحة في جدار خلية وشريانا ينتهي في عضو ما أو فم متعضية أو ميناء بحريا كبيراً . أما **المنظومات التسع التالية فتختص بالعمليات المعلوماتية** ـ الوسيلة التي تحس المنظومات الحية من خلالها بالبيئة وبالمعلومات المجردة فتدرجها فيبنيتها وتستحضرها لدى عملية التذكر . من هذه المنظومات **قلاب الطعمة** input transducer الذي قد يكون موضع الاستقبال فيغشاء خليةعصبية أو عين حيوان أو وكالة انباء فيدولة منالدول . أما المنظومتان التحتيتانالاخيرتان وهما **المُنْسِل** reproducer **والحد** boundary فهما **عمليتان تشملان مادة/طاقة ومعلومات** . فالمنسل يؤدي الى ابداع منظومة جديدة مشابهة لمنظومته عبر نقل المادة الفيزيائية والمعلومات عن المنظومة الاصلية . اما الحد فيسمح بتماسك المنظومة كلها مانعا دخول أو خروج مختلف ضروب المادة والطاقة والمعلومات أو سامحا به .

لو نظرنا الان الى المنظومة الحيوية biosystem برمتها من منظور النظرية العامة للمنظومات الحية لوجدنا كلا من المنظومات التسع عشرة منطبقا عليها كل الانطباق . فالمدخلان على سبيل المثال هما الغلاف الجوي الاعلى الذي يتم عبره ادخال طاقة الشمس والغبار الكوني وقشرة الارض التي يتم عبرها انبجاس المعادن . ومحولات الطعمة هي النباتات والحيوانات العديدة فيتصرفها حيال التغيرات اليومية والموسمية أوحيال الزلازل ونشاط البقع الشمسية . ويبين جدول جميع المنظومات التحتانية في انطباقها على الجسم البشري وعلى المنظومة الحيوية للكرة الارضية وكذلك على المجتمع البشري .

أفهل يبرهن اتصاف المنظومة الحيوية بجميع المنظومات الحيوية التحتانية المميزة للحياة على انها منظومة حية فعلا ؟ يدبج ملر دفاعا محكما للبيان بأن هذه المنظومات التحتانية كلها خصائص ضرورية (على صعوبة تمييزها أحيانا ـ فنحن لسنا بعد ، أقله على صعيد العلم الوضعي

على دراية بكيفية خزن الذاكرات ان في الخلية أو في الدماغ البشري) ولكن هل هذا كاف ؟ يكاد الجواب يكون بالتأكيد : « لا ، انه ليس بكاف ! » فان حاسوبا أو حتى سيارة قد يبديان العديد من هذه الخصائص ، لابل قد يبديانها جميعا باجراء بعض التعديلات والاضافات عليهما ، بما في ذلك التناسل اذا شئنا ، لكن من الواضح أن هذا لن يجعل السيارة أو الحاسوب منظومة حية .

ثمة خاصية اضافية غير ماذكرنا تشترك فيها جميع المنظومات الحية بما يميزها بوضوح عن المنظومات غير الحية الا وهي **مقدرة المنظومة الحية على المحافظة على درجة رفيعة من النظام الداخلي على الرغم من البيئة الخارجية المتغيرة باستمرار** . فاجسامنا تحافظ على البنية الاساسية عينها في شروط متنوعة وتجتهد في اصلاح وترميم ذاتها كلما اعتورها خلل ما . نحن نتكيف مع التغيرات ونتعلم من تجاربنا ، أما الآلات بصورة عامة فلا تبدي مثل هذه الخاصية . فهي تبلى مع الوقت وتتعطل وهي غيرذاتية التنظيم .

يصعب جدا ان لم يكن يستحيل العثور على مثال عن منظومة غير حية تمتلك المنظومات التحتانية التسع عشرة بالاضافة الى خاصيةالتنظيم الذاتي . في الوقت الحاضر اذن يبدو استيفاء هذين الشرطين معا معيارا معقولا لكي تكون منظومة ما منظومة حيوية .

ويبدو ان **غيبا تستوفي كلا الشرطين** . فقد توضحت بكل جلاء طبيعتها الذاتية التنظيم من خلال عرضنا خلاصة بسيطة عن البحث العميق الذي قام به لفوك ومرغوليس ومعاونوهما حول مقدرة هذه المنظومة الحيوية على المحافظة على الاستقرار المتجانس الكوكبي بالاضافة الى استيفائها معايير ملر . فهذان الاكتشافان يحاجان بقوة عن غيبا بوصفها ينبغي ان يعترف بها بحق وعن جدارة منظومة حية .

* * *

البشرية في غيبيا :

اذا كان النطاق الحيوي برمته قد تطور كمنظومة حية واحدة تلعب فيها منظومات تحتانية أدوارا متنوعة ومتواكل بعضها على بعض فان البشرية بما هي منظومة حيوية اوسع في هذه المنظومة الكوكبية لايصح أن تفصل أو تعامل بمعزل عنها . فما هي اذن وظيفة البشرية فيما يتعلق بغيبيا ؟

يلوح لنا أن ثمة جوابين عامين ومتعارضين على هذا السؤال .الاول هو أن مثل البشرية مثل جهاز عصبي ضخم ــ **دماغ شامل** كل منا خلية عصبية فيه والثاني ــ وهو المتشائم بينهما ــ هو إمكانية كوننا ، بما نحن بشر ، ضربا من **السرطان الكوكبي** .

بالرجوع الى الجواب الاول يمكن أن ينظر الى المجتمع البشري ، مثله مثل دماغنا ، نظرتنا الى منظومة واحدة لجمع المعطيات والاتصال والذاكرة . ولقد تجمعنا في عناقيد من المدن والبلدان على نحو يكاد يماثل تلملم الخلايات العصبية بعضها على بعض في جهاز عصبي هائل ، تقوم فيه بوصل « العقد » و « الخلايا العصبية » شبكات الاتصال الواسعة .

اما نظم الاتصال البطيئة كالخدمات البريدية التي تنقل مفردات محددة الى اجزاء مختلفة من المنظومة فهي اشبه ما تكون بشبكات الاتصال الكيميائية البطيئة للبدن ، كالمنظومة الهرمونية على سبيل المثال . واما شبكات الاتصال السلكية واللاسلكية الالكترونية الاستناد والاسرع بكثير (كالهاتف والراديو والروابط الحواسبية ، الخ) فهي اشبه بالالياف الدقيقة التي لا يحصيها عد والتي تشد الخلايا العصبية الى الدماغ . ففي كل برهة ثمة الوف الوف الرسائل تومض عبر الشبكة الشاملة تماما كما يومض في الدماغ البشري مالا حصر له من الرسائل ذهابا وايابا . وان مختلف مكتباتنا للمطبوعات والاشرطة وغيرها من التسجيلات ومتاحفنا قد ينظر اليها بوصفها جزءا من ذاكرة غيبيا الجامعة . فمن خلال اللغة والعلم المعرفي بتنا قادرين على فهم الكثير مما يحدث من حولنا

والاشراف على سلوك الكوكب في بعض جوانبه مثلما يشرف الدماغ على سلوك البدن . وقد نرى في الثقافتين الشرقية والغربية ، التأملية والعملية ، جانبي دماغ غيبا ـ الجانب العقلاني / الفكري الايسر والجانب الشعوري / الحدسي الايمن . والبشرية المفتشة ابدا عن المعرفة التي تشكل الى جانب المحبة جوهر الظاهرة الانسانية قد تكون سبيل غيبا الى معرفة المزيد عن نفسها وعن الكون الذي تبحر فيه .

يتصل العديد من المتوازيات المذكورة اعلاه بوظائف عقلية عليا من تفكير وادراك ومعرفة ووعي أي بالوظائف المقترنة بقشر الدماغ البشري ـ وهو الطبقة الرقيقة من الخلايا العصبية المغلفة للدماغ . فلعل الاصح أن نشبه البشرية بقشر دماغ الكوكب .

وبلغة التطور نقول ان القشر cortex اضافة متأخرة نسبيا جرى معظم نموها بعد ظهور الثدييات وهو ليس ضروريا للمحافظة على الحياة؛ ففي الوسع إزالة قشر مخ حيوان دون ان تتأثر وظائف القلب والرئتين والهضم والاستقلاب عموما . وعلى نحو مشابه فان كوكب الارض قد بقي على قيد الحياة صحيحا معافى بدون البشرية اكثر من ٤٠٠٠ الف الف سنة ولعله كان يستطيع أن يستمر بنجاح بدونه !

وهذا يقودنا الى الامكانية الثانية ـ امكانية أن تكون البشرية ضرباً من الورم الخبيث حديث الظهور خير للكوكب أن يستأصل شأفته . لقد خطرت هذه الامكانية في بال رائد الفضاء ادغرمتشل وهو واقف على سطح القمر . فبعد أن شعر بالاحساس بالهوية الكوكبية سرعان ما انتابه احساس معاكس ، احساس « أن تحت هذا الغلاف الجوي الأزرق والأبيض فوضى مطبقة متنامية ينسلها البشر بين بعضهم بعضاً ـ والسكان والتقانة ينموان بسرعة ويفلت زمامهما . فطاقم « مركبة فضاء الأرض » في حكم العاصين على نظام الكون » .

ليس في وسعنا وقد بلغت اساءتنا الى الكوكب ما بلغت أن نتجاهل التشبيه بالسرطان . اذ يبدو أن المدنية الحديثة تشق طريقها بلا تمييز ولا وعي عبر سطح الكوكب وقشرته وغلافه الجوي ، لا تلوي على شيء ،

مستهلكة في عقود قليلة ثروات معدنية وعضوية وحتى روحية ورثتها غيبا نفسها منذ مليارات السنين . وفي الوقت نفسه تهدد البشرية بتدمير النسيج البيولوجي الذي استغرقت حياكته مئات الوف الوف السنين فالغابات الشاسعات التي تعتبر ، بما هي رئة الأرض ، اساسية للمنظومة البيئوية تنتهك حرمتها ؛ وبعض الانواع تصاد حتى الانقراض ، ومياه البحيرات والانهار العذبة تنقلب حامضة ؛ وآلاف الأطفال يموتون جوعا كل يوم ؛ ومناطق واسعة من الكوكب تتحول الى أرض جرداء بالتعدين وانتشار الاسمنت المسلح . وبالفعل فان صورة جوية لأية حاضرة من حاضرات العالم الكبرى ، بضواحيها المنداحة ، تذكرنا تماماً بالنحو الذي تنمو به بعض السرطانات في الجسم البشري . المدنية التقانية تبدو فعلا وكأنها ورم خبيث زاحف خبط عشواء ملتهماً مضيفه الكريم في فعل استهلاكي في منتهى البشاعة والانانية .

قد تبدو هذه النظرة متعارضة مع فكرة البشرية باعتبارها مخاً شاملا . بيد أن من الممكن أن يتوازى هذان المنظوران لدور البشرية في غيبا توازي الانتروبيا والطاقة (راجع **المعرفة ، المادة والوعي أو الطاقة وبقاء العالم**) . فلعلنا جزء من مخ شامل نعبر حالياً طوراً سريعاً جداً من النمو نصبح في مآله للكوكب ما هي أدمغتنا عليه لنا . ومع ذلك فان هذا الجهاز العصبي الرفيع يبدو في هذه المرحلة الدقيقة الفاصلة من تطوره وكأنه قد فقد زمام أمره مهدداً بتدمير الجسم نفسه الذي يمده بأسباب الوجود .

ولكن لا ! فاننا لن نقبل فكرة السرطان الكوكبي ، لا لشيء الا لأننا نؤمن بعظمة الانسان ونبل الغاية التي من أجلها وجد ، تلك الغاية المتمثلة في معرفة الحياة نفسها من خلاله . فاذا كان ينبغي على البشرية أن تؤدي دورها كجزء من المخ الكوكبي الشامل ، واذا كان للانسان ايمان بأنه خالد في أشواقه وتطلعاته المعرفية التي لا تحد ، وبأنه باق حتى يحقق غاية وجوده ، يجب علينا أن نعمل هنا والآن على اجتثاث سلوكنا الخبيث من جذوره — فهو ليس أصيلا فينا — وأن نحدث في انفسنا تحولا نحو أشد ما يكون ثورية يعدل بعمق موقفنا إزاء رفاقنا البشر وإزاء الكوكب ككل . **وان هذا التحول ليتطلب بدوره استنارة العقل**

بالقلب وتوجيهاً لطاقة القلب بالعقل المستنير . ولعله يجدر بنا ، كيما نكتنه ما قد يعنيه هكذا تحول ، ان بالنسبة الى البشرية او بالنسبة الى غيبا ، وكيفية النهوض بالتغييرات المطلوبة ، **آن نعود أولا الى ارثنا البشري المشترك ، الى السيرورة التطورية بأسرها بكل ما تشتمل عليه من أبعاد كونية ، علنا ، ونحن ننظر الى المبادىء الكونية الكبرى المبطونة فيها ونتبصر الأصل الواحد الذي انطلقت منه** ، نكوّن تصوراً أجلى وأنصع عن النقطة التي ترمي اليها فنعي الخطوة التالية الواجب اتخاذها ونخطوها ..... في تجربة يجتمع فيها تركيز العقل وانفتاح القلب !

مراجع أساسية :

Lovelock, James. **Gaïa : A New Look at Life on Earth** (Oxford University Press, London & New York 1979).

Miller, James G. **Living Systems** (McGraw - Hill, New York 1978).

Russel, Peter. **The Awakening Earth : Our Next Evolutionary Leap** (Routledge & Kegan Paul, London, Melbourne & Henley 1982).

مراجع أخرى :

Koestler, Arthur. **Janus : A Summing Up** (Picador, London 1983).

Eliade, Mircea & Sullivan, Lawrence E. Entry **Earth** in Encyclopedia of Religion, Editor in Chief Mircea Eliade (Macmillan Publ. Co., New York 1987).

Teilhard de Chardin, Pierre. **Le Phénomène humain,** (Seuil, Paris 1955).

— Gaïa, the Living Earth : A Dialogue with Lynn Margulis and Fritifs Capra (**The Elmwood Newsletter**, Summer Solstice 1979).,

ـ هنريك سكوليموفسكي ، **الفلسفة البيئوية ، سلسلة أبجدية المعرفة رقم ٥ ، من ترجمتنا .**

ـ **مجلة آفاق علمية ، الأعداد ١٦ و ١٧ و ٢٠ .**

الدراسات والبحوث

فلسفة الأخلاق والدين لدى برغسون

محمد سليمان حسن

((حياته ومؤلفاته))(*)

ولد هنري برغسون في باريس عام /١٨٥٩ م/ ، دخل شعبة الاداب بمعهد المعلمين العالي سنة /١٨٧٨/ تتلمذ على يد الاستاذ((آوليه لابروان Oill Labrun » و ((أميل بوترو E. Boetroo » .

* محمد سليمان حسن : باحث من سورية ، يهتم بالدراسات الفلسفية والاجتماعية .

* فيما يتعلق بحياة برغسون ومؤلفاته ، اقتبست من كتاب : برغسون ، تاليف زكريا ابراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٦٨

التاثير الاول لبيرغسون ، كان مصدره « هربرت سبنسر H. Spenseir » . وخاصة فكرة التطور السبنسرية . كما كان في بداية حياته العلمية ، متاثرا بالفكر الانكليزي والمدرسة التجريبية الانكليزية .

تخرج برغسون من مدرسة المعلمين عام /١٨٨١ م/ ، وفي نفس العام ، عين استاذا للفلسفة / بليسيه انجيه Angres ، ثم نقل الى ، / ليسيه كليرمون فرانـد Clermont Firand عام /١٨٨٤/ ، حصل برغسون على الدكتوراه ، عن اطروحته « رسالة في معطيات الشعور المباشر » . اما رسالته الفرعية فهي « فكرة المحل عند ارسطو Le idée de Licu . عام /١٨٨٧/ ، اصدر مؤلفه الثاني «المادة والذاكرة» وعام /١٩٠٤/ اصدر كتاب « الضحك » ، و « التطور الخالق » عام /١٩٠٧/ .

نتيجة للحرب العالمية الاولى وتاثيرها في نفسية برغسون ، الف كتابه « معنى الحرب » /١٩١٥/ ، وختم مؤلفاته ، بكتابه « منبعاالاخلاق والدين » عام /١٩١٩/ .

في عام /١٩٢٨/ ، حصل برغسون على جائزة نوبل للاداب ،تقديرا لجهوده الجليلة في خدمة الانسانية .

توفي برغسون عام /١٩٤١/ عن عمر تجاوز الثمانين عاما .

←

« المنهج البرغسوني »

البرغسونية فلسفة تعتمد على التفكير والصيرورة والحركة ، لذلك فانها ترفض رفضا قاطعا ، اي نوع من انواع المذهبية او الجمود الفكري وترفض وضع الوجود ضمن مقولات وصور . لأن الزمن بنظر برغسون يشكل روح فلسفته ، ولا يمكن اختزاله من خلال مجموعة صور ومقولات ثابتة .

من هذا المنطلق ، قدمت الفلسفة البرغسونية نفسها ، كرد فعل ضد كل النزعات المدرسية في القرن التاسع عشر ، ضد اي تفكير مذهبي او مدرسي . نرى بيرغسون ونيتشه وكيركجارد ، الممثلين الأوائل لهذا الاتجاه .

ان القارىء للفلسفة الفرنسية عموما ، يرى مدى ترابط الافكار الفلسفية الفرنسية ضمن منظومة النزعة الرومانتيكية والتعبير الرومانتيكي منذ جان جاك روسو في « العقد الاجتماعي » الى « برغسون » في « منبعا الاخلاق والدين » ، نجد الميزة اللاعقلية للفلسفة الفرنسية ، التي تعتمد الحواس والتجربة والخبرة المباشرة ، معتمدين الأسس السيكولوجية ، اي فلسفة نفسية روحية محضة ، تسحب على الدراسات الميتافيزيقية ، وما قدمه برغسون من تعميق لهذه التجربة السيكولوجية ، هو انه جذر التجربة الحسية وعمقها من خلال تجاربه وخبراته ، الى نطاق التجربة السيكولوجية الحسية ومجال التجربة الصوفية .

والتجربة هي اصل الحدس عند برغسون ، وهي التي تطبق على الواقع الخارجي ، ولكن بصدد مفهوم الروح عند برغسون ، يرفض مفهوم التجربة الحسية الخارجية لتتخذ لديه صورة الحدس المعرفي .

يقول « شارل بيجي Ch. Peguy » لكل فلسفة زمانان : زمان اول هو زمان المنهج ، وزمان ثان هو زمان الميتافيزيقا ـ زمان المذهب ـ . ان قلنا عن الافلاطونية انها فلسفة الجدل وعن الديكارتية انها فلسفة النظام وعن البرغسونية انها فلسفة الحدس ، كانت نظرتنا منصبة على زمان

المنهج . أما اذا قلنا عن الافلاطونية فلسفة المثل وعن الديكارتية فلسفة الجوهر وعن البرغسونية فلسفة الديمومة ، كانت نظرتنا منصبة على الميتافيزيقا »(١) .

اذاً المنهج عند برغسون ليس سوى المذهب مطبقا . فلنتعرف الى منهجه قبل الكلام عن فلسفته الميتافيزيقية .

يميز برغسون بين دائرتين من المعرفة ، دائرة العلم . ومجاله الكم والامتداد والمكان . ودائرة الفلسفة ، ومجالها الكيف والتوتر والزمان ، والاثنان ينهلان من منبع واحد هو الواقع ، والاثنان يتلاقيان بدائرة واحدة هي دائرة التجربة .

ان معرفة الواقع لا تتم لدى برغسون بواسطة تصورات عقلية جاهزة ، بل نحن الذين ننفذ الى الواقع بواسطة « جهد حدسي effort intuitf . الميتافيزيقا هي عملية انتباه شاقة نستغني فيها عن كل الرموز لكي نمضي الى « الاصل L'original محاولين النفاذ الى صميم الحياة الباطنة .

وما يعنيه برغسون بالحدس هو ، أن العلاقة بين الفيلسوف والواقع علاقة صداقة وتعاطف . وهذا « التعاطف Sympathic ، هو ما يعنيه برغسون بالحدس . فطبيعة المعرفة الحدسية هي انها معرفة مباشرة . الحدس يقوم ببدايته بدور سلبي ، هذا الدور السلبي يقوم على رفض كل ميتافيزيقي لفظي ، وكل وهم ميتافيزيقي يقوم على العقل . وهنا يقترب الحدس البرغسوني مما سماه باسكال ـ القلب ـ ان الحدس معرفة وجدانية مباشرة .

ونتساءل هنا : هل الحدس بالمعنى الذي يستخدمه برغسون لا يحمل طابعا عقليا ؟ .

---

١ ـ برغسون ـ زكريا ابراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٦٨ ـ ص ٣٣ .

وبالتالي هل يمكننا الفصل التام بين المعرفة العقلية والمعرفة الحدسية ؟ .

على الرغم من وصف برغسون للمعرفة الحدسية بأنها مباشرة ، الا ان المباشرة L'immédiut ليست الأكثر ادراكا ، بل هي ثمرة جهد وليس هناك من تعارض بين المعرفة الحدسية والمعرفة الاستدلالية comnaissance diiscursive لانهما لا تنفصلان ، ولا تفهم احداهما بمعزل عن الأخرى .

والحدس ليس ضد العقل ، بل هو أعلى منه ، أو بمعنى آخر ، معرفة فائقة للعقل Supar intellect يقول برغسون :

« ان المعرفة العلمية الدقيقة بالوقائع لهي الشرط الضروري الذي لابد أن يسبق كل حدس ميتافيزيقي يكون من شأنه ان ينفذ الى مبادئ تلك الوقائع »(١) .

والحدس البرغسوني طريقة وجهد شاق في التفكير ، يستلزم استعدادا عقليا ، من هنا كان حرص برغسون على أن حدسه هو أقرب الى التفكير Réflexion منه الى التعاطف Sentiment وفلسفته هي فلسفة تجزئة وتحليل وتعمق .

الحدس يتجاوز بالعقل ضرورات الفعل الى باطن الوجود ، وهكذا تتحول الفلسفة الى عملية جهد حدسي ، نحاول فيه أن نضع ذواتنا في صميم الموضوع المراد معرفته . واداة التعبير الحدسي هو اللغة ، ولكن ليس لغة التصورات العقلية المجردة الجاهزة ، بل تصورات قادرة على التعبير عن هذه المعرفة المباشرة .

يلجأ برغسون الى الصور والتشبيهات دائما للتعبير عن حدسه ، ومنهجه يعني دوما ، أنه ليس هناك معرفة بدون معطيات مباشرة Clonnées . ليس للمعرفة قيمة نظرية الا بالقدر الذي تستطيع فيه أن

---

١ ـ برغسون ـ زكريا ابراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٦٨ ـ ص ٢٧ .

تمنحنا شعورا وفهما عميقا للمعطيات المتواجدة امامنا . لكنه يطور مفهوم الحدس ، ليعطيه ميزة ميتافيزيقيـة ، يدخلـه ضمن هذه التجربـة الميتافيزيقية ، ليبني عملية نظرية اخلاقية وكونية ، نستطيع فيها ادراك « المطلق » داخل نفوسنا . فالمعرفة الميتافيزيقية في نظره ، معرفة ننطلق فيها من ذواتنا .

وهذا ما سيبرهن عليه برغسون من خلال كتابه « منبعا الاخلاق والديـن » .

فلسفة الاخلاق والديـن

جاء كتاب برغسون في مرحلة متأخرة من حياته كرد فعل علـى ادعاءات العـديد من الفلاسـفة ، الذين اعتبروا فلسفته ، فلسفة حيوية تطورية . تتخذ من مفهوم الديمومة والتطور اساسا لها لمعالجة المشكلات الفلسفية ، وغير قادرة على حل المشكلة الميتافيزيقية .

وبرغسون من خلال كتابه « منبعا الاخلاق والدين » لم يتجـاوز حدود المعطيات والمبادىء الاولى التي اقرها ، وبنى عليها مذهبه ، لقـد استخدم نفس المنهج الذي استخدمه في كتاباته الاولى .

فرق بيرغسون في كتابه الاول « التطور الخالق » بين اتجاهين اثنيّن اتخذتهما الوثبة الحيوية l'elan Vital الاول : اتجاه الغريزة ، الـذي أدى الى وجود مجتمعات مغلقة مشابهة للمجتمعات المغلقة لدى الحيوانات . والثاني : اتجاه العقل ، الذي أدى الى ظهور الانسـان ، بما يمتلك مـن قدرة على الممارسـة . كذلك يفرق بكتابه « منبعا الاخـلاق والدين » بين ضربين ، أو نمطين من المجتمعات أو من الاخلاق. اخلاق مغلقة moral clas وهي أخلاق مجتمعات منطوية مغلقة ، تشبه مجتمعات النحل او بيوت النمل . واخلاق مفتوحة moral ouveret تتجاوز بطبيعتها حـدود المجتمعات المغلقة عامة ، وهي اخلاق تتصف بالديناميكية والخلق والابداع.

ويرى برغسون، أن ثمة تشابها بين المجتمعات المغلقة وخلايا النحل، ان المجتمعات المغلقة شبيهة بمجتمعاتنا ، تقوم على مجموعة من الافراد ، تلتزم عددا من المبادىء والقوانين والعادات ، تحدد لها مسيرة وحدتها وكينونتها . وهذا الالزام obligation في جوهره ، غريز اجتماعية ، غايتها ، المحافظة على تماسك المجتمع واستمراريته . والانتقال من المجتمع المغلق الى المجتمع المفتوح ، لا تتم بالتدريج ، لان الفروق بين المجتمعين ، ليست فروقا في الدرجة والتراتب بل بالجوهر .

ـ **اخلاق المجتمعات المغلقة(١)** : لو ترك الانسان على سجيته ، لما تردد بالانتقال من لذة الى اخرى ، غير عابىء بأكثر من تحقيق السعادة والراحة النفسية . ولكن الانسان داخل مجتمعه يصطدم دوما بمجموعة من القوانين والأوامر والنواهي ، التي تمنعه من تحقيق غاياته ونيل سعادته . ونجد أن الفرد يتقبل هذه الأوامر والنواهي رغم صدورها عن أفراد لا يتميزون عنه بشيء . واذا حاول الفرد أن يتمرد على هذه القوانين والأوامر ، ينبثق من داخله دافع نفسي يقف حائلا دون تجاوز هذه القوانين ، ويعيده الى موقعه الاجتماعي ، كفرد ضمن مجموعة من الافراد ، تشكل مجتمعا . ويجد الفرد نفسه ملزما بتطبيق هذه القوانين من خلال علائقه الاجتماعية مع الآخر . وهي بنظر برغسون شبيهة بقوانين الطبيعة، من حيث أنها تشكل كلا اجتماعيا متكاملا . وهي ما يسميها بـ « الالزام الاجتماعي » . وهو مجموعة من الالزامات الجزئية التي نجد انفسنا منساقين بالضرورة الى الأخذ بها وتطبيقها ، وهي التي تكوّن ما نسميه بالالزام الكلي ، الذي هو المجتمع ، والذي يهيء لنا أسباب القوة والنظام .

يقول برغسون : « فالمجتمع البشري مجموعة من كائنات حرة ، ولكن هذه الالزامات التي نفهمها متمكنة من البقاء تدخل عليه نوعا من النظام يشبه النظام القاهر الذي تخضع له الظاهرات الحية » ص ١٥ .

---

١ ـ اعتمدنا في بحثنا على كتاب :

منبعا الاخلاق والدين ـ هنري برغسون ـ ترجمة سامي الدروبي ـ مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧١ ـ . والاحالة المصدرية لرقم الصفحات ماخوذة من الكتاب مباشرة .

وعلى الرغم من وجود فوارق بين القوانين الاجتماعية ـ والقوانين الطبيعية . من حيث أن الاولى قوانين آمرة ، بينما الثانية قوانين تقريرية ، الا أن الناس ينظرون الى الاثنين على أنهما يشكلان كلا واحدا ، أي قوانين آمرة ، ما دامت تتحكم بهم ، وترسم لهم طبيعة تحركاتهم ، سواء العلاقة مع الآخر ـ الفرد ـ ، أم العلاقة مع الآخر ـ الطبيعة ـ ، وهكذا كما يقول برغسون : « فالقانون يأخذ من الأمر صفة الصرامة ، والأمر يأخذ من القانون صفة الضرورة التي لا تدفع ، حتى ليبدو لنا الخروج على النظام الاجتماعي شيئا غير طبيعي ، ونعده ضربا من الشذوذ أو الاستثناء مهما تكرر » . ص ١٧ .

والدين من وجهة نظر برغسون يلعب دورا حاسما للتخفيف من حدة الفوارق بين القوانين الطبيعية والقوانين الاجتماعية ، من حيث أنه يمثل قوة تقوم على تدعيم مطالب المجتمع ، التي تقرر الثواب والعقاب . الدين بالنسبة لمجتمعاتنا الانسانية كالصورة الافلاطونية بالنسبة لمحاكياتها ، وهكذا كما يقول برغسون : « ان الدين يزيل ما بين الأمر الاجتماعي والقانون الطبيعي من فوارق بعد ان قللها الراي العام »ص١٨

وهكذا كما قلنا ، ان الانسان حتى لو فكر ان يشذ عن قوانين مجتمعه وان يترك العنان لنزواته ، فانه يجد قوة تعارضه وتضع العراقيل امامه ، وحتى لو فكر أن يتجاوزها سيجد نفسه بنهاية الامر منقادا الى الالتزام بها . وعلى هذا النحو « فان الالزام من الضرورة بمثابة العادة من الطبيعة » . ص ١٩ .

وهذا الالزام بنظر برغسون ، ليس الزاما خارجيا ، بل هو الزام داخلي . كما أن هناك علاقة بين الفرد وابناء مجتمعه ، هناك علاقة أيضا بين الفرد وذاته ، نحن ابناء ذواتنا ، وهذه العلاقة بنظر برغسون اكثر جوهرية واكثر ثباتا من العلاقة بين الفرد ومجتمعه ، وهكذا « فالالزام الذي نتصوره رابطة بكل الافراد ، انما هو اولا رابطة بين الفرد وذاته » . ص ٢٠ .

الاخلاق الاجتماعية لا تهمل الذات الفردية ، بل توفر لها كل اسباب

النجاح . لان كل فرد فينا تضاف الى « اناه الفردية » قوة اخرى هي « الأنا الاجتماعية » ، هـذه الأنا التي تهبه القـدرة على التعايش مع المجتمع ، لان الفرد حتى لو عزل نفسه اجتماعيا ، لن يستطيع ـ في ذاكرته على الاقل ـ أن يعزل نفسه عن تصورات مجتمعه التي وضعها فيه . حتى من الناحية المادية « ظل روبنسون في جزيرته النائية على صلة بسائر الناس ، فالادوات المصنوعة التي انجاها من الغرق ... هي التي ابقت على مشاركته في الحضارة وبالتالي في المجتمع ... » . ص ٢٠ .

هذا اذا ما تكلمنا عن الاتصال النفسي ، الذي هو اكثر ضرورة . الأنا الفردية تحبط دوما تجاه المصاعب التي تواجهها كونها قوة فردية . والفرد يجد نفسه مدفوعا دوما الى الاستعانة « بالأنا الاجتماعية » التي تمده بالقوة ، لأنه يشكل جزءا من مجموعة يتعايش معها . وهكذا نجد حارس الغابة ـ كبلنج ـ « يرتدي دائما ثيابه السوداء مخافة ان يفقد في وحدته احترامه لنفسه » . ص ٢١ .

والفرد يفي بالتزاماته الاجتماعية ، من خلال علاقته مع المحيط . انه مركز الدائرة ، وبينـه وبـين المجتمع الذي هـو المحيط العـديد من الدوائر ، يقيم بينه وبينها علائق اجتماعيـة تمكنه من الوفـاء بالتزماتـه نحو مجتمعه . وعلى الرغم من اعتبار برغسون هذه العلاقة تتم بشكل ميكانيكي . الا انه لا يعدم وجود حالات تقاوم عبرها الذات الفردية هذه الميكانيكية حيال الواجب الاجتماعي ، وهذا امر ليس مغلوطا . من هنا يقول برغسون : « ان طاعة الواجب هي مقاومة للذات » . ص ٢٦ .

واذا كان ذلك القول على سـبيل الموعظة العلمية ، فبين الموعظـة والتفسير خلاف . اذا كان الواجب جهدا يقـاوم به الفرد ذاته ، ارتكبنـا خطأ طالما تردت فيه نظريات اخلاقيـة متعـددة ، ومشكلات لو حللنـاها لتبددت . كثير من الافراد يفصل بين الم الروماتيزم ، وبين الحركات التي يقوم بهـا لتبديد هـذا الالم ، لينسب للروماتيزم وجـودا خاصـا مجردا .

نحن ملزمون بالواجبات ، ونخضع لها ، واذا حدنا أحيانا عن ذلك ، نجد انفسنا متوترين ، وهكذا يحدث مثلا عند اضفاء صفة القيادة علينا.

ولكن البعض يحاول أن يفهم الواجب ويفسره تفسيرا عقليا ، ويحصر برغسون هذه المواقف بموقفين رئيسيين : اما أن نتخير الطرق التي وضعها المجتمع ، واما أن نتردد ونفكر . والموقف الاول هو موقف السواد من الناس ، وما ينجينا من الوقوع في « دائرة الخطأ » هو « مجموع الواجب » . وعمل العقل حين ذاك يكون بزيادة الانسجام المنطقي لهذا السلوك الذي يخضع للمطالب الاجتماعية .

لو تخيلنا خطين للتطور متباعدين ، ينتهي كل منهما بمجتمع ، فالمجتمع الغريزي هو الاكثر طبيعية ...

لنفرض أن الطبيعة ارادت للنهاية الاخرى أن تحصل على بعض الحرية للاختيار الفردي ، ماذا ستفعل ؟.

انها ستوكل للعقل مهمة الحصول على نتائج مشابهة للنتائج التي وصلت اليها الغريزة ، ستعمد الى العادة لتجعل منها عادة ممكنة ، ومجموع هذه العادات بنظر برغسون يشكل « مجموع الالزام » .

ان للمجتمع نظاما ، سواء أكان هذا المجتمع حيوانيا أم انسانيا ، مجموعة قوانين وقواعد ، الا أن العمل داخل المجتمع الحيواني ضروري وثابت ، بينما هو عند الآخر متبدل ومتغير . ويصبح هذا الواجب في المجتمع المتبدل على يد برغسون ضروريا وثابتا عندما يكون غريزة . وهو عند المجتمع الانساني نقيض الحرية في العقل رغم ضرورته . لكن ، قد يوجه النقد ، على أن الامر هنا أمر مجتمعات انسانية بسيطة بدائية او أولية على الاقل ؟

هذا صحيح في نظر برغسون . لكنه بالمقابل ، يرى أن الفارق بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتحضرة هو هذا الكل الهائل من المعلومات التي استقاها من الوسط الاجتماعي عبر عملية تطوره التاريخي ، لكن هذا الكل الهائل من المعلومات غير متغير . ما حصل عليه المجتمع من

معلومات لم يستطع بنظر برغسون أن يحل محل ما هو طبيعي بنظره ، وبالتالي ، المجتمعات الانسانية البدائية ليست الا المجتمعات المدنية المتحضرة .

ضمن هذا المجتمع المغلق الذي يعنيه برغسون ، لم يبق المطلب الاجتماعي أكثر من واجب يرمي الى الالتئام الاجتماعي ، أن اي مجتمع مهما اكتسب على مر الزمن يبقى بحاجة الى هذه البدائية الغريزية . والخلاصة كما يقول برغسون : « ان الغريزة الاجتماعية التي أوجدناها في أعماق الواجب الاجتماعي انما تستهدف مجتمعا مغلقا مهما يكن هذا المجتمع واسعا » . ص ٣٨ .

اخلاق المجتمعات المفتوحة : بحثنا في القسم الاول ، اخلاق المجتمعات المغلقة ، عرفنا الواجب ، وبحثنا فيه على انه الزام بدائي محض . هنا الالزام سينقلب ضمن اخلاق المجتمعات المفتوحة الى شيء آخر ، ماهو؟..

يتجلى ذلك بنظر برغسون من خلال شخصيات ممتازة « فقبل ان تعرف الانسانية القديسين من اهل المسيحية عرفت حكماء اليونان وانبياء بني اسرائيل وابطال البوذية وغيرهم » . ص ٤٠ .

لقد كان الناس يعتبرونهم معبرا الى الكمال المطلق ، وهذه الصفة بنظر برغسون تميز المجتمعات المغلقة عن المجتمعات المفتوحة . وهذا الفرق ، فرق في الطبيعة بينما مع الاولى يرد الواجب الى قوانين لا شخصية ، يتجسد في الثانية ضمن شخصيات ممتازة . عمومية الأولى قبول الناس للقوانين ، بينما الثانية محاكاة الناس لمثال يحتذونه . ان ما دعا الى اقتداء اثر اولئك الناس انهم محور « نداء » للآخر ، بينما نحن مع الاولى امام قوانين والتزامات وضغوط اجتماعية .

ان الاخلاق المفتوحة مبعثرة وعامة يقبلها العقل من دون ان تهتز الارادة ، فتصبح قوية بمجرد ما تنصهر داخل وحدة الفرد .

ما مصدر قوة هذه الاخلاق ؟ وما هو هذا المبدأ الذي يخلف الالزام الطبيعي بل وينتهي الى ابتلاعه ؟. ان الاخلاق المفتوحة اخلاق انسانية .

وهذا ليس خطأ . الفرق بينها وبين الاخلاق المغلقة فرق في الطبيعة لا الدرجة . فنحن مع الاولى أمام الزام طبيعي ، ولكن فوق هذا الالزام هناك واجبات أخرى نحس بها ، مثل (التفاني وبذل النفس وروح التضحية والمحبة) . وقد لا يحصل لكل الناس التفكير بمثل هذه المعاني، الا انه كما يقول برغسون : « اذا امتلأت الطبيعة بالمادة ثم اضطربت المادة بالحياة ، فان حياة جديدة تؤذن بنفسها ، فنفهم ونحس أن ثمة اخلاقا أخرى تنبثق » . ص ٤٢ – ٤٣ .

قد يكون حب الانسانية أحد الامثلة على هذا النمط من الاخلاق ، لكنه ليس الوحيد بل هو بحاجة الى وسيط . لكن حيال ذلك ماذا يطلب منا بالضبط ؟.

ان الفرد داخل المجتمع المغلق يندمج اندماجا قويا بمجتمعه ويقوم بمهمة بقاء الفرد ضمن الجماعة ، وعلى الرغم من صعوبة التفريق بين الذات الفردية والذات الاجتماعية عند الانسان ، الا انه من الواضح تماما ان الغريزة بفاعليتها الطبيعية تقف تحت المصلحة الشخصية ، بحيث لا يتميز احدهما عن الآخر ، لذلك يقول برغسون : « ان هذا الوضع الذي يقابل هذا الالزام هو وضع فرد منكفىء على ذاته ، ومجتمع منطو على نفسه ، والنفس لكونها في هذه الحال فردية واجتماعية معا في دائرة قهي مغلقة » . ص ٤٤ .

ولكن ضمن الوضع الجديد ، النفس لا تنفتح على الانسانية فقط ، بل هي تشمل الطبيعة ككل ، ومع ذلك صورتها ليست متوقفة على مضمونها . يقول برغسون « ان المحبة باقية في نفس المحب ولو لم يبق على وجه الارض حي غيره » . ص ٤٥ .

ان برغسون يرفض النظرة العقلية القائمة على تصور نوع من التدرج داخل العلاقة بين حب الاسرة ، وحب الوطن ، وحب الانسانية . هو يقبل بالتدرج من الحالة الاولى الى الثانية . أما مع الحالة الثالثة فالامر مرفوض . لان الفرق بين الحالتين الاوليين والحالة الثالثة ، فرق في الدرجة وهي موضوع جاذب وليس منجذباً . لكن المسألة المطروحة هي : كيف وجدت تلك الشخصيات أناسا يقتدون بهم ؟ وما هي القوة التي حلت محل الضغط الاجتماعي ؟.

يرى برغسون ، أن الامر يعود الى نوع من الحساسية ، التي تحل محل الغريزة والعادة ، ومهما كانت قوة الانفعال الناتج عن الحساسية ، نراها تتطلب العمل من غير مقاومة ، ودون أي تفكير . وهذا ما نشعر به ازاء لحن موسيقي يدخل النفس ويفعل فعله ، وكذلك رسل الاخلاق

كما يقول برغسون « للحياة في اسماعهم رنين عاطفي خفي كالرنين الذي يشسيعه ايقاع جديد ، فيدخلوننا معهم في هذه الموسيقا فنعبر عنها في حركة » . ص ٤٧ . ان الابداع لدى برغسون لا يقف عنـد حد الادب والفن ، بل يتجاوز ذلك نحو العقل ، من حيث هو جهد متواصل وتوتر خلق دائم . كيف يحصل ذلك داخل العقل ؟.

لو تصورنا العقل لابد من أن نتصور ملكة الانتباه الى جانبه،وبرغسون ينتقد تصور علماء النفس لملكة الانتباه ، من حيث ان علماء النفس يدعون بوجود انماط متعددة من الانتباه يوزعونها على حـالات متعددة ، والفرق لديهم فرق في الدرجة فقط . وبرغسون يرد على ذلك بقوله « ان ما يثير الانتباه هو تصور منطبق بانفعال ، يسبق حل مسالة معينة ... هـو الذي يدفع بالعقل الى الامام ويحطم الحواجز والصعوبات » . ص ٥٣ .

واذا كان للانفعال شأن مع الاخلاق ، ليس من المفترض ان نؤسس عليه نظرية اخلاقية ، ولا نستطيع من العقل ان نؤسس اخلاق المذهب ، لان العمل لا يفسر من النظرية ، بل من الانفعال الذي اشاد هذه النظرية .

اذا اعتبرنا ان الاخلاق المغلقة هي واجبات يفسر فيها الالزام بضغط اجتماعي ، وأن الاخلاق المفتوحة تعبر عن حالة عاطفية قريبة من الوثبة او الانفعال . نرى الاثنتين لا علاقة بينهما . لا الاولى قادرة على البقاء وحدها أن توصلنا الى الثانية ، ولا الثانية متآتية من الاولى ، بل هناك دائما قوة ، هي صلة الوصل بين الاثنتين ، هي قوة الانفعال ، التي تفعل فعل الوحدة بين الاثنتين ، كما يقول برغسون :

« اذا نحن بددنا الظواهر ولمسنا الوقائع واهملنا التصورات واللغة في كلتا الاخلاقين . وجدنا على طرفي هذه الاخلاق الوحيدة ، الضغط والتطلع . فأما الضغط فكلما كان غير شخصي كان طبيعيا ... اما التطلع

فيزداد سلطانا كلما سبرنا غور الطبيعة . . . ثم تفعل ذلك عن طريق أفراد ممتازين تريد أن تدفع بالانسانية الى الامام » . ص ٥٧ .

بين الاخلاق الاولى والثانية ، مابين الحركة والثبات . الاولى ، اي الاخلاق المغلقة ثابتة لا تتغير . اما الاخلاق المفتوحة فمتغيرة . التحرك هو اصلها ، وبها تبرهن على تفوقها . الفرد لا يستخرج الحركة من الثبات ، ولكن الحركة تتضمن الثبات بالمعنى النسبي . واذا كان من السهولة بمكان ان نعبر عن الاخلاق الاولى المغلقة بالالفاظ والتعابير ، نجد أن الفاظ وتعابير الاخلاق المفتوحة متناقضة ، اذ ليس المقصود منها وضعها داخل الفاظ وتعابير غامضة . بل أن نعرف القصد من ورائها ، اي مدلولها الروحي . ولهذا نجد هذه التعابير اللفظية في الانجيل مثلا ، والذي يعتبره برغسون حاملا للاخلاق المفتوحة ، نجد هذه التعابير متناقضة نسبيا ، بينما المقصود هو الوصول الى حالة روحية كامنة داخل الالفاظ ودلالاتها. وعلى هذا ، الأخلاق الأولى المغلقة ، تبقى حالة مجتزاة من حالات الحركة التي هي الاخلاق المفتوحة ، الحركي يتضمن السكوني والعكس ليس صحيحا .

يقول برغسون « بين النفس المغلقة والمفتوحة ، هناك النفس التي تنفتح . بين سكون القاعدة وحركتها ، هناك حركة النهوض والوقوف . بين السكوني والحركي هناك (حركة انتقال) . ص ٧١ .

ان هذه التوسطات التي يقيمها برغسون، يقصد بها الحالةاللاشعورية للفرد ضمن حالة السكون وهذا دليل على عدم وجود اندفاع لدينا . السكون هو حالة تحت عقلية ، والحركة هي حالة فوق عقلية ، الأولى متأتية من الطبيعة ، والثانية من العبقرية الانسانية . وبين (التحت والفوق) ، هناك العقل كحد وسطي .

واذا وثبت اخلاق النفس الانسانية ولم تبلغ اخلاق النفس المنفتحة، تكون ضمن هذه الحالة الوسط (العقل) وحالتها ، حالة « نهوض » في مستوى العقلية . ويكون موقف هذه النفس على ماتركته موقف اللامبالاة، وحياتها حياة تأمل ونظر . وهذا الموقف محصور بين النخبة من الناس. وبالمعنى الذي قاله برغسون « ان المتطلع يأخذ شكل الالزام المحدود ،

الالزام يكبر ويتسع فيشمل التطلع كانهما على ميعاد يلتقيان ضمن منطقة الفكر حيث تصنع التصورات ، بحيث تسفر عن امتثالات عقلية تجمع بين الضغط والتطلع حتى يغيبا ، فما نرى الا التصور وقد انصهر فيه الموضوعان ، فنحس أن هذا التصور هو الذي يؤثر فينا » . ص٧٤ .

« الدين السكوني »

يحاول برغسون من خلال هذا البحث تبيان طبيعة الدين الساكن من حيث مصادره وعلاقته بالغريزة ، والعقل ودوره ببناء المجتمعات الانسانية وتأثيره فيها ، والوظيفة التي يقوم بها داخل المجتمعات الانسانية العاقلة ، على الرغم من أن هذا الدين الذي تسيطر عليه الخرافة لا يمت الى العقلانية بصلة .

ـ **اللامعقول لدى الكائن العاقل** : كيف نفهم الكائن العاقل هذا اللامعقول ؟.

يعيدنا برغسون الى مؤلفات عالم الاجتماع « ليفي برول » الذي يميز بين العقل البدائي ، والعقل الانساني المعاصر، من حيث كونه قوة تطورية. وبالتالي هذه العقلية البدائية لم تعد موجودة في وقتنا الحاضر ، الا داخل مجتمعات مغلقة متطورة .

لكن برغسون يرد على هذا القول : بأن العقل في المجتمعات البدائية ، هو نفسه العقل في مجتمعاتنا المعاصرة ، والتغير الحاصل ، يكمن داخل ذلك التراث الكبير من التفكير العقلي الذي اكتسبه الانسان عبر تاريخه الزمني ، نتيجة حاجته له .

وما يصدق على « ليفي برول » يصدق على « دوركهايم » القائل بالعقلية الجمعية . دوركهايم ، يرى ، أن العقول الفردية ترفض الدين ، لان الدين هو نتاج العقل الجمعي ، الذي يخالف جوهره العقول الفردية.

ويرد برغسون على ذلك ، بأن التمايز بين العقول الفردية والعقل الجمعي قائم داخل اللغة والعادات وليس الدين . لا علم الاجتماع ولا

التجربة تقر بذلك . ولو أن الطبيعة أرادت العقل الفردي ، لنشأ العقل الجمعي عن اتفاق عرضي يزول بزواله . ولكن علم الاجتماع يرفض ذلك ويؤكد على جوهرية العقل الجمعي وحقيقته .

ويرد برغسون الاسباب الى أن علماء الاجتماع لا يدرسون الفرد من حيث هو فرد ضمن علاقة مع محيطه الاجتماعي ، وبالتالي مع العقل الجمعي . يقول برغسون : « ان مستقبل علم من العلوم مرهون بالطريقة التي ينهجها اولا في تقسيم الموضوع ، فاذا وفق الى التقسيم وفق المفاصل الطبيعية . . . فلن يهم بعد هذا الاجزاء التي يكون قد أوجدها » . ص ١١٧ .

بعد هذا الرد الذي يقيمه برغسون لمنظور علم الاجتماع ، يرى انه على الرغم من الفوارق العميقة بين بنية العقل ومصدر التفكير الخرافي ، الا ان الفكر يتوهم كثيرا . اشباح الوقائع وجدت كرد فعل على تجريبية العقل للوقائع ، ولعل هذا ما انتهجته الطبيعة . العقل منذ البداية غزته الاوهام وهو بطبيعته كائن متوهم .

ـ **ما عمل الوظيفة الخرافية ؟** : إن الفكر ضمن عمله يصيب ويخطىء ، وهو إما أن يضل او يصيب كبد الحقيقة . والانسانية واحدة ، رغم تمايز معتقداتها التي تخالف العقل احيانا ، وكأن الفكر يميل بعض الاحيان الى اللامعقول والغريب . ولولا أن الصور الخرافية تنبجس من الذهن ، لتصورنا انبجاسها . ولكن قولنا بتطورات متباعدة ، يجعلنا نتصور العلاقة بين الخرافة والحياة .

ـ **ماعلاقة الخرافة بالحياة ؟** : هذا السؤال يفترض امكانية رد الاوهام التي تتراءى للعقل الى حاجة حيوية بالرغم من عدم تحديدنا لمطالب الحياة الاساسية ، هل يعني هذا ، ان العقل وتصوراته مطلب يحدد هذه الاوهام الخرافية . لنعد اذا الى مفهوم « الوثبة الحيوية » لنرى امكانية اكتشاف ذلك .

ـ **الوثبة الحيوية** : يعطي برغسون الوثبة الحيوية طابعاً تجريبياً . وظيفة الفيزيولوجيا هي البحث داخل الحيوي عما هو فيزيائي وكيميائي ،

أي من خلال هذه الكتلة الهلامية للمـادة . يرفض برغسون مفهوم التطور الداروينى القائم على اساس خط واحد من التطور ، وان كل كائن قـد اخذ نصيبه من التطور ، حتى بدا على الشكل الذي نراه . بحيث يفترض برغسون مفهوما آخر للتطور ، حيث يؤكد ان تطور الحياة يتم ضمن اتجاهات معينة ، وليس بشكل آلي ، بل من خلال دفقة حيوية ، تنتقـل داخل الافراد من بذرة الى بذرة . ومن ثم الوثبة الحيوية هي الصفـة المستمرة من الحيـاة ، وهي ليسـت آلية ولا غائية ، وانه علينا ان ننظر الى الحركة من الداخل لا الخارج لنكشف حركة تطورها .

وانه اذا وجد خطّان للتطور ، يكونان من منبع واحد ، ويتممان بعضهما بعضا . ان الغريزة والذكاء متممـان لبعضهما ، وتلـك هي التصورات التي تستتبعها الوثبة الحيوية . ومن ثم عمل الوثبة الحيوية داخل المادة هو الذي يحدد الاشكال التي تخلفهـا الحيـاة علـى منـدى تطورها ، والانسـان يتصف دائما بصفتين هما : العقل والميـل الـى الاجتماع . ويجب ان نردهما الى موضوعهما من التطور العام للحياة .

ـ **الوظيفة الاجتماعية للخرافة** : ان عمل الوظيفة الخرافية يقوم على منع العقل من تهديد المجتمعات الانسانية بواسطة الغريزة ، التي تحيط به كالهالة . عندما رات الغريزة ان عمل العقل قائم على التصورات ، عمدت هي الى انشاء تصورات خيالية تقف امام تصورات الواقع ، وبهذا عاكسـت عمل العقل ، وهذا هو سبب وجود الوظيفة الخرافية .

ـ **الوظيفة الاجتماعية للدين** : الدين حسب برغسون « رد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة قوة العقل الهدامة » ص ١٣٤ .

يرى برغسون ان مفهوم الوحدة الاجتماعية لم يكن واضحا داخـل المجتمعات البدائية الاولية ، ولم تكن الفردية على هـذه الدرجـة مـن التخصـص والبروز . وقوة المنع لم تكن لتتجسد بشخـص واحـد . والتضامن داخل هذه المجتمعات الزامي لانه لا يحد بقانون . وبذلك كل ماينتجه الفرد سيوسم بميسم الدين . ومن هنا العلاقة بـين الـدين والاخلاق علاقة بدائيـة داخل المجتمعات الاولية . العادات هي الاخلاق . والدين كان يحرم الخروج على هذه العادات ، فاصبح الدين والاخلاق

شيئا واحدا . هو وقاية من الخطر الذي يتعرض له الانسان ، اذ يفكر فيما يفكر الا بنفسه ، وبهذا يحقق رد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعةالعقل.

والمسؤولية الفردية لهذه المجتمعات البدائية الاولية لا تنفصل عن المسؤولية الجماعية من حيث الفاعلية ، ولعل مفهوم الاخذ بالثأر المثال الاكبر على ذلك . عندما تكون الرابطة قائمة على الدين كمنشأ يصبح قطعها من قبل الفرد جريمة يحاسب عليها . فمن الدين كعقاب نشأت الاسطورة .والاسطورة لا تميز بين النظام الطبيعي والاخلاقي والاجتماعي، لأنها محتواة داخل الدين ، يرى برغسون كمثال : « ان ثيمس Thémis إلهة العدالة هي ذاتها أم الفصول والديكة Dikés الذي يمثل القانون الطبيعي » ص ١٣٦ .

وما زال هذا الازدواج للمفهوم سائدا حتى الآن ضمن معاني اللغة . قام الانسان منذ القدم بفعل تجسيد مقولة الاله بشخصه ، أي من مكون مادي ، على الرغم من كون العقل الصادر عن هذه الشخصية ، ليس فعلا ماديا . بل عن مكون روحي لها (روح ــ إله) ، والتي يسميها برغسون ــ الفعالية الروحية ــ الكامنة خلف هذه الشخصية ، كما يميز برغسون بين المكون المادي والروحي اللذين كانا مندمجين داخل المجتمعات البدائية الاولية تحت اسم التحريم Tabou ، بالمعنى البيولونيزي .

ولكن نتساءل : ماذا يقصد برغسون بالمجتمعات البدائية الاولية ، وماوجه التمييز بينها وبين مجتمعاتنا المتحضرة ، أي مجتمعات القرن العشرين ؟ .

الانسانية البدائية عند برغسون هي الانسانية الموغلة في القدم « المجتمعات البدائية الاولية » . اما بدائيو اليوم فهم مجتمعاتنا المتحضرة، مجتمعات القرن العشرين .

إن ما يفرقنا عن المجتمعات القديمة هو ذاك التراث المتراكم من العادات المكتسبة التي انتقلت الينا عبر تطورنا التاريخي ، ولو أزلناها لتساوينا مع المجتمعات البدائية الاولية .

إن وجه الخلاف يكمن في أن تكوين القيم ضمن المجتمع البدائي الاول تم بشكل افقي ، اي بالانتقال من شبيه الى شبيه ، بينما ضمن مجتمعاتنا تم بشكل عامودي ، اي بتبدلات عميقة ومتشابكة . من هنا ، تبقى فكرة التحريم Tabou ليست بدائية ، لانها نتيجة لقيم اجتماعية لا فردية ، ناشئة عن الدين بالمفهوم الجمعي ، الذي ينظم العلاقات ويسن القوانين ويحرم ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب ، وعلى هذا ، الوظيفة الاولى للدين كما يقول برغسون : « هي حرصه على بقاء المجتمع مباشرة » .

اما الوظيفة الثانية للدين فهي « حرصه على بقاء المجتمع بشكل غير مباشر » . وعلى هذا الدين : « يقوم برد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة قوة العقل باستحالة تجنب الموت » ص ١٤٣ .

« الدين الحركي »

ماهو الدين الحركي ، ماتعريفه ، وما وظيفته وطبيعة تكوينه ، هل هو حدس او تصوف ، أو تصوف حدسي معا ، ماعلاقته بالدين الساكن؟.

هل هناك علاقة ام لا ، وما هي شروط تواجده ؟..

قلنا : انه بقي اهداب من غريزة هي حدس غامض حول العقل ، ويعتبر برغسون هذا الهدب هو اساس الدين الحركي ، ولكن على اي نحو ؟

يعتقد برغسون ان ذلك يتم بواسطة النفس القادرة على هذا الجهد ، أي تضايف النفس مع هذه القدرة واندماجها بها . وهذا الاعلى هو محبة وحب ما ليس حبا،وهذه الشخصية،شخصية انسانية ليست خاصة بمجموعة من البشر أو بأمة من الامم .

من خلال ذلك يتجاوز برغسون مفهوم الدين ، بل يلغيه . ليضع بدلا عنه مفهوم التصوف ،لان التصوف اشمل واعمق . فالدين دين جماعات وامم وقبائل بينما التصوف للانسانية عامة .

ضمن هـذا الفصـل سنستعمل مصطلحين جديدين للاستخدام المعرفي . الاول : التصوف الحركي بدلا من الدين الحركي ، والحـدس الصوفي بدلا من الحدس الغريزي .

يعرف برغسون التصوف على انه « اتصال بالجهد المبدع الخالق الذي ينجلي عن الحياة ومن ثم اتحاد جزئي به ، وهذا الجهد هو شيء من الله إن لم يكن هو الله ذاته . والصوفي الكبير هو ذلك الانسـان الذي يتخطى الحدود التي رسمتها للنوع البشـري ماديته ويكمل بها فعل الله » . ص ٢٣٦ .

والحدس الصوفي لدى برغسون امتداد للحدس الفلسـفي القائم على العقل والتصورات ولكنه ضمن عملية انشائه للتصورات الميتافيزيقية ، لا يعتمد على هذه التصورات لان مجاله الحركة بينمـا مجـال العقل السكون وتصوراته تصورات سكونية لاحركية .

يرى برغسون ان التصوف لكي يكتمل يفترض ان يمر بمراحل ثلاث هي « العمل والمحبة والخلق » وايّ تصوف لا يمثل هذه المراحل الثلاث يعتبر تصوفا ناقصا . من هذا المنطلق بحث برغسون النزعات الصوفية. مبينا مدى تهافتها امام قواعده ، حتى يصل الى التصوف المسيحي الذي يعتبره تصوفا كاملا ، وهو اساس كل تصوف .

ـ **التصوف اليوناني القديم** : ان قمة التصوف اليـوناني بنظـر برغسون ظهرت من خلال افلوطين ، الذي استمد اصوله الصوفية من الافلاطونية ، ومن أفلاطون على وجـه التحديد ، والذي يرجـع برغسون اصول صوفيته ـ افلاطون ـ الى الفيثاغورية . ولكن على الرغم مـن ذلك ، يعتبر برغسون التصوف الافلوطيني تصوفا ناقصا ، بناء علـى تعريفه للتصوف ، لان افلوطين على الرغم من وصوله الى الجهد المبدع الخلاق ، الا انه لم يصل الى الحالة التي يرى فيها الله . اي انه لم يصل الى مرحلة العمل ، بل بقي ضمن مرحلة التأمل . ويعتمد برغسون على مقولـة لافلوطـين أوردهـا في احـد كتبه وهي : « ان العمـل يضعف التأمل » ص ٢٣٧ .

وعلى هـذا بقي أفلوطين ضمن اطـار النزعة العقلية اليونانية ، ولم يتجاوزها الى مرحلة العمل والمحبة والخلق .

ـ **التصوف الشرقي** : يعتبر برغسون ان التصوف الشرقي لم يصل الى مرحلة الكمال لاسباب عدة هي :

١ ـ ان الصوفية الشرقية لم تصل الى خصائص التصوف الكامل، وهي العمل والمحبة والخلق . ص ٢٤١ .

٢ ـ لم تؤمن بقيمة العمل الانساني ولم يكن لها ثقة به ص ٢٤٢ .

٣ ـ لم تكن متفاعلة مع الجدل ، مما اعاق التصوف عن النضوج ص ٢٤٣ .

ـ **التصوف المسيحي** : هو التصوف الكامل بنظر برغسون ، لانه يتطابق مع مقولات التصوف الثلاث ، العمل والمحبة والخلق . المتصوفة جماعة نذرت نفسها للبشرية ، ومن خلال حبهم وافعالهم ينتشر التصوف، وتستمر الوثبة الحيوية في الوجود . وهي طريقة اتبعها كبار الصوفيين وبذلك بنو الاديرة والجمعيات لتكون مراكز خلق وابداع ، وكان وثبة الحب لا تتم الا عن طريق الله ، فقضت جهودهم في العمل على التقاء انفسهم بالله .

ـ **علاقة الدين بالتصوف** : ان العلاقة بين الدين والتصوف ، كالعلاقة بين المادة والصورة . ان الدين كالمادة الجامدة الساكنة يأتي التصوف ليعطيها صورتها ويهبها حركتها . وعلى هذا يجب أن تقبل الصوفية بالقليل من الأشياء الساكنة حتى تستطيع أن تذاع وتنتشر بين الناس ، اخذت المسيحية الكثير من الفلسفة اليونانية والديانات القديمة ، الا ان المهم بنظر برغسون هو « انتشار الصوفية في هذا الدين الجديد » . ص ٢٥٢

ـ **الصوفية ومشكلة وجود الله والطبيعة** : يحل برغسون هذه المشكلة من خلال التجربة . التجربة هي التي تعطي الدلالة على وجود الفعل خارج المدرك العقلي أو الحدسي ولكن بواسطته . والمسألة هي كما يقول برغسون ان نتساءل « هل ثمة كائن يمتاز عن سائر الكائنات بانه لا يدرك بالتجربة ، ولكنه مع ذلك موجود وجود تلك الكائنات ؟» ص ٢٥٧ .

يسلم برغسون بوجود الإله (الله) ، ويؤكد عجز الفلاسفة عن تحقيق ذلك ، بحجة أن الله لا يثبت أمام التجربة . إله أرسطو ليس أكثر من إله المجتمع ، إله مجموعة من الصور والأفكار ، انه بحسب تعبير برغسون : « تأليه للعمل الاجتماعي الموطىء للغة » . ص ٢٦١ .

ولكن كيف يحل المتصوفة ذلك ؟ .

يرى برغسون أن كافة المتصوفة يتفقون بأنهم يمرون بالمراحل نفسها للوصول الى المرحلة الإلهية (مرحلة التوحد) . ان وحدة الهدف هي الدليل على وجود الله ، لانه مشاركة له ، ووحدة قائمة بين موجّه وموجّه . « إن الله حب وهو موضوع حب » . ص ٢٦٨

والله بحبه لنا يخلق الكون ، فخلق الكون موضوع محبة الله للبشر الحب انفعال تام في النفس وعلى هذا يكون برغسون قد وصل بنا الى نهاية البحث في الدين الحركي على أساس من الصوفية التي وجدت كمالها داخل المسيحية .

« برغسون في ميزان التقويم »

لم يدع برغسون تياراً او مدرسة في عصره ، الا ووجه اليها سهام نقده ، وبالقدر الذي انتقد فيه برغسون ، رد عليه خصومه وانتقدوه .

وسنحاول في هذه العجالة التقويمية أن نبرز بعض الانتقادات التي وجهت لفلسفة برغسون ، غايتنا منها وضع فلسفته ضمن الاطار العام للتطور المعرفي الفلسفي لعصره ، وبالتالي ربطها بتطور حركة المجتمع .

ان أيّ فلسفة أو تيار او مدرسة لا يمكن أن تفهم خارج اطار التشكيلات المعرفية السائدة ، اي خارج اطار المذاهب والتيارات الفلسفية ، التي تعبر بشكل او بآخر عن حركة تطور مجتمعي ، وعن قانونية طبقية سائدة .

ـ **برغسون واللاعقلانية الدولية** : الانتقاد الاول الذي وجه الى فلسفة برغسون هو، انه أحد اركان ما يسمى باللاعقلانية الدولية لعصره، واللاعقلانية الدولية ليست تياراً حديثاً من تيارات المعرفة الفلسفية ، بل هو قديم قدم تلك التيارات ، بدءاً من اللاأدرية السوفسطائية مروراً بالتيارات المثالية الذاتية التي ترفض مقولة معرفة الواقع والعالم خارج الذات ، وانتهاء بالتيارات التي حاولت جاهدة أن تحطم معقولية العقل ، وتحد من دقة العلوم كقانونية عقليه تطورية .

يقول لوكاتش « يمكن الكشف عن اللاعقلانية الدولية بدءاً من فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى . وهكذا الامر مع البراغماتية عند الانجلو سكسون ، مع (بوتره وبرغسون وآخرين في فرنسا) ومع كروتشة في ايطاليا »(١) .

والتراث اللاعقلي في تاريخيته كفكر أوروبي وليد الحركة الرومانتيكية ، التي تعود الى جان جاك روسو . ان اللاعقلانية البرغسونية تكمن ضمن « الدفاع عن حقيقة الصيرورة في التجربة مقابل تشويه الصيغ الجامدة التي تنتمي الى العقل وصورته عن العالم »(٢)

ان الاتجاه الذي اتخذه برغسون ضد العقلانية هو السبب الكامن لعدم تقديمه أسبابا مقنعة لنظرياته الفلسفية . لان برغسون يرفض السببية كمبدأ للقبول ، وبالتالي هو عاجز عن تقديم اي تبرير لتخميناته وحدسياته ، لأن السببية هي التزام بميدان العقل .

ـ **برغسون والبرغماتية** : منذ بداية الامر وبرغسون يتبادل الآراء والافكار مع وليم جيمس . هذا التبادل الذي وصل حد الاطراء والاتفاق على خطوط فلسفية محددة .

---

(١) جورج لوكاتش ـ تحطيم العقل ـ ج١ ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٠ـ ص ٣٥

(٢) برتراندرسل ـ حكمة الغرب ـ ج٢ ـ ترجمة فؤاد زكريا ـ سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٨٣ ص ٢٧٦ .

ولعل القاسم المشترك بينهما هو رفض الواقع الموضوعي وقابليته لان يعرف معرفة عقلية ، وبالتالي السير بالفكرة ـ المعرفة ـ نحو اتجاه تقني ، يؤدي منفعة تقنية . انه كامن في دعوتهما الى الحدس ـ اي معرفة الواقع معرفة تجريبية خارج اطار العقل .

يقول رسل « ان جيمس يرفض المذهب العقلي بسبب تجريبيته ، وان العقل يؤكد على المفهوم الذهني على حساب المادي »(١) .

ـ نقد فلسفة برغسون :

١ ـ يقول برغسون « ان المعرفة العلمية الدقيقة بالوقائع لهي الشرط الضروري الذي لابد من ان يسبق كل حدس ميتافيزيقي يكون من شأنه أن ينفذ الى مبدأ تلك الوقائع » .(٢)

لكن برغسون يفرق بين نوعين من المعرفة : معرفة علمية مجالها الكم والامتداد والمكان ، ومعرفة فلسفية مجالها الكيف والتوتر والزمان . كما يقرر ان معرفة الواقع لا تتم بواسطة تصورات عقلية بل بواسطة جهد حدسي . الميتافيزيقا هي عملية انتباه شاملة نستغني فيها عن كل الامور لكي نمضي الى الأصل L' original محاولة للنفاذ الى صميم الحياة الباطنة . والحدس يقوم على رفض كل تصور ميتافيزيقي عقلي للكون .

كما يقول برغسون : « ان ماهو مطلق لا يمكن ان يتكشف الا عن طريق « الحدس » ، بينما التحليل هو تلك العملية التي ترجع الموضوع الى عناصر معروفة من ذي قبل ... وبالتالي، التحليل هو ترجمة رمزية... يتبين مما تقدم ان للعلم الوضعي وظيفة مألوفة هي التحليل ومعرفة نسبية ... اما الميتافيزيقا فهي العلم الذي يزعم لنفسه القدرة على الاستغناء عن الرموز »(٣) .

---

(١) المرجع السابق ـ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

(٢) زكريا ابراهيم ـ برغسون (نوابغ الفكر الغربي) ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٨ ـ ط ٢ ـ ص ٣٧ .

(٣) هنري برغسون ـ الفكر والمتحرك ـ الفصل السادس ـ المدخل الى مابعد الطبيعة ـ ترجمة زكريا ابراهيم ـ ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

اضافة لما سبق ـ هل لابد للمعرفة الحدسية أن تسبقها معرفة استدلالية ، أو معرفة علمية دقيقة ؟. اذا كان لابد من ذلك ، معنى هذا، ان المعرفة الحدسية تحمل بعض أثر من المعرفة العقلية العلمية الدقيقة وهذا محال بنظر برغسون ، لانه يناقض الاساس الذي تكلم عنه ، أي اساس المعرفة الميتافيزيقية والتي اداتها الحدس ، ومجالها الكيف والتوتر والزمان .

وبالتالي المعرفة العلمية الدقيقة « العقلية » ، وجودها وعدم وجودها بالنسبة للمعرفة الحدسية سواء . أي ـ المعرفة الحدسية ـ لا تعتمد عليها ، ومن وظيفة مغايرة لها كليا .

٢ : يقول برغسون خلال حديثه عن الاخلاق المغلقة والمفتوحة :

« ان رسالة سقراط رسالة دينية صوفية ، على نحو ما نفهم الدين والتصوف اليوم ، وتعاليمه مهما كانت عقلية ، فانها مرهونة بشيء يفوق العقل الخالص » .(١)

ويتابع برغسون ذلك بقوله :

« ألم يقولوا ان سقراط أول من انزل الفلسفة من السماء الى الارض، لقد لازمت هذه الروح السقراطية افلاطون لتتجلى في الميتافيزيقا اليونانية ولتصب في مدرسة الافلاطونية المحدثة على يد افلوطين . لقد كان سقراط الند ليسوع ، ومن هنا كان اهتمام المسيحيين بالتعاليم الافلاطونية »(٢).

وللتوضيح نستعير من الذاكرة بعضا من المقولات السقراطية :

ـ ان الحياة التي لا تخضع لفحص عقلي شديد لا تستحق أن تعاش.

ـ ان الخير هو المعرفة .

---

(١) هنري برغسون ـ منبعا الاخلاق والدين ـ ترجمة سامي الدروبي ـ مصر ـ ١٩٧١ ـ ص ٧٧ .

(٢) نفس المرجع ـ ص ٧٣ .

ـ المنهج السقراطي منهج جدلي قائم على فكرة « التهكم والتوليد ».

ـ رفض سقراط لنبوءة معبد دلفي بتوجيه الحكمة الى الله وليس للانسان .

اذا ، هل سقراط فيلسوف روحي فعلا ؟.

اذا كان سقراط يعلم تلاميذه بوحي من معبد دلفي ، ليس معنى ذلك ان تعاليم سقراط روحية ، ان معبد دلفي يمثل بالنسبة لليونان عموما ولاهل اثينا على وجه الخصوص مكانة دينية مقدسة ، بغض النظر عن أي اشكالية معرفية .

وسقراط عند دفاعه عن نفسه أثناء محاكمته يقدم الدليل على رفضه لنبوءة كاهنة معبد « دلفي » ، لانه يرفض أن يكون حكيماً ، أن الحكمة لله وليس للانسان (سقراط) .

ثم هناك نقطة أخرى من خلال قول برغسون ان رسالة سقراط « رسالة دينية صوفية على نحو ما نفهم الدين والتصوف اليوم » . أي على نحو ما يفهمه برغسون . ولكن برغسون عند حديثه عن الدين الحركي، يقول : « ان التصوف اليوناني تصوف ناقص » وبالتالي تصوف سقراط تصوف ناقص ، رسالته رسالة ناقصة وبالنتيجة فلسفته فلسفةناقصة. وهذا تناقض صريح لاجدال فيه .

كما أن تعاليم سقراط ليست تعاليما صوفية روحية . سقراط يستخدم المنهج الديالكتيكي « منهج التهكم والتوليد العقليين » . خلال محاوراته ، ويعتبرهما أساسا لتفكيره ، وهما عمليتان عقليتان . ومن ثم سقراط لم يعتبر علم الاخلاق علما صوفيا ، بل أكد على عكس ذلك ، اذ قرنه بالمعرفة العقلية ، الخير هو المعرفة . فالى أيّ حد يبقى قول برغسون صحيحا ؟ .

٣ : يعتبر برغسون الدين الساكن وليد الخرافة ، والخرافة بحد ذاتها هي نتيجة قوة لا تعتمد على العقل . ثم يعود بعد ذلك خلال حديثه عن الخرافة الى القول : « ان العقل كائن متوهم بحد ذاته » .

اذا كان العقل بطبيعته لا علاقة له بالتفكير الخرافي ، فانه بحد ذاته لا علاقة له بالوهم ، لان الوهم أو التوهم . هو الخطوة الاولى نحو التفكير الخرافي . وهو تصور غير مطابق للواقع . والخرافة هي ابتداع نفسي مركب غير مطابق للواقع وبالتالي غريب عنه .

يعود برغسون بعد ذلك للقول : « ان الميل للعقل نحو الغريب أو اللامألوف قد يبدو غريزة لولا أن الصور الخرافية تنبجس من الذهن لتحل محل الغريزة » .

ثم يعود للقول : « انها غريزة كامنة في خط الانسان » .
ويرد برغسون هذه التصورات الخرافية الى عمل الغريزة التي تحيط بالعقل .

لكن كما نعلم أن الغريزة لدى برغسون من طبيعة مخالفة لطبيعةالعقل على الرغم من أنهما من منبع واحد . ومن ثم اذا كانت الغريزة محاطة بالعقل كهالة ، فهي محاطة به لكي تدفعه عن طريقه بوضع تصوراته ، وبالتالي تصورات العقل ليست خرافية . لان التصورات الخرافية تصوراته غريزية ، والعقل بحد ذاته من طبيعة مغايرة لطبيعة الغريزة لان مجاله الكم والمكان والامتداد ، ومنهجه استدلالي . فكيف تحل هذه الثنائية بعد كل ما أوقعنا به برغسون ؟.

اما أن هناك علاقة بين الغريزة والعقل ، وبالتالي ليست الغريزة هالة محاطة بالعقل . بل هي مندمجة معه ، مشاركة له . والمشاركة لا تدعي التناقض ، بل تدعي التركيب التوافقي ، أو أن هذه التوفيقية غير موفقة .

٤ ـ يعرف برغسون الدين بأنه : « رد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة قوة العقل الهدامة »(١) . ووظيفته ابقاء المجتمع في وحدته ، والحفاظ عليه .

---

(١) هنري برغسون ـ منبعا الاخلاق والدين ـ ترجمة سامي الدروبي ـ مصر ـ ١٩٧١ ـ ـ ص ١٣٤ .

ولكن ، اذا كان الدين يقوم بهذه المهمة فعلا ، كما يقول برغسون ، فهو ــ الدين ــ يقدم نقيضا لذلك ايضا. ومن خلال عودة قصيرة الى تطور المجتمعات وتاريخيتها ، تقدم لنا تقريرا مفاده ، أن الدين كان سببا في كثير من الحروب والخلافات بين المجتمعات ، مما دفع بأحد كبار مفكري العصر (ماركس) الى اعتباره « افيون الشعوب » . فكيف ينطوي الدين بحد ذاته على هذين العاملين المتناقضين والمتضادين بحد ذاتهما ؟.

٥ ــ مقولة التصوف المسيحي الكامل : يعتبر برغسون التصوف المسيحي تصوفا كاملا ، بينما سائر النزعات الصوفية التي قضى ربع قرن من الدراسة عنها ، نزعات صوفية ناقصة ، سواء عند اليونان أم الشرق عموما .

وفيما يتعلق بأثر الصوفية في تغيير المجتمع ، يرى برغسون أن ذلك يتم بطريقتين :

« ان تقوي العمل العقلي الى حد كبير ، وان نذهب به الى ابعد مما ارادت له الطبيعة ، فتحل مجموعة واسعة من الآلات ، تستطيع أن تحرر النشاط الانساني ، محل الارادة البسيطة ، ويدعم هذا التحرر تنظيم سياسي واجتماعي يكفل للآلية وظيفتها الحقيقية »(١) .

ويرى برغسون أن ذلك يتم بأن تسمح احدى هاتين الفعاليتين المتناقضتين (الصوفية ــ الآلية) للاخرى ، بالعمل ثم تدافع عن نفسها .

لكن اذا كانت الصوفية والآلية متناقضتين ، أي أن احداهما ضد الاخرى ، كيف ستسمح احداهما للاخرى أن تعمل ؟ . هل يكفي للاستفادة من اخطاء الاخرى ، أن تقف احداهما عن العمل ؟. .

ان هذا الاسلوب الذي استعمله برغسون لنقد التطورية والآلية ، يغدو من وجهة نظر الصيرورة الداخلية لاعلاقة له بالآلية .

---

(١) هنري برغسون ــ منبعا الاخلاق والدين ــ ترجمة سامي الدروبي ــ مصر ــ ١٩٧١ ــ ص ٢٥٢ .

اي ان الوثبة الحيوية ليست ناتجة عن اخطاء الالية ، بل هي نتيجة نظرة خاصة لبيرغسون في الحياة . ثم كيف يمكن لنا ان نتقبل بمبرغسون بأن تقف احدى هاتين القوتين وهي الصوفية حتى تستفيد من اخطاء الاخرى ؟ .

الا يعني ذلك تناقضا واضحا في فلسفة برغسون التي تعتمد الصيرورة والحركة ؟.

وحتى لو اعتبرنا ان هذا السكون متضمن داخل الحركة . الا ان هذا السكون داخلي بحد ذاته ، اي ينطبق على الصيرورة الداخلية لا علاقة له بالخارج ، لان السكون عند برغسون ليس بخارجي ، بل هو موجود ضمن صميم الحركة ، من حيث هو سكون حركي جزئي ، بينما نجد ان العلاقة بين الصوفية والالية علاقة خارج مع خارج . فلا الصوفية تتضمن الالية ولا العكس صحيح .

عن وزارة الثقافة يصدر حديثاً

سحر الأسطورة

رحلة في اعماق الهند

د. طالب عمران

* * *

الشرق والغرب

بقسميه الأول والثاني

من سلسلة

قضايا وحوارات النهضة العربية

اعداد وتقديم

محمد كامل الخطيب

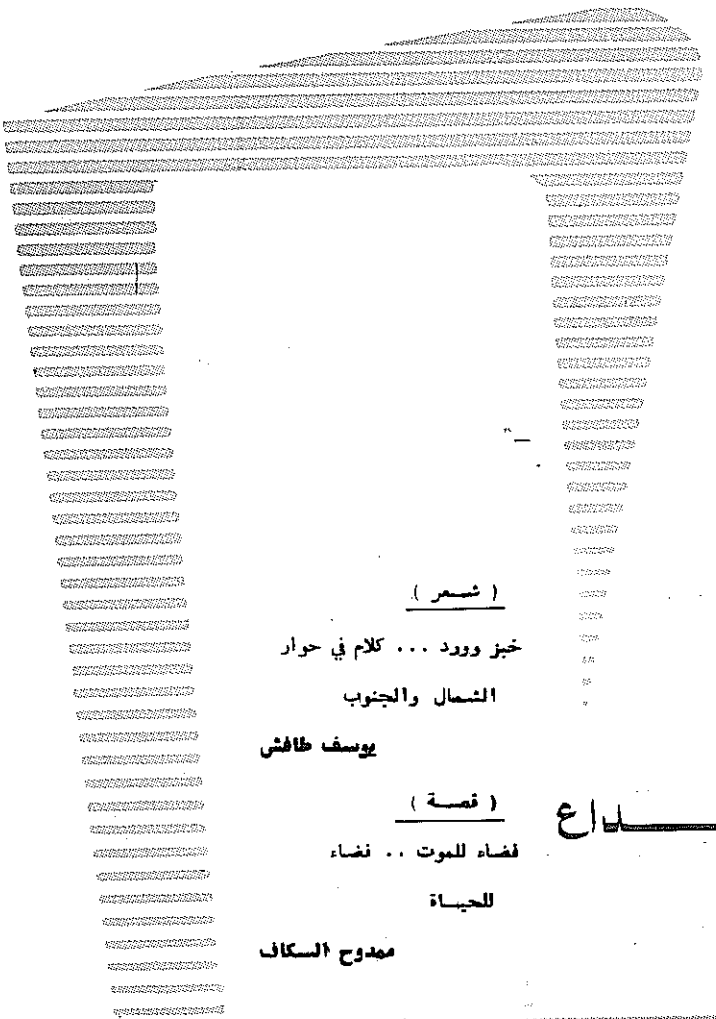

ابـــــداع

(شـعر)

خبز وورد ... كلام في حوار

الشمال والجنوب

يوسف طافش

(قصـة)

فضاء للموت .. فضاء

للحيـاة

ممدوح السكاف

ابـــداع

شعر

خـــبز وورد

كـــلام في حـــوار الشمـــال والجنـوب

يـوسف طـافش

ظلِّ لتابوت المنابرِ
في عناوين الظهيرةِ
نشرةُ الاحـلام تاتي ...
بعد تابينٍ حضاريٍّ لخاتمة العذابْ
شحبَتْ مناديـل المسـاءِ
ظننتُ انَّ الأزرقَ الفحميَّ
سـفحُ اللونِ
فاتحـة الرحيـقِ
إذا تداخلت الظـلالُ

(*) شاعر من فلسطين ، له اربعة دواوين ، منها : « رعاف الليل » و « كنعانيات » .

تصالحَتْ أضواؤهـا
مَنْـذا سيُطلقُ من غبـار الطّلْع صيحتَهُ ؟
(خبـزٌ لأطفال الجنـوبْ
وردٌ لأطفال الشمالْ)
والناسُ في دبـق الأماني
ينسجون ـ على الرمالِ ـ دم الحوارِ
ويَعرّجون إلى سماءٍ من رمادْ .

* * *

المعدنيُّ هنـا ملامِحُهُ مسلّحةٌ
لـه لغـة الشعاعِ
لـه بـروج الكونِ
حلـم الطفـل مشروعٌ حضاريٌّ هنا
لا وقتَ للباكين ـ خلف البحر والصحراءِ ـ
في حاسوبهم
هـا آخـر الأسبوعِ
يختزل المدينة في المصارف والجيوبْ
جبـزٌ لأطفـال الجنوبْ
فَرْوٌ على جسد الظلامِ
يهدهـد المـدن التي
تغفو على قلق المصـانع والضبابِ
صباحُها ....
شهدٌ تقطّر من حليب الليلِ
والجنس المقدسِ

إنــه الأحــد المبــارك
آنَ وقــت صلاتهــم
زُلفى لآلهــة الحديد
وردٌ لأطفــال الشمال

مَنْ يحمل الآن القصيدةَ
بين آلاف الجيــاعِ
إذا اتاكَ حديثُ مرضعةٍ
تفامر في قفــار الأرض عاريــةً
لتجمعَ ما تبقى من هشيم المــاءِ
بالساقينِ
والنهديــنِ
بالوجه الغباريِّ المدجّج بالذهول
مطرٌ تسربَ من شقوق الليلِ
والأفواه طين كافرٌ
إنَّ الحرائق داهمَتْهُم في البطون
للضَّوءِ طعمٌ حامضيٌ
عند خط الاستواءِ
ومهرجان الخبز مرتبكٌ
على أفق الجنون
يا ايها الشفق الحنونَ
هناك ينحسر الغروب إلى الهجيرِ
ويرتدي ظمأَ البراري

منْ سيسمعنا صـــدى أكبادهم .
تبتلُّ بران على اجسادهم
ما بين لون القمح والكاكاو
لون الحزن يختصر العيونْ

★ ★ ★

قاموسنا البشريُّ منكفىءٌ على انقاضهِ
كونٌ ومرثيةٌ تمدُّ نشيجها
كونٌ ومهزلة الصواريخ البريئةِ
من دم الفقراءِ
ماثرة السلام ، حصادُها « حرب النجومْ »
اتى اُراود بهجتي
يقتادني شبح الشعاع الليزريّ
من السرابِ .. إلى السرابْ
اتى اُراود غفوتي
ينتابني طفل المذابح والخرابْ
اصحو على دمع المسيحِ
وجمرةٍ في كفِّ مريمَ
فاجعٌ هذا السواد القرمزيُّ
على دروب الناصرةْ

★ ★ ★

للطفل احلامٌ يفرغرها الضحى
للحلم سرٌّ في الندى والأغنياتِ

فضاؤه شجرٌ من الحلوى
ونجمٌ يحتسي الألوانَ
اُمٌ ....
تمنح الغابات عصفور البراءةِ
بسمةً من عاشقين توحّدا في الحلمِ
من أقصى الشمالِ ...
إلى الجنوب
فإلام يتكىءُ الحفاة على فضاء الوهمِ
ينقضُ الغمامُ ....
على الغمامِ
على الغمامُ ؟
بالخوف نحتضن الحمامَ
إذا تقمّدَنا الحمامُ
وردٌ وخبزٌ فيهما سرُّ الحوارِ
فكيف ننـــأى عن مفاتيح الكلامُ
بالامتحان الروح فينا
بالمجد الأرض منذورٌ
لسربٍ من أغاريد الطفولةِ
في نواميس السلامُ

* ★ ★

قصة

فضاء للموت... فضاء للحياة

ممدوح السكاف

١ ــ طفل المائدة

... المسافرة الطهور تسمع اوراقي وتخضر في عشب الصباح ... هناك كان نيزك يستجم على حافة ماء ، والتوق الى النوم يسعى في نبوءة من شعر ..!

ثمة مدينة تستيقظ على عاشقين لا يجرؤان على اللقاء ، هو لغيرها في سرير الليل ، وهي لغيره ، ولكنهما في الحلم يستطيعان ان يفعلا كل محرم ممنوع ..!

ويندفع « المونولوج .. »

---

* ممدوح السكاف : شاعر من سورية ، يكتب الشعر وينشر في المجلات ، ويهتم بالدراسات الأدبية . من أعماله : في حضرة الماء (شعر) ، نشيد الصباح (شعر للأطفال) .

ولد هرم صافح أقنوم السعادة وغزا حجرة الطعام واخذ يرشف من مخدع المؤونة ما يشهد على نشوته الصاعقة في طفولته العجوز آن راى للمرة الاولى التفاحة المقدسة فانهدّ قلبه الصغير وسقط على ارض خياله .. كان ذلك أول لقاء له مع الموت الحي ..!!

نقف عند الجسر المستيقظ كنا ... والسرو ينظر الى اعلى تحت أقدام من نرجس الشمس ، لامست كتفها فانعطفت نحوي تسألني عن ملائكة الوقت ، فأومأت اليها دون ان أجيب :

ـ مالنا وللزمن ..؟ ثم سرنا بلا خطوات على نهر من خشب الصندل ، طوّقت خصرها بهواء آناملي وشممت من نافذة صدرها فجرا لنبيذ نائم ثم اتحدنا بالضياء .. ولكن مالي اتذكر الان ذلك الشاعر اللبناني الاثير بحبني ، الطفيح باعجابي في بيتيه النجيبين ، انه أديب مظهر :

وهناك في الوادي غدير تائه مُتَلَفِّتٌ بين الجبال تفورُ
يأتي الصباح فيستحمّ بنوره وينام عند ضفافه الدّيجور

رميت شيئا من شرفة سمائي وهي تتصدع ، وأوجزت :

ـ انت متعبة .. تعالي ..

نظرت الي بذهول ... ثم طفرت عيناها بدمع ، فأخذت بكفها الشاحب ، وكان الطفل ينمو في قلبي والمائدة تبتعد .. !

أواه .. اية جدران من يأس وزجاج هذه التي تقوم بيني وبينها ثم تنهار في لحظة مارقة ليبزغ بعدئذ قمر من لهب البكاء على قارعة طريقنا الموحشة ، فيظلم النهار في صدرينا وينسدل علينا ليل من صمت المعادن ونخدع بربيع من خريف . في المرآة كان ثمة من يهفو الينا .. اتراه طيف الرماد أم ظل الثمر أم الواحة تلتقي بالبحر والصحراء ..!!

ولجت الغرفة وبيدي وردة ثم غادرتها ذابلا وانا أعاتب الابجدية البكر لمراهقة بلا احلام .. واستدعيت على عجل لاقف امام وجهي ، كان

مغضبا وحزينا ومنطويا على نفسه ، قال جلادي الغباري" وهو يحقق معي (واقفا كنت كجرذ ، جالسا كان كأمير) : ـ انت متهم بالحب .. آه .. احترقت لحظتئذ بالنار وعناصر التراب ووهم الحقيقة وفراغ الضحى وغربة الوطن وكنت وحيدا في حجرة الاستنطاق الا من طيفها .

افقت من غيهب التشظيات الفكرية ورؤى الخيال على المسافرة الطهور وهي تهمس :

ـ دعك قريبا مني .. لا تبتعد .. امسكني .. اخاف ان اقع ارضا .. اشعر بدوار ..!!

ردهات ومصاعد وعربات بأجساد مبضعة ورائحة ادوية وعقاقير ومصول ودماء واطباء عابسون بمعاطف بيضاء وافئدة من بنفسج الحنان) وظلام الحجر .. وكنا وحيدين وكان الزمن يمر" كقلب خافت بجانبنا وهي بين الحين والحين تحدق في قدمي الطافيتين على شواطىء من رخام وتتنهد بسكون خائف !!

وهاجر الحلم بلا اجنحة او قطارات ومضى خيال الى يقظتي : ـ ساتسلل في الليل الى معبدها .. نائمة تكون .. اوقظها بدغدغة من شفتي الكتيمتين على خديها الخائفين وستشعر بأن دفئا انسانيا يسري في اوردتها وانا اكتمل بها كعصفور اعمى ..!!

هناك كانت مناضد ومكاتب فارغة بلا آدميين وصيدلية ثلجية ومغسلة لا تتكلم وانا .. وهي .. في غرفة نائية .. قريبة من سماء وحيدة . وكان صمتنا يغالبنا على بوح .. فاحتمينا به على مدافعة الدموع .

وقفنا غريبين في شرفات الروح دون ان نشعر باننا احياء .. ولابد ان جسدها الحزين قد ارهقه التأمل والهواجس السهلة .. ولم يكن بمقدوري ان افعل شيئا من اجلها سوى ما فعلت : امرتني ان اكون ظلها في سفر اختبار الجراحة الى دمشق فاطعت كعاشق لايعرف الا ان يقول نعم . لقد كنت اكابر امامها ـ امامها فقط ـ كرجل قادر على المحبة ومليء بها ، ولكنني في اعماقي كنت منكسرا كآنية من فخار .

وفجأة هب نيلوفر عذب عليّ وهي تدعوني الى ان نحتسي قهوة وندخن ، غير انني استدركت غبطتي وسألتها : ــ ولكن .. من اين .؟ .. وكيف ؟ .. نحن في مستشفى ؟..! هيأت كل شيء في هذه المحفظة . عدة الموت ، وعدة الحياة ، أجابت .. وغزتني بشعاع من عينين يمامتين .. مانعتْ اولا .. ثم طاوعت ..!!

انها ريح الخزامى تعود بنا الى نجد .. صبت فنجانين من شهد مر واشعلت لي سيجارة ولها واحدة ، وجلست بتفكيرها شاردة ..!!

قلت : ــ خائفة .. اليس كذلك .

اومأت براسها السمح ، واردفت : ــ اكره المستشفيات والاطباء اليابسين .. وصمتت هنيهة ثم استأنفت بوحها النادر : ــ وعلى كل انا حفظت بيتا لابي القاسم الشابي اظهرتْ اعجابك الفائق به عندما كنتَ تدرسني رومانسية الشعر العربي من خلال اشهر اعلامها ، لذلك اردده دائما في ذاكرتي واتمثل معناه باستسلام قدري :

جُفّ سِحْرُ الحياةِ يا قلبيَ الباكيْ فهيّا نُجرّبِ الموتَ هيّا

تابعتُ حلمي وانا اتناول قهوتي الصماء : كفٌّ يميد على الشواهق والوهاد .. يهوي القلب في الحمى وتسقط الحنجرة في نبضها الرّعوش « اعطيات .. ونعيمات .. خمائل شقراء .. وينابيع تسيل كفضة مصهورة .. وخمر بلا كؤوس .. وفواكه تنادي على قرب وقريب .. وجسد انثوي .. يتنفس كنسمات ليل صيفيّ بارد في بادية معتقة ... الى أين تعدو بي سفينة الرحيل .. الى أي المحيطات والارخبيلات والخلجان والموانىء الراقدة كبلبل غاف في قفص من رؤى نورانية .. اما زلت في الحلم ... أين وصلت ؟..

واصحو على صوتها يهمس بي : ــ هيا لنسر ..!

امواج..امواج من البشر المرضى والاصحاء.. والزوار..والاطباء.. والممرضات ، ودرج اثر درج ، ومعبر بعد معبر .. ويغلق عليها باب في مستشفى (المواساة) وينغلقُ معه شيء نبيل في صدري يسمونه القلب.. وكان الاجدى ان يسموه النزف ، ..

كنت اقف في الخارج وانا احمل امتعة همومها وقلقها ومصيرهـا المنتظر المجهول المعلوم...، وافكر بأمل : قريبا سيشرق عليها ـ وقد يكون علي ـ صبح ندي بحجم حبها لي ـ وقد يكون حبي لها .. سأراها معافاة كرغيف ناضج ساخن شهي ، أو كأس دسم من الحليب ، طازج وهاتف لفم يكرعه بنشوة ، أو طبق من الفاكهة منوع ملون ، ينادي من يلتهمه ... كذلك تقول القصيدة ، وكذلك يبكي شاعرها بدمع خفي ..!!

سطع الضوء من جسدها عندما خرجت من حجرة المعـالجة ، وفي عينيها الحزينتين شكوك ولهفات وتساؤلات كبيتة .. واندفعت اليهـا عن خريف آن له أن ينقشـع ، ولم تجب .. صـامتين كنـا نتكلم ... وغارقين كنا نسبح ..

أواه ، ما هذا النشيج النـازف يعترينا ويرعشنا من برد ونحن في صيف قائظ .. ويدخلنا في ملكوت حب يائس وتجربة لا تعرف الا ليل الانين وصباح الكآبة .. أواه .. الى متى نحتمل مصيرا باهظا يسرع الينا ، بطيئا ، حثيثا ، معلنا الوصول الى الحافة ..؟!..

انطلقنا الى الفضاء خارج مبنى الآلام .. وتنفسنا شمسـا من ظهيرة حـارقة .. وتهنا في الشوارع الطويلة على غير هـدى ، ويدي بيـدها ، وقلبي ينبض بدقات قلبها ، وكلانا صامت .

ـ هذه مدينة بلا عواطف ..

همست لها وانا احضن كفي بكفها واضغط عليه برفق بين الفينة والفنيـة وأواسيها بضياء كلام مطمئن عن صحتهـا عندما ستجري لهـا الجراحة الثالثة لمرض يتكاثر ويتوالد في احشائها ويمتد منذ خمس سنوات ويهددها في وجودها لكن دون موت .. ثم تابعت :

ـ ليس فيها مكان لعاشقين ..

الى اين سنمضي .. ؟ .. المقاهي لا ترضي طموح السفر ... ولا لهفة اللقاء بعد غياب سديمي .. فجاة توقفت عن المسير .. من تعب ..

واستدرت اليها اتمعن في وجهها المرهق ، وكدت اتوسل اليها الا تبكي . . ذاهلة كانت ومهمومة ومتعبة . . ومثلها كنت . . !

ـ الا تعرفين من يستضيفنا ولو لوقت قصير في هذه المدينة الاسمنتية . . ؟! . .

ونظرت الي باستغراب . . وضحكت ببلاهة . . !!

بعينين من كواكب خضراء قالت : ـ ليس لي ، لاهنا ، ولا في اي مكان آخر في هذا العالم الا انت . . . لا اعرف الاك . . !!

ودرجنا بلا هدف في ظهيرة صيف عربي لافح ونحن متحدان كواحد في جسمين يتنفسان هواء ناحلا وضيقاً وحاراً . وهجست ! ـ لماذا لا نجلس على الرصيف لنستريح ، بعد هذا الشرود في الشوارع والطرقات والأزقة . . . واجابني العقل الساكن بقوة في دماغي . . . ستصبحان اضحوكة . . . نهباً لنظرات العابرين . . ومثاراً لتساؤلاتهم المريبة . . . واطعت ظلام التقاليد وظلمها وخسرت نور العاطفة وصدقها . . وفجاة جاء الطفل الملفع بالأسى يدعونا الى وليمة الدموع وكدنا نستجيب لدعوته ، ثم غبنا في شعاع الغيم والصخب والحر والهدوء المصطنع ، وكان ثمة في الاعماق حب يتأكد ورغبة ملحة في حياة قادمة بلا مرض لامراة من السنابل ولرجل بقلب طفل عجوز ما يزال يحلم ، وذاكرته المهيبة تستعيد مع خياله مقطعاً احبه من قصيدة (والت ويتمان) : « انا لا اعزف للظافرين فقط بل للمغلوبين والقتلى ان النصر حسن ، كما ان السقوط مضرجاً بالدم حسن ايضاً ، فالمعارك يخسرها اصحابها ، بنفس الروح التي بها يربحونها » ، وكان ان ربحت الحلم . . . قبّلتها فيه ، ثم تابعنا خطواتنا ، نمشي كالهمس على حجر الحب . . ونحن نبتسم . . ونتطلع الى الشمس بتفاؤل مريب . . !!

دمشق

صيف ١٩٨٨

حمص

٢ ــ جنازة المدينة

في ذلك الصباح المومىء بو اطر والمشحونة قبته الرمادية بغيوم مبشرة ببكاء ، كنت في القاعة الـ غير اهمس أمام الوجوه الرضية الندية بايقاع أخضر قصيدة ڤرلين (السماء) : « السماء من وراء السطح شديدة الزرقة ، شديدة الهدوء ، ومن وراء السطح تهز شجرة غضبها . الجرس في السماء التى نرى يرن بدعة ، وفي الشجرة التي نرى ينشد عصفور شكواه .. إلهي إلهي .. الحياة هنا بسيطة مطمئنة وهذا الضجيج الهادىء يأتي من المدينة ، ماذا فعلت يا من أنت هناك باكياً أبداً .. قل لي .. ماذا فعلتَ يا مَن أنت هناك بشبابك » .

كانت تلك العيون المتلالئة المستيقظة باكراً من نوم دافىء تحدّق حائرة في وجهي الحزين وتشع ببريق غامض وتتساءل دون سؤال : ــ ما معنى هذا الرذاذ اللفظي الاسيان يتهدج من شفتي هذا الاستاذ البائس الذي يبدو مرهف الحس ، طيب الروح ، يلقي هذا الشعر الغريب ويكاد يبكي ... وكنت اقابل استفساراتهم المبهمة الخجولة بشرح يعمق من تفكيرهم وذائقتهم الفنية ويولد اسئلة جديدة جريئة لديهم .. والغموض كان جسر المحبة بيننا .. وقنطرة التواصل الصامت كذلك .. اذكر هذا بفيض غامر من الحميمية ، أذكره .. لا انساه .. ومن ينسى دماءه البيضاء التي تسيل من جرح غير منظور .

كانت روحي ــ أتذكر ــ محمولة بمأتم دون مشيعين ، على جثمانها ... ترف فوق بحر هاجس من الأمواج البنفسجية المصطخبة .. وخلفها طفولة البراءة الاولى تعدو ... والجوع والمرض والكتب المدرسية القديمة المستعملة المهترئة والغرفة اللبنية شبه المتداعية يقطر سقفها بماء المطر فوق الأسرة النائمة بهلع ، والاب الفقير حتى الادقاع والام اليتيمة تتقبل العزاء بموتي من لا احد ، وتشهد على ثنائية عدمي : موت في الحياة ، وموت في الممات .

امتطيت شهوة الماء الذابل بعد غرور استبدّ به ، والمرجَ النديان الذي استحال الى عشب جاف والسنبل ــ أشقر كان ــ والطهارة المسافرة بحطب النار وبكورة الولادة الأبجدية وجذفت بساعدي المشلولين ، أخوض

وراء نعش روحي الهالكة وهي تلتفت اليَّ فزعة وتهرب مني كأنها نجت من رحيلها الى العالم السفلي وقاربت أفق الكينونة اثر انتشارها الزبدي وتشظيها في الرماد السديمي وخارج الغلاف الجسدي . وكنت كلما دنوت منها آملاً عطفها وناديتها بلهفتي الساطعة . غذّت في طيرانها الارجواني وابتعدت عني كأنها ما سكنت جسدي أزلاً وسرمداً ... هل هي تنكرني ؟! .. ما أقسى الجحود .. ! وفي البحر ، يا لها من صور دامية وكوابيس في شمس النهار ، لم استطع التوقف برهة ، هنيهة ، لأتزود بطاقة الراحة والقدرة على المتابعة .. كانت جباله المائية العاتية أقوى من أن تترك لي ومضة شحيحة من الزمن لأستند الى جذع شجرة طحلبية نمت بعقابيلها الخضراء الضاربة الى القتامة فوق صخرة ارجوانية مضرجة في اخاديدها بالشفق كعمق الوريد .

أوكلت بواقي نفسي الى سراب نفسي لتعتني بحشرجات نفسي ، واسلمت قدري للرياح .. هي الربان وانا الزورق .. وطاطأت على الجراح ، اقبلها واضمدها ، واحنوا عليها وانتظر معجزة برئها .. وكنت في شراهة الخيال ادير حواراً مضطرباً مع ذاتي المخربة ، ارتجل مونولوجا داخليا مع حطامها الهشيم : لعلي انا الأعمى اكتشف طريقاً ، مهما كانت بعيدة لاحبة وعرة ، توصلني الى جثماني . فاعانقه بشغف وابكي بمرارة ناشجة على ضياعه ووحدتي ، يباسه وجفافي .. ولكن عبثاً كنت أفتش .. لقد جرفنا التيار معاً واحرقتنا نار الآلهة فصرنا رماداً متأتيا من جمر الحب الراحل في عذوبة الماضي ولدانة أطايبه وشفافية مسرّاته ... يا الله .. ايها القريب مني .. متى تشفع لي عند هذه الراهبة لتقبلني في ملكوتها القاصي وتنظر الي من خلف نقاب عينيها الخضراوين المشبعتين بلمعان مغناطيسي نظرة الحكم علي بالهوى ، فأخلد الى جنتي واسبح بحمدك واسجد في محراب تراتيلها ، واشكر نعمتك الروحية علي أيها الشهود علي في محنة انتحاري الفافر لمعصية حبي ان شئت ، الواهب لي قلباً يسحّ بدمع الحزن في كل حين يا رب .. !!

كان رجع تلك الذكرى وصداها الحنون في رجفة البرد القرمزي يهيب بي ان اتذكر .. لكني كنت على مقربة محببة من الغرق ، وطوق النجاة الوحيد الذي كان صديقي في مصيبتي الجائية على كفيها هو جسدها

الطيني المتحلل ، والبحر كان يوماً ما .. رفيقي الانساني ، لعله لم يفرط بصداقتي ويقابل معروفي بالاساءة .. الست انا الذي صالحته مع حوريته عندما كانا متخاصمين لأنه عشق اليابسة وخانها مع النار ؟! فلِمَ لا يجمعني الآن بالهاربة من شفاف قدميّ وينعيد السكينة الى رمل كياني المشتت ؟!.. ايتها الذكرى والذاكرة التي لا تشيخ .. لم لا انسى اول مرة قابلت فيها جثماني ...؟ كانت تجلس في المقعد المفرد الأخير من القاعة العاطفية الصغيرة مع سرب الوجوه المغسولة بضباب الصباح تنظر الي وانا اتكلم عن « الرمزية » كرمزي عريق ، بتوسل انثوي لهيف تنطق به مقلتاها وكأنهما تذرفان دمعاً خفياً يئن بنجاوى الروح وترشفه انامل النظرات ويستقر في قاع الوجدان طويلا طويلا .. !!

ثم فجأة ــ هاانذا اتذكر ــ رأيت وجهها الأبيض الضارب الى صفرة حانية خاشعة كانها صفرة الليمون البائت يتشنج ويتفضن والعينين الخضراوين تصبحان بركتين من دموع مزيجة بدماء.. انها لتتألم الما شاهقاً فوق ما لا يطاق ويحتمل وتضغط بكفيها على اسفل بطنها ، كان امعاءها تتقطع بسكاكين من ملح وتتمزق بمدىً من نيران وانها لكذلك فعلا من غير لغة مجازية وبلا اية مبالغة في وصف الحقيقة كما عاينتها ..!

ايتها الذكرى والذاكرة التي لا تخون .. لِمَ لا انسى تلك الصورة التراجيدية ؟! .. لِمَ هي راهنة حاضرة كأنها تحدث امامي ولي الآن : لقد خطوتْ نحوها بقدمين راعشتين وجسم أعزل ، فاذا بهالة من النور النوراني تشع عليّ من جسدها المضيء فأطفو على سحاب واطير فوق ماء .. واذا بي أكاد أهوي بجانبها صريعاً .. شيء لا يمكن ان يُصدق اصابني .. هل هو السحر الذي لا أؤمن به تولاني وحل بي ؟! .. لا ادري رعشة كشفرة الليل وبرقه المدلهم هزتني من نخاعي الشوكي حتى اصابع الأرض وعميق المهاوي ، وقشعريرة برد دمويّ او نفسيّ ، لا اعلم ، سَرَت من يافوخي الى قدمي .. بمن استنجدْ يارب ..؟؟ أستنجد بمن دنوت لأنجدها ... بصريعة بدايات السرطان ، كما عرفت من بعد ؟! . بجثماني الذي يتلوى من آلام تعتصره حتى العظم ، أدرك قسوتها ووحشيتها وجبروتها عندما كانت تداهم أمي في المرض نفسه ، فنقبل ــ نحن ابناءها ، انا الذكر الوحيد واخواتي الثلاث مع أولادنا ــ رخام الغرفة البارد داعين

الاله الاشم ان يوقف بقدرته الربانية هذه المهزلة الباكيـة : تلك الملهـاة السوداء وان يترفق بمخلوقة عجوز مهانة في دائها الرجيم ..

كانت هالة النور قد شرعت تخف رويداً رويداً ، وعادت إليّ ظلمة خوفي على تلك الجالسة وحيدة مرتعدة على المقعد الاخير من القاعة العاطفية الصغيرة وأنا أرتد الى شرحي الغامض لمقومات المذهب الرمزي واتوقف عند احد سادة الرمزيين (مالارمية) في قصيدته (النشور) وارجع في صوت مرتعش يخرج من فضاء الاعماق : « لقد طرد الربيع الشاحب في حزن الشتاء الضاحي .. وفي جسمي الذي يسيطر عليه الدم القاتم يتمطى العجز في تثاؤب طويل .. ان شفقاً أبيض يبرد تحت جمجمتي التي تعصبها حلقة من حديد وكأنها قبر قديم .. » ويتخاطر في ذهني وانا أدلف اليها بعاطفتي وقرابيني المقبولة ودموعي الحبيسة صرخة هذا الشاعر المكتومة « أوّاه ... ان الجسد لحزين !! » .

حدقت في شعاع جسمها الخريفي المتكسر .. واطرقت افكر حزيناً في غروب قريب : لم تكن ناحلة رغم الداء المفترس .. وجهها الآن كان بلا لون .. وتحت عينيها ارتسمت هالتان سوداوان من آثار المرض وافاعيله وجنونه . كانت ترتدي معطفاً برتقالياً او شفقياً .. وهتفت بهمس كالانين (هل يعقل أن يهتف صوت بهمس يئن ؟ ولكن الهتاف كان هتاف الروح العطشى الى نبع المعرفة المخضبة بالعاطفة والشعور ، والهمس كان همس القلب المنعم بحب الانسـان في نسقه العالي ..)

ـ ما بك ؟!

اجابت ، وهي ترنو الي ، كانها تحشرج .. او كانما سماء لهاثها قد انطبعت على أرض صدرها : « اني اموت ... » نطقتها بشفتين يابستين وشحوب صوتي يرعف بالاستغاثة كانما هي حين تتكلم ، تتنفس من خرم إبرة ، ثم أردفت بعيـاء : « من الالم ... » ... واذكر ـ آه ياليـل الذكرى ويا صبح النسيان ، ولكن لِمَ اتذكر ، لم لا انسى ... انني منذ تلك العبارة الناغمة بعطر الموت احببت جثماني ... عشقت ذبوله ، قدست اوجاعه ، وهويت عليه (وانا استرجع صـراخ امي الدامي في ملحمة سرطانها : يا بني انني اموت .. قف على ابواب المساجد والكنائس

واستجد الناس مالا وقل لهم ساعدوني ، سأجري عملية لوالدتي في احشائها الفاسدة ، بهواء ضعفي .

كان أول لقاء بيننا في شتاء ١٩٨٨ والصباح لم يمطر بعد ، ولكنه يشي بوعد وغيومه تبشر ببكاء .. ومدينتي الطيبة الصبور تنتشر في فضائها سموم التلوث ودخان مصانعها يميت احباءنا بمجانية فننوح عليهم بلا طائل ولا نستطيع احتجاجا على نقم الحضارة وآلة المدنية والخوف من شيء اقسى من الموت يكمم افواهنا

شمس شعرها تحت الملفع الرمادي كانت تضيء علي حياتي ـ كنت كونا اعمى فتفتحت عيناي على جمال كالموت ـ وروحها تسري معلي في كل خطوة ، وظلها .. لا .. طيفها يشاركني وحدتي ، وانفاسها على دفتر النهار ، وانا اقترب منها وابصر ما تخط ، تلتهب بأنفاسي ، ومن انفاسها وانفاسي كان عالم من الجراح النيرة والنزيف المتوعد والصمت المهدد بحنجرة من ذهب يتفتح في سكينتي الراكدة وفي ظما روحي الخفي الى حياة جديدة مغايرة ، الى نظام أعلى ، الى اسطورة طيش ضد قتامة العقل ومغامرة عاطفة ضد الاسلبة والرتابة وتراجيديا لها معنى ضد تراجيديا النمطية والتآكل الداخلي والحت النفسي ومجانية الايام وتكرارها السقيم والولع بالرومانسية المريضة وبجلد الذات وانتظار الامل الكذوب الذي لا يجيء ..!!

اذكر ... خلقتها من عدم العدم ... لم تكن تشعر بذاتها أو تكترث بوجودها .. نفخت فيها نور الاحساس بأهميتها ... ومع الزمن استوت ملكة على مملكتها التي هي انا ... وولجت الى ابهاء قصرها الروحي وشاهدتها عرشا تستوي عليه حورية عليلة ضعيفة ، فعشقت دنفها فاثرت لي عالما كان خاويا حزينا مجدبا ، ورحلت بي من ضفة الآلية الحمقاء والعمل اليومي المكرور التعس الى ضفة التجدد والخصب ومروج الفعل والفاعلية ، الى ضالة الابداع ومجهول العطاء ، وعندما اكتملت بي انكرتني .. !!

ايتها الذكرى .. انت دائي ودوائي : ... في طريقي الصباحي الى نخلة الصباح كنت أطأ الحجر الازرق برفق ، حجر العشب القلبي المندى

واخاف من ربيع داهم « انا لست قادرا على حمل همّ جميل » . كنت اهجس مع نفسي .. لكن امطار الشتاء كانت تهمي في كياني ، وخريف العمر يذكرني بالفصل الاخير من ملحمة الحياة ، غير أن صيف الجسد وقيظ الروح طغيا على بقية الفصول ، فتابعت المسير ، وتساؤل جارح يقلعني كشجرة هوت شطرين تحت فأس من فولاذ البرق : ـ اي مصير معروف ينتظرني ؟!.. اي عالم جديد سادلف الى مجاهيله واية خرافة خرقاء اقترف ..؟.. بل اية مهزلة تزحف الي ؟.. ويطول الرماد الصباحي ويطول في طريق بلا نهاية ، واكاد اتراجع وانا متلبس بجريمة الحب وانكص من حيث اتيت ، اعود الى ذاتي الهرمة واشيائي الاليفة ومشروعاتي المؤجلة واحزاني الرفيقة وجسدي الذي نسيت العناية به مظهرا وجوهرا وقصائدي في صورتها الاولى وكتبي التي تنتظر مني القراءة وسهرات الوحشة والقلق في ليل حزين بلا فجر تورق سقمي .... ارتد الى كل هذه الجزر الصغيرة الحنونة المنسية لاجدد صداقتي معها بعد بعاد وافتقاد ، الى نفسي الهلكى لاداوي جراحها الفاغرة بوعود كاذبة ، الى فراغي الاجرد لاملأه بترهات الكتابة واضاليل الشعر وتسكع الشوارع وثرثرة الاصدقاء ، لكن الحنين الى الجذور كان يرجعني ويدفعني الى متابعة خطاي :

« تمشي في المدينة المنكوبة (حمص) بجسد يجري فيه دم رصاصي ، ترى امامك وجوه بشر كابية وسحنا مصفرة ، وتتنفس ابخرة المصانع وانت لاه عما ينتظرك وتعشش في صدرك حرائق سوائل سوداء تنفثها مؤخرات سيارات تحتشد بها الطرق باكثر مما تحتشد بالناس واذا جربت ان تخرج الى الطبيعة القريبة لتستنشق هواء نقيا وتجلس على ضفة نهر عدت بمأساة اشد واثقل ... المعامل خارج المدينة تترع الجو بدخانها العتيد اما ماء النهر بعد ان شاخ وهرم فتعلوها طبقة من زيوت تلمع كانها تحت الشمس المنطفئة ليرات ذهبية او فضية مزيفة ، ولا تجد تعبيرا عن اضطرابك وقلقك الا ان تستل دخينة تقرب بها مصيرك الى ذلك الطاغوت المرتقب يحصد سكان المدينة بمنجله الذي لا يرحم وآلامه التي لا تطاق » فالجثمان في انتظاري وهو يسكن في حي اثري قريب من حي طفولتي المغادر ، طفولة الفقر والعذاب والطين والتيفوئيد والمدرسة الابتدائية

وكتب التعاون المجانية والاعفاء من الرسوم السنوية المعتادة بعد وساطات الذل ... وأصل الى بيتها ، وعلى بابه أقف (أمام الباب المغلق) ، أقف واتذكر فدوى طوقان شاعرتي الحزينة .. لقد دلتني راهبتي (والقلب افضل دليل) على منزلها ... منزل قديم يوحي بذكريات الماضي ، تختبىء في غرفه اللبنية السميكة بواجهاتها الحجرية السوداء والبيضاء وقاعته الواسعة كقبر جماعي افاعي التقاليد والعادات المنخورة البالية المسيطرة بكل رائحتها العطنة الباردة ، همست همسا بالمقرعة الحديدة على الباب الخشبي الشامخ فاذا بالطيف الانسيابي أمامي ، طيف من نسيم وامراة من خيال .. كانت كجنة من الموت وكفردوس من الفناء ، قالت باقتضاب ــ لعل النطق يكلفها جهدا لا تتحمله ــ : ــ اهلا ... جاء المطر في موعده.

دخلت باحة دار الآخرة ، ودرجت فوق حجر ناري اسود وابيض وحيتني بركة مائية في وسطها ، كما سلمت علي اشجار الليمون ــ الاصفر دائما يذكرني بها ــ والنارنج والنباتات الشوكية واصص الزهر والورد بألوانها الندية ، كنت اعتمر قبعة من دفء وارتدي معطفا من اريج واتلفع بلفاعة من لهفة الكشف فطلبت مني والموت يمر من بيننا واحيانا يحاذينا أن اتخفف من دثاراتي . أنت في حضرتي ... قالت .. وأشارت الي بالجلوس .. فجلست على مقعد بلا قوائم وكنت بعد لحظة اعانق صباح احزاني بلا يدين واقبل موتي دون شفتين ، والمدفأة تتأجج بحطب الثلج والقهوة تغلي فوقها من غير لهب ... ومن برد انساني كنت ارتعش .. وكان قلبي قد وصل الى حلقي ثم خرج من حلقومي ، ثم عاد الى مستقره، ثم برعشة اللحظة الفاصلة جحظ من صدري : ماذا تريد مني هذه الجثة الجميلة كالعدم ، بومضها في الكلام ، بعينيها الذابلتين كنور مدلهم ، بجمالها الخاص النائم في سرير الحشرجة ، بلونها الغائب الواني الكليل ، بنظراتها النفاذة الشفافة الكثيفة المخيفة ، بحضورها الجسدي المدهش المذهل باسطورة غيابه الشذي ، بايقاعاتها الناطقة الصموتة ؟..

كنت احتسي قهوة الرعب وادخن سيجارة الوقت وافكر : ــ سأهرب مجددا الى قوقعتي ، اعود الى شرنقتي واحتمي بأعماقي واغلق على نفسي. انت جثتي وجثماني وجنازتي ... ، صافحت فيك يدين من نرجس الحمى وسمعت آهاتك المنغمدة في احشائك دون بوح . انت في الرماد

والرقاد ، وأنا في الطراد والسهاد . الجسر منكسر والينبوع غاض والرحم استنقعت ، وغابتك مسيجة بأسلاك من نيران الماء ، وأنا وحيد اعزل ، وهمومي أرزح تحتها وتطحنني .. حباتي من إبر .. ليس في وجودي الا السأم ، ولا أجرؤ على الصراخ ، أجرؤ فقط على النحيب ... وعلى صدري تقبع مقبرة . بلا طموح ولا أحلام أتطوح في فراغات الساحات مع ازدحامها . الخلق ماتوا ، والفاجعة تقترب حثيثا ، والورى لاهون يائسون ، الارض تصغر وتضيق .. الخلايا في الجسد الواحد تهاجم بعضها بعضا وتتكاثر بجنون سرطاني رهيب ومفزع ، والدمع سخي ولكنه عزيز ، واليد حافية وهي مغلولة والسجن يكبر ويتسع وهواء الحرية بحاجة الى هواء الارادة ليتنفس في صباح مومىء بوعد ماطر وغيوم مبشرة ببكاء ..، والحزن رفيقي ، أنا الخلية الحية والقوة الساهرة والالم الطهور حتى لو كنت ابتسم ، ولا شعاع يقبل أن يضيء عتمتي الروحية ، والجدب في قاع الوجدان ممرع ، واتمنى ضجيجا في دمائي فلا أراه ، وليلا بلا أر ق فلا أقع عليه ، وفجرا بلا هواجس فلا يواتيني وشعرا بلا بكاء فلا أكتبه ، تلك ظلماتي أبحر في ملكوتها ، أيتها البخارطة بلامياه .. أنت بعيدة والموج ملاطم والرياح عاتية وأنا في لجة المد والجزر ، والرجفة تعمدني بنيرانها والصقيع في جسدي يلهب ، والله في انشغاله عني بالوسيم من الامراض قد نسيني وأنا مزهر بنغم الموت ، تتناسل في جسدي مملكة لنبات موسيقي ، ومن مرح أسود أغني ليباسي وأتذكر جسدك العاري يختلج تحت ضعفي فتنفرز سكين الشجن والبلوى والعنة النفسية في أحشائي ، وأنت تسرعين بكيان حزين الى خلاص مقيد مع السيف ، والموج لك صديق ، والرياح مواتية ، وجزر المحيط تستقبلك بالحنان والحنين ، وعلى الشاطيء الغارب تنتظرك رمال من شمس الليل وفقمات غوال ، وبطاريق نادرة تحيي وصولك الملكي ... أنت تمخرين بحرا بلا ماء ... هنيئا لك موتك الحي ، أيتها السيدة المنسية المتذكرة ، وكسهم من العاصفة تندفعين الى فنائك البهي ، وأنا اسبح في يم من طوفان اليأس والخضوع ، وشراع الجسد ممزق لا يستطيع بك لحاقا ، أيتها الرؤومة على المسافات ، القاسية على من يحبك بجنون . التلهف اليك سراب ، والحب مدماة انسانية ، وأنا وجثماني وأنت والبحر ، ومعنا النار : رؤية شعرية وعالم من الشجار والانين والثلج والزمهرير والواقع المحبط اللائب

على خلاص ... والى أين أعدو من ظلي الابدي ؟.. كيف أهرب من شقاء سرمدي جاثم على صدري . أنت لا تفارقين هذه الذاكرة المتعبة لحظة ولا تغادرين اليوم المعاش هنيهة ، أنت دائمة الحضور ، دائمة الشهادة ، دائمة الحساب ، دائمة الولادة ، أحمل صليبك في مسيري وقعودي وفي شهيقي وزفيري ، في يقظتي ومنامي ، في بسمتي وتقطيبتي، داء أنت أكبر من دائك ، الشفاء منك مستحيل استحالة شفائك من مرضك اللدود ، أنهكت قلبي ودمرت وجودي ، وأغلقت علي العالم ، أنا الاطهر من الورقة والازهد من الماء ، ترفقي بي أنا اللحن الباكي دون عبرات ، خذي بيدي فأنا المريض لا أنت ، انقذيني من هلاك ينتظرني ، اعطفي على وجعي المكابر ، فاجئيني بلقاء نموت فيه معا ، وبنعش واحد وجناز واحد ، أشيعك وتشيعينني ، وفي قبر واحد نتعاون لنسجي فيه جسدينا ، أقصد جسدنا الواحد ونفرح بسعادة العناق الابدي الواحد .

كانت قهوة الدم قد بردت دون أن أرشف منها الا رشفات ، ومرمدة الدخائن امتلأت بفتات الروح ، والاحتراق أضحى جنينا ممسوخا ، وأنت في حضرتي صامتة كعذراء في كنيسة الاسى وأنا شاهق بالندم كالذكرى ، وليتني لا أتذكر قسوتك وجماحك، جلساتنا الودودة الرعوشة بثمار الموت والحياة ، الشتاء العدو حيث اندفاعك ينكص الى كراهية ، والسفر يؤوب الى اقامة والحب يغدو ذبيحة ، وحيث قمت من مجلسي على مقعدي الذي لا قوائم له ، وخرجت من غرفة الفجيعة بعد أن ارتديت معطفي لاتدفأ من برد صيف العواطف العابرة ، واعتمرت قبعتي لاحتمي من شواظ الشمس التي سرعان ما أفلت وتلفعت بملفعتي لاقي عنقي من سكاكين القطيعة وغادرت دون رفة وداع ، ومن غير أن يمشي جثماني في جنازتها أو تشيع جنازتها جثماني ، وكنت بلا جثة وأنا أردد مقولة رمزي الرمزيين (بودلير) : « يالشيطان الحب ، انه يخلد أحقادنا الى الابد » وأنتحب بمرارة كطفل جائع جف حليب أمه ، على المصير الذي آلت اليه نفسي .

كان ذلك في صباح لا ينوميء بوعد ماطر ، ولا تبشر غيومه ببكاء، وكنت أنا وأنت (أيتها الحديقة الذابلة التي تذكرني دائما بالام الرؤوم الراحلة) نحاول أن نحيا مجددا ونعيد معنى الماء الى الماء ، وحقيقة النار الى النار

وفقه الحب الى الحب ، ونغني غناء قلبيا عذبا رهيفا لمدينة تشع بهواء صاف وتسطع عليها شمس من مودة العيش على الرغم من ذلك الداء العياء وآلامه الفاشية ونحن نردد بشغف كبير وعميق بالوجود مع (رامبو) هتافته الانسانية الجميلة « العالم طيب ... اني ابارك على الحياة » مع الوجوه الرضية الندية في تلك القاعة العاطفية الصغيرة الدافئة بأنفاس الورد الشاب ، حيث يجلس القلب امام الملامح الشابة التواقة الى الدرس التحصيل ، على مروج من خضرة الترقب ودفء الشوارع في المدينة المستيقظة من نوم ثقيل ينتظره خارج الشرايين المباحة والدم الكئيب .

حمص ـ شتاء ١٩٩٠

٣ ـ مملكة الشعاع

في شارع رمادي كنا ندرج ببطء ... مسافة موت تفصلنا ... والطفل ذو السنوات الثلاث يمشي في الفراغ بوجل ، وقد أمسك بيدي ويدها كيلا يضيع في زحمة ضلالي وغابة هواجسها ، وكان رابعنا الصمت ، وكان يسير الهوينا هو الآخر على ايقاع موسيقا جنائزية احتفالية جليلة ويبكي بضوء أسود .!!

صباح داكن اذكر .. ورياح لاوية وغبار في الصدر يمتزج بإجهاشة مكتومة .. والطريق يفضي الى نهاية مأساوية ، وفي النفس جزع والروح تعبى واللجن كئيب ، وهناك في الاعماق أسى طويل وجراح غائرة وليل بلا آخر وذكريات كنبض القلب .. تلك هي سريرة المعلن وباطن الحقيقة ، تلك هي الصفحة الاخيرة من كتاب المحنة ... وعلى الحجر الذي نطأ ، كنا نطأ بعض عمر هو الذروة في العمر ، ونحمل تاريخ صليب هو الانبل بين الصلبان ونقاسي وحشة عذاب هو اشجى العذابات واسماها .

ليكن ... انه قدر الزنابق يجف ويذبل بعد تفتح ونضارة وزمن السكون العاطفي وبرودة المفاصل بعد شباب الاحاسيس ونداوة المشاعر ، وميقات الفجيعة يدق دقته النهائية في ساعة الابد .

كانت بجسمها الضاوي تحدق في الفضاء ذاهلة بلا معنى وتنظر الى العمارات الشاهقة في الخارج وتسقط في قرارة بئرها السحيقة الجافة الى داخلها بونى ، وبين الآونة وشقيقتها تلتفت الي متوسلة ان امنحها رنوة فأشيح بوجهي الصارم عنها ، فتعود الى ذاتها لتسترجع ذكرياتي النيرة معها .. ادري ذلك . لانني في دورتها الدموية اعصف ، وفي كيانها التهب ، واعلم أن سيف الندم قد غاص في احشائها الفاسدة حتى الصميم؛ هي الجاحدة للحب ، الغائرة في كهفها النفسي المعتم ، المستسلمة لطوفان يأسها ، النافضة يدها الا من التفكير في مصيرها الحافي . الناسية شمسا اشرقت عليها من عالمي في عقر ظلمتها واعتقتها الى الهواء والنور والظل والماء لتعيش ككائن معافى !!

كنت اسير ... وادرك الى اين سأتجه ، لقد اتقفنا أنا وهي دون كلام على الخاتمة ، فقد انتهى الفصل الاخير من الحكاية الدرامية ولابد ان تسدل الستارة على دموع وان يخرج النظارة من هذا الكون المسرحي وهم باكون .

كان الكائن الساكن في جسدي المتوسد في روحي يسترجع ثلاثة شتاءات مرّت عليه واغرقته بفرح نادر وحزن مقيم وهلع من مفاجأة المضمر الغائب ، وعندما هَمّ الشتاء الرابع بالقدوم كان الربيع بخضرته وضيائه وخصبه وعطائه قد استوى سيداً على عمر جديد واميراً بغبطة ملائكية .

هادئين كنّا في خطونا ، وبيننا كان الطفل يبكي وينتحب . لقد غاضت جنته وتحطمت العابه واضحى وحيداً منبوذاً بلا أب ولا أم بعد ان نسيا العناية بتغذيته وانشغلا عنه بترهات الحياة ، وها هما الآن يهدهدان نشيجه الراعف بكلمات مفعمة بالأنين ويُمنيانه بنزهة لن تتكرر ويَعِدانه بسعادة سريعة لن تنسى .

وطال الطريق علينا وطال ... نحن الأربعة : . انا وهي والطفل والصمت .. وقبل أن نتجاوز حدود المدينة قابلنا صديق مشترك ، حيّا بشوق ولهفة وكان الليل قد انسدل على قلبينا كما انسدل على الطبيعة العاصفة ، وسأل بودّ : ــ اين منطلقان ؟.. : صوت واحد راعش مكسور

متهاوٍ باكٍ بكاءً نازفاً بطلب الرحمة والنجدة ، أجبنا : ــ الى المقبرة لندفن طفلنا . . !! . . جحظت عيناه من دهشة وهتف مستغرباً : ولكنه حيٌّ أيها الغبيان . . . هل جننتما . . عوْدا من حيث أتيتما واعقلا . . . ؛ وبصوتٍ واحد راعش مكسور متهاوٍ وباكٍ بكاء نازفاً بطلب الرحمة والنجدة رددنا : ــ اجل . . إلاّ انه مريضٌ ، ولا أمل إطلاقاً بشفائه . . . هزّ رأسه ، وقلب شفتيه وودّعنا وغاب في جوف المدينة ، حزيناً حانقاً على جريمة سنقترفها .

كان الظلام بارداً والمقبرة نائمة وحرّاسها يسهرون مع الموتى والطفل يمعن في البكاء ويرتجف من الصقيع ونحن نمعن في الصمت ونرتجف من هول ما سنرتكب من جناية .

لم يكن معنا فأس لنحفر قبراً إلا أظافر أيدينا واستكبارنا وتأبّينا وكبرياءنا الفارغة ، بدأنا عملنا الجنوني وكنا نشعر أنّ التراب مبلل ، ولم تكن السماء تمطر . . كانت دموع الطفل قد رطبت الأرض وكأنه كان يستجدينا الا نئده فهو ذكَرنا الوحيد في سخاب من الاناث العواقر . . كنتُ انظر إليها من تحت هدبي في الليل الذاهب نحو احزانه دون ان استطيع رؤية ملامحها ، وادري انها كانت تنظر إلي بكل جسدها من تحت نقاب عينيها الخضراوين الذابلتين كأنني كنت أستحلفها الا تجهل وكأنها كانت تتوسل إليّ ان امسك عن جريرتي والطفل بين أيدينا يختلج من رعشة الخوف ، وعندما كاد يلفظ انفاسه الآخيرة من شدة البكاء وقسوة الرعب وهو في غرغرة الحشرجة ونحن نهمّ ان نسجيه في القبر ، إذا بكوكب رهيٌّ من الشعاع الانساني يضيء علينا عتمتنا السخية بهالته النورانية وينتزع الطفل الذي ما زال حيّاً من مثواه الضيق ويحضنه بعطف ويقبله بحرارة . . . هنا أصابتني رعدة وقشعريرة وخشوع وضراعة ، نظرت حوالي . . . لم أجد طيفها بجانبي . . تركتني مع الطفل وحيداً بينما كانت هالة النور تتسع وتتسع لتغمرني بصباح جديد لأنثى جديدة بلا مرض ، وحب قادم نعيشه معاً حتى الممات . .

خرجت من المقبرة بخطوات فرحة والطفل بين ذراعي وأنا الثم وجهه الباكي ، ورحت استحث مسيري حتى وصلت المدينة سعيداً منتشياً بالأعطية التي منحتني إياها الرعاية الالهية، وإذا بطيفها يطبق عليّ وينعيد إليّ احزاني الراحلة ، وفجأة راحت ابيات إبراهيم ناجي في قصيدته « الناي المحترق » تلاحقني :

أهيمُ وحدي ومافي	الظلام شاكٍ سوايا
أُصيِّر الدمعَ لحناً	وأجعل الشعر ... نايا
ما أتعس الناي بين	المنى وبين المنايا
حتى يلوح خيال" ...	عرفته في صبايا
يدنو إليّ وتدنو	من ثغره شفتايا
إذا بحلمي تلاشى	واستيقظت عينايا
ورحتُ أصغي وأصغي	لم ألْفِ الا صدايا

وعندها غشيني الحزن من جديد ... لكنّ مملكة الشعاع اسرعت إلي وضمتني والطفل الى صدرها الحنون وانقذتنا من انين الظلام ورحنا نمشي ثلاثتنا في طريق الفرح الانساني .

حمص ـ أواخر أيار ١٩٩١

* * *

عن وزارة الثقافة يصدر حديثًا

مغامرات هكلبري فين

روايات عالمية (٣٥)

تاليف
مارك توين

ترجمة
موسى عاصي

* * *

الشجرة التي تميل نحو الأرض

مجموعة شعرية

من الشعر العربي (٩)

سعد حداد

آفاق المعرفة

نافذة على العالم

ترجمة واعداد :

كمال فوزي الشرابي

ملف ... أيام الثقافة الاسبانية

عرس .. للشعر في زمن الغازات الخانقة

سليمان العيسى

فلسطين في الشعر الاسباني

د. محمود صبح

بصمات عربية عند بعض شعراء القرن العشرين الاسبان

بقلم : خاثينتو لومت غورخه

ترجمة : رفعت عطفة

العربي وحركة التعاطي مع ما هو عربي في الادب الاسباني المعاصر

بقلم : خيسوس ربو ساليدو

ترجمة : رفعت عطفة

مدينة دمشق في عيون شاعر اسباني

بقلم: خواكين بنيتو ده لوكاس

ترجمة : رفعت عطفة

القديم والجديد ، نلتفت الى الوراء كي نتقدم

ميخائيل عيد

نافـذة على العالم

ترجمة واعداد
كمال فـوزي الشرابي

آداب

●● مقـابلة مـع الروائي الأمـريكي دي براديبري Ray Bradbury بمناسبة صدور ترجمة بالفرنسية لكتابه الأخير (الى الغرب من تشرين الأول) عن دار نشر دي نويل ، باريس .

* كمال فوزي الشرابي : باحث من سـورية وشـاعر ، من أعماله (قبل لا تنتهي) و (الحرية والبنادق) .

أصبح دي براد بيري مؤلفاً اتباعياً . ففي مطلع كل سنة دراسية يكتشف ألوف التلامذة ما في روايته (وقائع مريخية) من متع . ولكي يحتفل كاتبنا بعيد ميلاده السبعين ، نشر مؤخراً مجموعة كبيرة من القصص بعنوان (الى الغرب من اكتوبر) ترجمت فوراً الى الفرنسية .

ما هو الشيء الأسوأ من الموت ؟ كاتب بالعدل . تحت هذا الشعار يعود دي براد بيري في ثلاث وعشرين قصة الى حكاية لقاءاته مع اليومي . ثلاثة وعشرون نصاً ، ذات أسلوب لا يقلد ، تهب لنا عطراً من أعجوبة الواقع . فحين يحاول انسان متفائل ان يعارض نهايته المحتومة عن طريق تعلقه القوي بطفولته ، فانه ينتج عن ذلك تناقضات غريبة تفني المخيلة . فمثلا يستسلم براد بيري للمتعة بكتابة حكايات قاسية حين يكتشف نماذج حية : وتبين لنا قصة (التنفيذ) الى اين يمكن الطاعة العسكرية أن تقود أباً وابنه عندما يتقيدان بها تقيداً مطلقاً . و(انك لتتساءل بلا شك عما يفعلونه هنا ؟) هي حكاية مؤثرة عن البر بالوالدين تنتهي بفشل تام يمنى به رجل يستدعي شبحي والديه لمشاركته في وجبة اخيرة بالمطعم . لكن براد بيري غالباً ما يهمل الانسانية المعذبة لصالح المثالية المناضلة . وتتيح هذه القصص فرصة للمؤلف ليدلي بوجهات نظره حول العالم ، والحب ، والمستقبل ، والحلم ، والزمان ، والمكان من دون ما علاقة تناسب او توافق مع المنطق العقلاني . ذلك ان براد بيري ، على الرغم من الطابع الشعري النابض في اسلوبه ، قد وازن منذ عهد طويل ما بين الخيال العلمي المستقيم وبين الأشواك النابتة في طريقه . وبلا مقدمات يدخل روح المرح والدعابة والحنان في حكاياته العاطفية حين يروي لنا (قصة حب لوريل وهاردي) مثلا ، او يقص علينا حكاية (العالم توينبي) بحسب التناقضات الزمنية التي تحلو له ، او يستحضر الارواح في حكاية يغلفها الرعب المخملي كما في (دير الممتنعين عن الكلام) . ويلهو بجميع التناقضات فيستقدم السكارى الايرلنديين لنجدة النبيذ الفرنسي كما في (نخب سيادته) ... وخلاصة القول أن هذا الكاتب ما أن ينتهي من ركوب موجة حتى يعتلي ظهر موجة أضخم واصعب حين نعتقد أنه يواجه الغرق ... ومع أن لديه سذاجة طفل كبير احياناً ، فان الشيء الوحيد الذي يمكن أن « ناخذه » عليه هو سعادته الغامرة في الكتابة للاتصال بالقارىء اتصالا يتسم بالمحبة والعفوية .

من اشهر مؤلفاته : الوقائع المريخية (مجموعة قصص) ، الانسان المصور (قصص) ، فرنهايت ٤٥١ (رواية) ، التفاحات الذهبية للشمس (قصص) ، بلاد اكتوبر (قصص) ، علاج للكآبة (قصص) ، معرض الظلمات (رواية) ، آلات السعادة (قصص) ، أغنّي الجسد الكهربائي (قصص) ، مسرح الفد ... وما بعده (مسرحية) ، بعد منتصف الليل (قصص) ، العمود الناري (مسرحية) ، يوم احد كيفما كان (قصص) ، الى الغرب من اكتوبر (قصص) ، المقهى الايرلندي (مسرحية) ، خمر الصيف (سيرة ذاتية في رواية) ، العزلة تابوت من زجاج (رواية) ، سبع قصص من الخيال العلمي (قصص) ، الدّغَل (رواية) وسواها .

وفيما يلي ترجمة للمقابلة التي اجريت معه مؤخراً :

● او اتيحت لك فرصة اليوم لاعادة كتابة (الوقائع المريخية) ، فهل تكتب الكتاب ذاته تماماً ؟

ـ نعم ، سأكتب الكتاب ذاته ، ذلك انه مزيج من الاساطير الاغريقية والرومانية ، ومن غرامي كطفل بمصر القديمة ، ومما قراته عن غزو امريكا الجنوبية من قبل الاسبانيين ، وبخاصة كورتيث ، ومن بعض مظاهر سلوكنا كأمريكيين تجاه الهنود الحمر . اذ لا شيء من كل ذلك قد تغير في اعماق فكري . واعتقد اننا كنا ، فيما يتعلق بالاكتشافات ، اكثر حذراً عندما صعدنا الى القمر . وسنحاول أن نحمي البيئة لئلا ننقل كثيراً من الجراثيم الى القمر او الى المريخ . ولكن من المحتمل في تلك الاجواء الا نمثل خطراً حقيقياً . وتدور (الوقائع المريخية) حول حكاية هذه الجراثيم . انظر ماذا فعلته جراثيمنا بالهنود الحمر في أمريكا ، وبالمقابل نقلنا من هناك أمراضاً الى أوروبا ... لا ، لا اعتقد ان الكتاب سيكون مختلفاً كثيراً .

●● حين بدات بالكتابة في أواخر الاربعينات ، لمست التقدم العلمي واتخذت موقفاً رجعياً منه . واليوم ، وانت تساند حركة حماية البيئة ، يعتبرك البعض يسارياً . اليس من قبيل السحر ان تغير بطاقة انتمائك من دون ان تغير رايك ؟

ـ كرهت على الدوام الصاق البطاقات على الأشخاص ، مهما كانوا . البطاقات خطرة . حامل البطاقة غير قادر على التفكير بوضوح ، وهو لا يجرؤ على التحول عما تتضمنه . في امريكا ، مثلا ، يوجد لدينا حاملو بطاقات من محافظين وليبراليين . انا لم أشأ قط أن انتسب الى حزب ، بل وضعت نفسي دائماً في قلب النزاع ، الامر الذي اتاح لي أن اكون منفتحاً على افكار الفئتين معاً . فاذا ما سحرتني فئة منهما ايدتها . وجميع الاحزاب ، مهما يكن شأنها ، انما هي مزيج من المحافظة والليبرالية . فالسيرورة التعليمية هي محافظة ـ ليبرالية : يحافظون على المعرفة ، واسس النظام ، ليتحرروا ويبلغوا حرية الابداع . فاذن لا تتناسب البطاقات مع اي شيء . لا انتسب الى اي حزب سياسي ، انا ديمقراطي ، ولكني لا اهتم معظم الوقت بهذه الاشياء . احاول ان افهم الاقتصاد ، مثلنا جميعاً . اعرف بعض علماء الاقتصاد ولكنهم اول من يقرون بجهلهم فيما وراء نقطة معينة . فثمة في ذلك الاحجية ، والرعب ، والتحيز ، والمحاباة ، والرغبة ، والجشع ، وشيء من كل شيء .

● قلت لي انك حاولت ، في ميدان الخيال العلمي ، ان تبقى أميناً مع نفسك .

ـ خذ الخيال العلمي في السنوات الثلاثين الاخيرة ، حتى من غير الرجوع الى بداياته . كثير من الكتاب يراقب بعضهم بعضاً . يؤسسون مؤسسات تنشر نشرات شهرية ، يتشاجرون فيما بينهم ... انا لا اريد أن اتشاجر مع احد . لديّ افكار اريد ان الهو بها في نصوصي ، فاذا لم تعجب البعض فلا بأس ، فليسوا مضطرين الى قراءتي . لن اشترك في نقد برين Brin بهذه الطريقة او تلك ، ولا في نقد آخر نصوص كتبها هاينلاين Heinlein ! ! فله الحق في ان يكتب ما يريده . ولكن ما يزال المرء يرى كثيراً من الحكايات التي تجري في النجوم والمجرات لدى ازيموف Azimov وفي المنشورات المتتابعة لدون Dune وسواه .. هذه الحكايات تزداد ضخامة وهولا . هذا شيء حسن ما دام الناس يرغبون في قراءتها . ولكن يبدو لي أن كل كاتب يحاول ان يتخطى بما تحتويه اعماله من تضخيم اعمال الآخرين . كل هذا الخيال العلمي ما شأنه مع واقعنا ؟ اعتبر الاشياء دائماً من وجهة نظر الاعجوبة اليومية .

ولا يمر يوم من غير ان المس لا احتمالية الكون ، وطابعه العجائبي . فهو مستحيل تماماً ! ولن نتوصل الى حل سره . العلم سيستمر في التقدم. وانا منزعج قليلا وحزين من اجل تقنيي الفضاء حين نظل نرى صاروخاً ينطلق الى الاعلى ، وقد جهز برواصد مكبرة ، لتأمل المشتري وزحل وما وراءهما . يقول هؤلاء الناس : « سنتوصل اخيراً الى اكتشاف سر الكون ، وبدء الزمن » ، ولكنهم يعرفون استحالة ذلك . واذا ما قالوه فلأن عليهم ان يبرهنوا للجمهور أن ما يقصدونه مهم . لا انتظر منهم أن يحلوا هذه الأسرار الكبيرة ، لاني اعلم انهم لن يفعلوا ذلك . ومن المثير حقا ان يفكر المرء في ان مخلوقات بشرية ستذهب ذات يوم الى الاعلى . اريد ان اعود الى سؤالك . من خلال مقابلة أجريت منذ سنوات طويلة مع الممثل لورنس اوليفيه تحدث فيها عن « امنيته الوراثية » وعن تأثير الموروثات والصبغيات لديه . وقال انه حين كان فتى كان يشعر بانه يحمل في ذاته مِدْواراً توازنياً Gyroscope يميل به الى مهنة التمثيل . لم يكن هو الذي قرر ذلك ، بل اكتفى باتباع هذا الميل القوي لديه الى التمثيل . وهكذا اصبح احد افضل الممثلين في جميع العصور . الأمر يتشابه لديّ . فحين كنت في مطلع فتوتي كان شيء ما يشدني الى اتباع طريقي الخاص ، وحين كانوا يحاولون توجيهي كنت اجيب : « كلا ، كلا ، سأغدو تعيساً اذا فعلت ذلك ، سأموت » . فاذا ما اتجه المرء ضد « الامنية الوراثية » فانه يموت . وهكذا بقيت على قيد الحياة وتمتعت بوقتي وعملي .

●● في مجموعتك القصصية الاخيرة مزجت بطريقة مرحة بين الخيال العلمي ، والمروّع ، والبوليسي ، والادب العام . هل فعلت ذلك لتبرهن على أنه لا توجد نوعيات في الادب ؟ .

ـ هذه ظاهرة نتألم منها جميعاً . حين تدخل الى مكتبة تقع على رف وضعت عليه بطاقة « ادب » من جهة ، كما تقع من جهة ثانية على رف وضعت عليه بطاقة « خيال علمي » انني اكره هذا التمييز لاني اعتقد ان كلمة ادب تشمل كل شيء . بلى ، يجب الغاء هذا التمييز . فلو حاولت أن تقارن بين كتاب لا تمكن المقارنة بينهم كتولستوي ، وهمنغواي ، وشتاينبك ، وفيتزجرالد ، وروبرت هاينلاين لاكتشفت ان ذلك مستحيل . لا يمكن القول ان تولستوي لم يستطع كتابة ما كتبه آرثر سي . كلارك ، والعكس صحيح .

●● هل تعتقد أن الخيال العلمي هو فكرة تجارية ؟

ـ كلا ، بل اعتقد انه فكرة انسانية . يضعون مؤلفاً على رف ويقولون : « هذا كاتب خيال علمي ، لنعد الى تولستوي » . حين ذهبت الى انكلترا والى ايرلنده للمرة الاولى ، ومنذ نحو خمسة وثلاثين عاماً ، التقيت بالكثيرين من محبي الظهور . نظروا الي نظرة استعلاء . طلبت منهم فقط ان يقرؤوا القصة الاولى من مجموعتي (التفاحات الذهبية للشمس) . عادوا وقالوا : « يا الله ! لكنك كاتب ! » فأجبت « بكل تأكيد . ولم أكن قط غير ذلك . والآن انظروا الي نظرة أقل استعلاء ودعوني امر » . وهذه هي الطريقة الوحيدة لدعوة الناس الى قراءة الخيال العلمي .

●● من هم الكتاب الذين كان لهم أكبر تاثير في ادبك ؟

ـ كتاب الخيال العلمي اذ كانوا يثيرون فضولي . بين العام الثامن والعام الثلاثين من عمري قرات كثيراً جول فيرن و هـ. ج. ويلز وسواهما ، وكذلك جميع كتاب المجلات . عرفت هايتلاين في التاسعة عشرة ، كان استاذي . عرفت كثيراً من الأساتذة الذين يكتبون في الخيال العلمي : ليست براكيت Bracket ، وادموند هاميلتون Hamilton ، وجاك ويليامسون Williamson ، وروس روكلين Rocklynne وسواهم . وهم أشخاص رائعون كانوا يقرؤون ما اكتبه من قصص في العشرين من عمري وعلموني أن اقترف جميع الاخطاء اولا ثم كيف استطيع ان الغي هذه الاخطاء دفعة واحدة من دون الرجوع اليها ابداً . واليوم عندي سببان للتوقف نهائياً عن قراءة كتب الخيال العلمي . السبب الاول لئلا اقلد الآخرين ، او احاول ان اتفوق عليهم ، ثم لئلا أخاطر بأن اكتشف ان احدهم يستكشف موضوعاً انا في سبيل الكتابة عنه . فذلك يثبط همتي . ولكن تلك في الواقع بلاهة لان المطابقة لن تكون ، على اية حال ، تامة . وعلى هذا افضل ان اظل مع شكسبير ، وتوماس لوف بيكوك Peacock (وهو بالتأكيد احد اعظم الكتاب الانكليز ، ويبقى مثيراً للغرابة بعد انقضاء اكثر من مئة وخمسة وعشرين عاما على وفاته) ، وجورج برنارد شو (اعود على الدوام الى

مسرحياته والى مقدماته) ، واميلي ديكنسون ، وبلزاك (وبخاصة سيرته الذاتية واقاصيصه الغريبة) وجميع الشعراء الكبار ، الكسندر بوب مثلا ، واعود اليه باستمرار . وبذلك أجدد عملي الخاص . وعلى مستوى المجاز علموني أن اكتب بايجاز . وساعدني ذلك كثيراً في عملي ككاتب سيناريو . وكلما قرأ الانسان شعراً أصبح كاتب سيناريوهات افضل لان ذلك يقربه من الصورة ، واقصد الصورة الصافية . واذا ما قرأ المرء قصائد الهايكو اليابانية تعلم أن يكثف في سبعة عشر او ثمانية عشر مقطعاً صغيراً ما يقوله الآخرون في سبع صفحات . واذا ما كتب لي أن أدّرس الكتابة السينمائية ، فسأطلب من طلابي ان يقرؤوا المئات من قصائد الهايكو ثم يكتبون قصائدهم ويجعلون من كل قصيدة فيلماً مدته دقيقة واحدة . وسينجم عن ذلك مسابقة في الافلام القصيرة جداً تؤدي الى نتائج باهرة .

●● ما دمت تتمثل تاثراتك وترفض البطاقات ، هل يخطر ببالك ان تكتب في القريب العاجل كتاباً تعالج به جميع الانواع ؟

ـ **آخر رواياتي وهي** (العزلة تابوت من زجاج) تقترب من ذلك لانها تمزج ما بين الرواية البوليسية ، وعامل التشويق الذي تعلمته من السينما والذي اعبده في السينما المروّعة كـ (شبح الاوبرا) الذي غير حياتي عندما كان عمري خمس او ست سنوات (لا أتوقف عن اداء ادوار رون شاني Chaney) وكل ذلك يظهر في كتابي . خذ مثلا العقدة ، فهي لا احتمالية مطلقاً ، لكن القراء يقولون لانفسهم : « لا بأس ، سنتابع » ، وذلك لكثرة ما تبدو جيدة فكرة شخص يدير ستديو خلف جدار ، بينما يعتبر ميتاً منذ عشرين عاماً ! ولكن كثيراً من القراء مع الأسف لا يتابعون .

●● القصص التي تؤلف (الى الغرب من اكتوبر) هل كتبت حديثاً او على مدى بضع سنوات ؟

ـ هناك قصص قديمة ، وقصص حديثة واكثر حداثة . في خلال عشرين عاماً كان لي جار هو مصور سينمائي . كان مسؤولا عن تصوير (جان دارك) و (والد العروس) و (مناجم الملك

سليمان) الخ . حين بدأ يشيخ أصبح يشرب كثيراً ويتذكر معاركه مع فرقة لافايت في فرنسا ، عام ١٩١٨ ، ضد البارون الأحمر . كان لديه صور عنها . وكانت الأشباح تهاجمه . وقبل وفاته بفترة وجيزة كان يبكي على الالمان الذين قتلهم . وكان الامر نوعاً من انواع الحرب مع نفسه ، ذلك انه كان يحترم القانون الذي يحكم المعارك الجوية . ولقد وجدت من الفظاعة بمكان ان تستطيع الحرب ارغامك على دفع الثمن بعد كل هذه السنين الطوال ! ولهذا كتبت (وداعاً يا لافايت) تحت تأثير انفعال قوي . هذه الأقصوصة كانت في البدء قصيدة . أما قصة (العالم توينبي) فقد أتت من فكرة كنت على صراع معها منذ سنين : لا يمكن المرء ان يؤمن بنهاية العالم ، فهذا أمر عبث ! وهكذا ترى أن من الصعب أن يعيش المرء اليومي على هذا المنوال . اما أنا فأقول إن هناك أملا .

فيما يتعلق بنهاية العالم ، تعلمت درسي الاول عنها ولي من العمر اثنا عشر عاما . كنا أنا واخي نقرأ احدى الصحف ذات يوم ، فوقعنا على عنوان كبير يقول : « ستقع نهاية العالم في ٢٤ أيار ١٩٣٢ ، فنفد صبرنا لكثرة ما كان النبأ مثيرا ! وعلى هذا هيأنا أمر القيام بنزهة (شطائر وكوكاكولا ...) وذهبنا نتسكع ونحن نناقش الطريقة التي سينتهي بها العالم . هل ستقع الارض على الشمس ؟ هل سيحدث طوفان هائل ؟ بدا لنا كل ذلك في منتهى الجمال . وفي نهاية النهار عدنا الى بيتنا وقد أمرضتنا جميع الشطائر التي التهمناها وجميع زجاجات الكوكاكولا التي شربناها . ومنذ ذلك الوقت لم أعد أومن بنهاية العالم . بلى ، نهايةالعالم ستكون يوم موتي . فكل شيء سيختفي . ولن اعرف أين ولا متى ، ولكن في الواقع لن اكون انا الذي سأختفي ، بل انت ! تلك هي لدي نهاية العالم . وهذا ما يجب على المرء أن يقوم بعمله ولا يعطي ضمانات أبدا . واذا ما توجب علي أن أصف سلوكي ، فأنا نصف متفائل ونصف متشائم . المتفائل المطلق هو من يؤمن بشكل أعمى ، الأمر الذي يدل على الحماقة . والمتشائمون ايضا هم عميان اذ لا يرون سوى السواد . واذا قلت ان لي سلوكا نصف متفائل ونصف متشائم فلأني اعتمد أقصى ما أملكه من انفعالات وموروثات ، ولاني أعيش حياتي يوما فيوما واتمتع بها ساعة فساعة . فاذا ما واجه المرء الحياة على هذا المنوال فكل شيء يتم بطبيعته ، ويحصل المرء على ما يبتغيه .

● نصوصك اذن هي نوع من انواع ردود الفعل على الاشياء الصغيرة التي تحدث في الحياة اليومية ؟

ـ صحيح ، واني لأموت ان لم اعمل . المصطلح الصحيح يجب أن يكون « اللعب » اذ لا يتعلق الامر فعلا بالعمل ، فأنا لم اعمل قط في حياتي . لي حياة هائلة لاني عرفت كيف العب معها . لا آخذ الامور مأخذ الجد . والمناقشات الجادة المتعلقة بالادب تزعجني ، وذلك لاني أرى أنه يجب علينا أن نتحدث عن الادب بمصطلحات لهو وتسلية . على الحكاية ان تكون مسلية ممتعة والا فعلام نقرؤها ؟ (الجريمة والعقاب) لدوستويفسكي رواية في منتهى الجدية ، لكن هذه الجدية لا تقدم لك أية فرحة ، فما الفائدة من قراءتها ؟

● في قصتك (العالم توينبي) يحاول البطل تحقيق مجتمع مثالي او يوتوبيا . اليس من الخطر اقتراح نظام مغلق حتى لو كان القصد من ذلك حسنا ؟

ـ حاولت في قصتي ان اقود الناس بالعواطف التي تحكمهم . ان الافكار الجيدة ترفعهم الى الاعلى ، الى انشاء مجتمع ينفتح على هذه الافكار . للرحيل الى الفضاء مفهوم قصصي لا قسري . وفي مشروعاتي للسنين المقبلة قصص وقصائد حول هذا الموضوع . أريد أن يغرم الناس بالفضاء . يجب على الشعب بأكمله ان يريد الذهاب الى الفضاء ، لا أن يصدر قرار في ذلك من قبل الحاكمين فقط . (العالم توينبي) هي حلم انسان ابتداعي يعرف ان احدى الوسائل لتغيير المجتمع هي الحصول على عمارة جميلة . ثمة نوع من انواع الانسانية في أن يعيش المرء في وسط تحف به المباني البديعة . باريس خير مثال على ذلك : وسواء تنبه الناس الى هذا الامر أو لا ، فانهم محاطون بكثير من الجمال الذي يرفع من مستوى انسانيتهم . الى أي حد ؟ من الصعب التحديد ، الا ان الناس يشعرون بأنهم يعيشون في جو حسن ومريح . اذا كان قسم منك يحس انه بحالة جيدة لان حولك ملايين من الازهار اليانعة وكيلو مترات شاسعة من العشب الاخضر ، وغابات ، ومتاحف ، وبرج ايفل ، والشانزليزيه الخ . فانك تنشيء حضارة بدءا من هذا الجمال كله .

يفتتح بطل قصة (العالم توينبي) الطريق بأن يقدم الى البشر كذبة خرافية . على جميع السياسيين الكبار ان يكونوا كذبة كبارا ايضا ، لانه ينبغي عليهم ان يعدوك بمستقبل غير موجود . وجب على ونستون تشرشل ان يقول لمواطنيه : « سنربح . ورغم الدم والعرق والدموع سننتصر . » وفرانكلين روزفلت : « سنبني مئة الف طائرة . » ويحسب المرء ان ذلك مستحيل ، وانه ما من احد يستطيع تحقيقه ، ثم تفاجأ بأنه تحقق . هي كذبة لكنها كذبة ترسي قواعدها ويتبعها الشعب ، لا الحاكمون وحسب بل الناس جميعا ، وهذا هو سحر الكلمات . حين كنت في التاسعة عشرة من عمري كنت مشتركا في فرقة مسرحية. ذات يوم، وفي وسط المناقشات نهضت وقلت : « ماترانا نفعل هنا ونحن في نقاش لا يجدي حول المسرح ؟ لنهيء مسرحية ونؤدي ادوارها حالا ! » . وهكذا اصطف جميع من كانوا هناك خلفي ، فكانني تزعمت ثورة . هذا ما اردت التعبير عنه قبل قليل. من الضروري جدا التأثير في عواطف الشعب لبناء مجتمع . كان يوليوس قيصر يعرف ذلك جيدا . لقد كان ممثلا مسرحيا كبيرا . جميع عظماء التاريخ ، الاخيار منهم والاشرار ، او الاخيار الاشرار معا ، عرفوا كيف يستخدمون هذه الوسيلة . نابليون استوحى يوليوس قيصر . فماذا كانت النتيجة ؟ الرياش الامبراطوري الفاخر الذي هو اجمل رياش في العالم . كل ذلك كان بسبب مجنون حرك فكر الشعب وهو يروي له الاكاذيب . ولقد نجح الى حد كبير . وكانت غلطته الكبرى ان هاجم روسيا . وعلى اية حال كان له بعض المحاسن . و لكنه كان ممثلا مسرحيا كبيرا . والحياة ذاتها مسرح كبير . وإليك الموضوع الحقيقي لقصة (العالم توينبي) : اذا كان المرء قادرا على مسرحة الحياة حول مشروع ما ، فان الناس مايلبثون ان يقولوا : « لقد نجح حقا ! » .

● في الكثير من قصصك ، وخصوصا في روايتك (العزلة تابوت من زجاج) ، نلاحظ تأثير لوس انجلوس . اريد أن أعرف ما اذا كنت تعتبر نفسك ((فلاح لوس انجلوس)) على غرار الشاعر أراغون في روايته (فلاح باريس) ؟

ـ (ضحكات) . هذا ممكن . وصلت الى لوس انجلوس وعمري ثلاث عشرة سنة . كانت اسرتي فقيرة . وكان ابي يبحث عن عمل ، وما

من عمل ! من مجموع السكان البالغ عددهم آنذاك في الولايات المتحدة مئة وعشرين مليون نسمة ، كان هناك من ١٠ الى ١٥ مليونا بلا عمل . نسبة بطالة رهيبة ! وكان معظم الناس يربحون خمسة عشر دولارا في الاسبوع . حين وصلت الى لوس انجلوس كنت فلاحا . لم اكن اعرف شيئا كثيرا ولكني سرعان ما تعلمت . ذهبت الى متحف في زاوية احد الشوارع فاكتشفت ان معرضا للرسوم المتحركة لوولت ديزني اقيم فيه . وكان المعرض يضم أشياء أخرى . كان هناك أيضا هياكل دينوصورات هائلة . وكان المرء في أثناء خروجه من هذين المعرضين يمر بقاعة عرضت فيها لوحات للفنان الفرنسي مونيه Monet . وكنت اتذوق كل ذلك بانتباه شديد .

● في حكاياتك يوجد على الدوام نفوذية بين الموتى والاحياء ، بين الطبيعي وما فوق الطبيعي ، بين الكائنات والاشياء . هل هذا يعود الى تأثير الفيزياء الكمية أم الى ذكريات طفولتك ؟

ـ لا أدري اذا كان ما سأقوله يجيب عن سؤالك : في حدود معرفتي كتبت حكايات وقصائد ومسرحيات عن مؤلفين راحلين اكثر من اي كاتب آخر ، سواء كان ذلك في مضمار الخيال العلمي أو الأدب الامريكي بمجموعه . ففي أحد النصوص يأتي تشارلس ديكنز ليسكن المثوى ـ البنسيون ـ الذي تديره جدتي ، وكتبت في قصيدة عنوانها (اميلي ديكنسون) : « أين أنت ، يا اميلي ديكنسون ؟ تلفظ هرمن ملفيل باسمك في الليل الفائت خلال نومه » ، وهي حكاية حب بين شخصين لم يسبق لهما أن تقابلا ، كما كتبت (المنفيون) حيث الكتاب المريخيون يموتون بينما يحترق الكتاب الاخير . وحولت جورج برناردشو الى روبت Robot أو انسان آلي لأنقله الى أعماق الفضاء ... أنا عاشق مجنون للكتاب والأدب ! وفي حدود معرفتي ما من أحد حيا الكتاب ومجدهم بهذا المقدار .

● منحت همنغوي قدرا آخر .

ـ بلى ، انقذته . ثم تلقيت رسائل من العالم بأسره تقول لي : « شكرا لانك اعدت بابا همنغوي الى الطريق . » وما هو في الواقع

موضوع (فرنهايت ٤٥١) ؟ اعبد المكتبات ، واعبد الكتب ، وابكي عندما تموت . اذكر لي ولو اسما واحدا لشخص وقع في عشق مكتبة . هنا يكمن الموضوع الحقيقي للرواية . وانا بذلك فخور جدا ! كتبتها منذ خمسة وثلاثين عاما وانا معجب بها على الدوام .

● في بعض أعمالك يظهر شكل من أشكال الايمان بالله . الا تعتقد بأن الخيال العلمي ، بمنهجه ذي الدلالة المنطقية وحين يطرح مسألةالوهم، يميل الى ان يكون مصدرا للالحاد ؟

ـ مجرد وجودنا في الحياة يرتب علينا دينا . ليس من الضروري الايمان بآله التوراة ، ولكن هناك مسألة الخلق . نحن موجودون هنا ، ومجبرون عى الايمان بذلك . عليّ التزام ، ويجب عليّ أن أسدد ديني ، والا مرضت . كثير من الناس يمرضون لانهم لا يستطيعون سداد ديونهم . قد يكون هذا في منتهى البساطة . ان يكون المرء استاذا ممتازا ، أو أبا طيبا ، وان تكون المراة اما جيدة ، مثلا . ناشر جيد يشجع الكتاب الشباب وفي الوقت ذاته يعلمهم مهنتهم . هكذا لا يذهب الانسان الى النوم وهو يشعر بأنه مذنب ، ولا يصل الى نهاية حياته وهو يتمتم : « يا الله ! لقد بددت حياتي ! » كل هذا هو الذي يمثل الايمان عندي . خرجنا من المغاور والكهوف ، صعدنا الى القمر ،سنذهب الى المريخ ثم الى سواه من الكواكب . عندي ان كل شيء سيحدث ، والله شهيد على ما أقول ! نحن القسم الحي من الله . ثمة كتاب عظيم عنوانه (مخلصو الآله) ، يقول ، « الله يتوسل الينا ان نخلّصه ، ونحن مخلّصوه » . اذا كففنا عن الوجود ، فان قسما من قدرته يموت في المنطقة التي نسكنها من الكون . ولحسن الحظ ان هذا القسم لا يموت تماما لان اناسا آخرين في عوالم أخرى يردون اليه الحياة كاملة .

● في نهاية المطاف ، هل تعتبر ان هناك كتابا انكلو ـ سكسونيين من تلامذتك ؟

ـ نعم ، سپيلبرغ Spielberg . حين التقيته منذ خمسة عشر عاما وبعد عرض فيلمي (اللقاء بالنموذج الثالث) سألني : « كيف تجد

فيلمك ؟ » وبما انني دهشت ، فقد اجابني بانني لو لم اكتب (آتٍ من فضاء خارجي) لما أخرج هذا الفيلم . ومن جهة اخرى فكلما بعث اليّ برسالة فانه لا ينسى ابدا ان يضيف اليها هذه الحاشية : « هل ماتزال أبي على الدوام ؟ » انا فخور بذلك . وما شككت قط بصدق عواطفه . هناك أيضا ستيفن كنغ King الذي يعتبر من تلامذتي ولم التق به قط ، ولكنه اهداني عددا من مؤلفاته . ومع مرور الزمن أحس بأنني كنت أحيانا افضل الاساتذة : ذاك الذي يظل غير مرئي .

● (جيل ١٩٢٧ من شعراء اسبانيا المحدثين) مقال للكاتب الفرنسي كلود كوفون C. Couffon ، الاستاذ المحاضر في جامعة باريس ٤ ، ومترجم عدد كبير من اعمال الشعراء الاسبانيين .

في منتصف شهر كانون الاول عام ١٩٢٧ وصل فريق من الشعراء الشباب الاسبانيين الى مدينة اشبيلية . كانوا مدعوين من قبل المعهد الاسباني في عاصمة الاندلس ، هذا المعهد الذي يرعاه ماديا المثقف ومصارع الثيران الشهير ايغنائيو سانشيث ميخياس ، للاحتفال بذكرى مرور ثلاثمئة عام على وفاة الشاعر الاسباني الكبير غونغورا Gongora . وكان بعض هؤلاء الشعراء مجهولين مع انهم كانوا قد ابدعوا قصائد جميلة من الشعر الاسباني الحديث . وكانوا ستة : فدريكو غارثيا لوركا ، رفائيل البرتي ، خورخيه غيين ، خوسيه برغامين ، خيراردو دييغو ، داماسو الونصو .

كان غونغورا شاعرا مغمورا في كل من اسبانيا واوروبا ، وكان مزعجا لا تأتي كتب الادب على ذكره الا بايجاز شديد ، متهمة اياه بالغموض المتعمد والزخرفة اللفظية . والقى لوركا محاضرة اظهر فيها ما لدى هذا الشاعر من صور غنائية مبدعة . ومن جملة ما قاله : « توصلوا الى نفي غونغورا ، والى تعمية العيون الجديدة التي عرفت كيف تنظر اليه ، ورددوا على مسامعنا خلال قرنين اثنين : « لا تقربوه ، فهو غير قابل للفهم ... » وبقي غونغورا معزولا كأنه مجذوم جراحه من ضوء فضي بارد ، ممسكا بيده غصنا خارقا ، بانتظار أن تستقبل الاجيال الجديدة كتراث لها موضوعيته ومعنى المجاز لديه » .

اعادة الاعتبار الى غونفورا كانت اذن مقصد المشاركين . وكان البيرتي ولوركا يحفظان غيبا اشعار هذا الشاعر القرطبي ، فانشدا معا (عزلاته) في خلال السهرات الشعرية . وفي مدريد جمع احتفال رمزي الشعراء الحاضرين في كنيسة القديسة بربارا ، حول تابوت كبير يفترض انه يضم رماد غونفورا ليحظى اخيرا بالراحة الابدية وسط الاعجاب والاعتراف بالجميل . وشوهد البيرتي وبرغامين يحمل كل منهما قرنفلة حمراءمتالقة في عروة سترته . وهكذا ولد من هذا الاحتفال ما يسمى بجيل عام ١٩٢٧ . واشتركوا جميعا ، لفترة من الزمن ، في عشق الشعر الصافي . وكما قال داماسو الونصو : « جاء غونفورا ليحملنا على عبادة الصورة ، وليوقظ فينا الطموح الكوني لتطلعاتنا الفنية ، والحقبة الهائلة التي كنا نريد أن توجد بين الشعر والواقع » .

لم يحضر ملتقى اشبيلية ثلاثة شعراء هم : بيدرو ساليناس الذي كان يدرّس في الخارج ، وبيثانته اليخندره المقعد بسبب المرض ، ولويس ثرنودا الذي كان يسكن المدينة ولكنه لم يكن قد اتخذ قراره بالاشتراك مع المجتمعين . وفي عام ١٩٢٧ ايضا ، وفي مالقه ، أسس الشاعر الطابع مانويل التو لاغويره مع اميليو برادوس مجلة (الساحل) التي ستنشر بضعة نصوص اساسية للجيل الجديد .

ورأت سنوات الجمهورية وتلك التي سبقتها مواهب الجيل تتأكد وتتنوع من غير ان تؤثر في متانة الصداقة التي جمعت بين جميع الاعضاء. وكانت تلك حقبة الروائع اذ أصدر لوركا (الاغاني الفجرية ، ١٩٢٨) و (شاعر في نيويورك ، ١٩٢٩ ــ ٣٠) . كما أصدر البيرتي (بحار على اليابسة ، ١٩٢٥) و (عن الملائكة ، ١٩٢٩). ونشر خورخيه غيين مجموعته (نشيد ، ١٩٢٨) . اما بيثانته اليخندره فقد أصدر (سيوف كالشفاه ، ١٩٣٢) و (التدمير او الحب ، ١٩٣٥) ، كما نشر بيدرو ساليناس (مدين اليك بصوتي ، ١٩٣٣) .

وشطرت الحرب الاهلية هذا الجيل الى شطرين بعد أن اغتالت لوركا في ساعاته عنفها الاولى . واستبقى النصر الفرنكوي في اسبانيا ، عن عقيدة ، خيراردو دييغو وداماسو الونصو ، بينما بقي اليخندره طريح الفراش لاصابته بمرض عضال . ونفت الحرب الآخرين .

ولكن ماهو مقدار الابداع والابتكار لدى كل منهم ؟ لن نتحدث في هذا المقال عن لوركا ، فقد كتب عنه الكثير . وعلى هذا سنقصر الحديث على المعلمين الخمسة الآخرين الذين شكلوا هذه الثريا التي لا مثيل لها في تاريخ الشعر العالمي .

رفائيل البرتي

ولد في ليلة عاصفة مثقلة بـ « زوبعة غير منتظرة » من ليالي كانون الاول عام ١٩٠٢ وذلك في پويرتو سانتا ماريا ، وهو مرفأ صغير ينزوي في ركن من أركان القوس الازرق الكبير لخليج قادش . كان البحر رفيق طفولته . ولم يكن يحب الدرس ، لذلك كان يهرب معظم الايام من المدرسة ليشرد مع الطبيعة ويملأ عينيه بالصور البحرية . وعلى الرمال الرخوة للكثبان ، وفي ظلال الصنوبر ، كان يستسلم لسحر « الساعات المتألقة الملأى بالريح والملح » . وفي حضرة الزرقة الواسعة للسماء وزرقة البحر الاقل اتساعا حيث تجري الاشرعة البيضاء القادشية كان ينسى كل شيء. كما كان ينسى كل شيء أيضا حين يميل بنظره الى بوبرتو ريل بملاحاتها البيض التي تعكس في ألق ضوء أشعة الشمس . وحين وجد نفسه منفيا في مدريد ظل يحن الى تلك الايام السعيدة والحرة التي الهمته مجموعته الشعرية المتألقة (بحار على اليابسة) وقد حملت اليه الجائزة القومية للادب عام ١٩٢٥ .

في عام ١٩٢٨ دمرت أزمة اخلاقية وعاطفية هذا الفردوس من التناغم والصفاء . يتساءل البرتي في (مذكراته) : « اية طعنة سيف من الظلام ابعدتني بشكل لاشعوري تقريبا عن النور ، عن الشكل الرخامي لقصائدي الحالية ، عن الميدان الذي لا يبعد كثيرا عن المصدر الشعبي ، عن مراكبي وقنواتي الملاحية وملاحاتي ، لكي تقذف بي في هذه البئر من الظلمات ، في هذه الحفرة من السواد حيث كنت اتخبط في حالة أقرب ما تكون الى الاحتضار ؟ » ... ويتابع : « ما العمل ، كيف لي أن أتكلم ، كيف لي أن أصرخ ، كيف لي أن أهب شكلا لهذه الحزمة من الحبال المتشابكة التي اتخبط فيها ، كيف أصعد من هاوية هذه الكوارث التي تبتلعني ؟ بأن أغطس فيها ، بأن ادفن نفسي في مزيد من الاعماق تحت اطلالي الخاصة ،

بأن أختبىء ، تحت خرائبي ، وقد سحقت أحشائي وتحطمت عظامي . في تلك الفترة ظهر لي كشف ملائكي ، لا بمظهر ملائكة لهم اشكال جسدية تظهر في اللوحات الجميلة وفي التصاوير ، بل بمظهر قوى فكرية لا تقاوم، وقابلة لان تتكيف مع أكثر الحالات اضطرابا واشدها خفاء في طبيعتي . وتركتها تنطلق في اسراب تجوب العالم ، تجسدات عمياء لجميع الاشياء القاسية ، المؤسفة ، الاحتضارية ، الرهيبة واحيانا الطيبة التي كانت في نفسي والتي كانت تطاردني » .

وتؤثر مجموعته (عن الملائكة) في تشاؤمه بطريقة تشبه التعزيم . ففي نهاية النفق المظلم لقصائده ينبثق النور من جديد . وهو لديه ما يسمى بالالتزام السياسي والشعري . ومع معظم أعضاء جيله وهم اميليو پرادوس ، ومانويل التاغويره ، وثرنودا ، وپابلو نيرودا ، وميغيل هرناندیث وكثيرون غيرهم حمل راية الدفاع عن الجمهورية الاسبانية المعتدى عليها . وحين خسر الحرب هاجر الى الارجنتين حيث اصبح منشد النفي . وذكرته مناظر منطقة قرطبة الارجنتينية التي استقبلته بالاندلس مسقط راسه . وحركت العناصر السحرية في الطبيعة الامريكية اللاتينية من اشجار واعشاب وطيور وخيل وثيران موهبته الشعرية من غير ان تلئم جرح البعد الرهيب . وتناوبت اشعاره مشاعر الايمان والامل على ايقاع موسيقي لا يجارى . وأصبحت مجموعتاه الشعريتان (خيالات البعيد الحي ، ١٩٥٢) و (قصائد واغاني الپارانا ، ١٩٥٤) منارتي امل لاسبانيا التائهة الذبيح .

في أيار عام ١٩٧٧ ، وبعد ثمانية وثلاثين عاما من النفي ، وبعد اقامة طويلة في روما ، عاد رفائيل البرتي الى مدريد وفي فمه هذا الهتاف الحار: « ذهبت وراحتاي مغلقتان بسبب الحرب ، والآن اعود ويداي مفتوحتان وممدودتان لصداقة الجميع » . واليوم وهو في التاسعة والثمانين من عمره مايزال له وجه عقاب البحر ولبدة الاسد الفضية ، ومايزال يكتب، ويرسم ، ويصور ، ويستوحي ذكرياته ، وينشد قصائده بحيوية وغوى طفوليين امام مستمعيه المسحورين .

وفيما يلي ترجمة لاحدى قصائده من مجموعته (بحار على اليابسة):

اقذفوا جسمي

اقذفوا جسمي الى المحيط / في الشمس ، كما لو انني
رقعة من شراع ممزق
فجروا دمي كله / ثم ضعوا حياتي لتجف
على ضفة الرصيف ، فوق الحبال .
وبعد ان اجف اعيدوا قذفي / ــ وفي عنقي حجر ــ الى المياه :
ولتبتلعني الى الابد .
دمي وهبته للبحر / فامخري ، يا مراكب ، دمي !
وانا ، هادئا أكون ، تحت .

خورخيه غيين

لا ينسى الذين عرفوه ، وقد تقدمت به السن ، ابتسامته الذهبية ، الارستقراطية، على وجه صاف وعينين لاتخلوان من الخبث خلف نظارتيه، وصوته الطري البلوري لتنظيم عيد في مطعم أو التحدث عن رفقاء جيله .

وهياه صفاء السماء القشتالية ــ ولد في وادي الوليد (ڤالادوليد) عام ١٨٩٣ ــ للشفافية في محبة الارض وعشق المدن المزهوة بالفنون والعمارة .

انهى دراسته الجامعية في فرنسا ، وكان قارئاً في الصوربون من عام ١٩١٧ الى عام ١٩٢٣ ، فاطلع على الشعر الفرنسي وقرأ بودلير واصبح صديقا لپول ڤاليري وقد ترجم بشكل رائع قصيدته الشهيرة (المقبرة البحرية) . ويؤكد داماسو ألونصو : « مايقرب بين هذين الشاعرين وضع عفوي امام الواقع ، وسبر معنى اللذة والتمتع بالاحاسيس » .

في منطقة بريتانيا بفرنسا يحب هذا الشاعر فتاة فرنسية فيفجر حبها في نفسه ينبوعا من الشاعرية ، تنعكس فيه السماء ، ويحاوره هدير

البحر . هنا بدا مجموعته (نشيد) التي نشرت بمدريد عام ١٩٢٨ . وخلال سنوات ، وفي ثلاث طبعات متتاليـة ـ في ١٩٣٦ ، و ١٩٤٥ ، و ١٩٥٠ ـ اضاف الشاعرالى هذه المجموعة قصائد جديدة ، اذ كان يتشوف الى ان يكون مؤلف كتاب فريد . وحين انتهى من الطبعة الأخيرة اصبحت الخمس والسبعون قصيدة الاولى مجلدا سميكا يحوي ثلاثمئة واثنتين وثلاثين قصيدة . وفي خلال هذه السنوات كان خورخيه غيين يدرّس في المنفى الادب الاسباني وذلك في جامعة ويليسلي بالولايات المتحدة .

ومن الغريب ان الطبعة الاخيرة من مجموعة (نشيد) تشكل كلا كاملا ، ووحدة معمارية متماسكة حيث تبدو كل قصيدة حجرا مضيئا اتى ليأخذ بشكل عفوي مكانه في المجموع . وتتلخص الرؤيا الموحدة للعالم في بيتين : **« ان نعيش ، من دون ماشيء آخر ، يكفي : تلك هي السعادة القصوى »** . وتغدو الدهشة امام سعادة الوجود ينبوع غناء : **« دهشة الكينونة ان نغني »** . وهكذا تبدو لنا هذه المجموعة تمجيدا لاشياء الحياة واحتفالا بها في نبضاتها الكبرى او الصغرى ، في أسرارها او شفافيتها .

ولطالما ادعى خورخيه غيين انه يستبعد التاريخ من آفاقه . يقول : « الاعراس المتأخرة مع التاريخ / اصبحت يوما فيوما مكروهة » . ولكن كيف السبيل الى تجاهل صدمة الحرب الاسبانية ، والحرب العالمية الثانية التي تلتها ، والعنف الذي غالبا مايظهر بشكل مجاني في زماننا ؟ فمنذ عام ١٩٥٥ أخذ خورخيه غيين يوجه شعره في دروب أكثر التزاما . وصدرت له ثلاث مجموعات تحت العنوان الكبير (صخب) وهي (مارما غنوم ، ١٩٥٧) ، (من سيلقون بأنفسهم في البحر ، ١٩٦٠) و (على مستوى المناسبات ، ١٩٦٣) فجاءت لتجمع صوته الى اصوات بقية الشعراء المناضلين ممن يصغرونه سنا وذلك في محاربة الفرنكوية والدفاع عن الحرية .

لم يمس النفي هذا الشاعر بعمق لانه كان يريد ان يصبح مواطنا كوكبيا . اعترف لي ذات يوم : « لم يكن النفي لديّ ظاهرة جذرية ، وذلك لاني اجد في كل بقعة من الارض ماهو اساسي : الهواء ، الماء ، الشمس ، الانسان ، الرفقة الانسانية » .

وعاد الى مالقا وقد اصبح شيخاً بدأت قواه تتهاوى . وبقي عليه واجب هو أن يحصل على عطلة من اصدقائه باهدائهم بعض القصائد والترجمات . وهذا مافعله بمنتهى اللطف واللباقة ، كعادته دوما ، من مكتبه الصغير الذي يشرف على اتساع البحر ورحابته كأنه مركز راصد ، وذلك في آخر كتبه التي الفها بعنوان (النهاية) . وتوفي في السادس من شباط ١٩٨٤ وهو في التسعين من عمره .

وفيما يلي ترجمة لاحدى قصائده من مجموعته (نشيد) :

الـوردة

رأيت الوردة : سياج اول للتناغم/المفرق في مستقبليته الهادئة/ المتكامل ، بلا اية رغبة/تهدىء العندليب القاسي جدا في تحليقه/ بين الزغردات المتسارعة والحركات اللولبية/ثم اصبح الهواء كله/ محاطاً بجلال الجدران/مستحيل الصراخ في النهاية !

پيدرو ساليناس

ذكره بيثانته اليخندره في كتابه (اللقاءات ، ١٩٥٨) فرسم لنا صورة عنه في منزله بمدريد . كان يجلس وعلى ركبتيه طفلاه : بنت صغيرة ضحوك تشد له أذنه ، وصبي جاد « يخيّل » على ركبته بلا كلل. كان ذلك في الحقبة الواقعة بين ١٩٣٣ و ١٩٣٨ ، حيث كان يعمل في ثلاثيته الشعرية الكبيرة المهداة الى الحب : (مدين بصوتي اليك) و (دليل الحب) و (النواح الطويل) .

ولد پيدرو ساليناس ، كصديقه غيين ، في مدريد عام ١٨٩١ ، وسبقه بدراسته في الصوربون من ١٩١٤ الى ١٩١٧ . وكما ترجم غيين فاليري ترجم ساليناس مارسيل بروست . ومثله ايضا اضطرته الفرنكوية الى الرحيل الى امريكا ليدرّس في كلية جون هوپكنز ببالتيمور حيث توفي عام ١٩٥١. وكان حب الدعابة يطبع حياته بطابعه . وحين اضناه الشعور بأنه لن يبصر ابدا الاحياء القديمة الغالية في مسقط رأسه ، اكد بابتسامة : « لا اصنع هنا فقط مايعجبني ، بل انهم يدفعون لي لأصنعه » .

وكان القلق الوجودي في الواقع يستبد به . وفي اثناء صيف ١٩٤٣، وبينما الحلفاء ينزلون قواتهم في الجنوب من ايطاليا ، اوحى اليه اشتداد الغارات الجوية وما كانت تصاب به المدن على التوالي من اضرار وتدمير من جراء الحرب الحديثة بقصيدة تفيض بالقلق عنوانها (عدم) . وقد نشرت قبل قنبلة هيروشيما بعام فكأنها كانت تتنبأ بها .

كان بيدرو ساليناس وما يزال لدى الاسبانيين الذين يقرؤونه ويحفظون اشعاره الشاعر الحقيقي للحب ، والمنشد الرائع لـ (مدين بصوتي اليك) وهي مجموعة شعرية ملأها بالبوح والتغزل بالمرأة الحبيبة.

يقول منذ الاستهلال : « **بأطراف أناملك تجعلين العالم يرتعش / تنتزعين منه الاصابيح ، والانتصارات ، والالوان ، والافراح / انها موسيقاك** » . وهنا نجد اننا بعيدون عن شعر الغزل التقليدي ، وعن شعر غارثيلا دي لابيغا مثلا الذي استعار منه ساليناس مع ذلك عنوان مجموعته . وليست الحبيبة هنا ، وهي كائن سحري ، حكاية مثالية يخترعها الخيال الفنائي ، بل هي امرأة ملموسة ، قريبة ، حميمة، تحرك الحياة اليومية وتغيرها . وبحث الشاعر هو بحث عن انا نهمة ومجددة . يقول : « **لكي أحيا لا اريد / جزراً ولا قصوراً ولا ابراجاً / . أي فرح أسمى / من أن يحيا الانسان في الضمائر !... اصفحي عن عذابي احياناً / ذلك اني اريد ان استمد منك / خير مافيك مني** » .

وفيما يلي ترجمة لمقطع من احدى قصائده وعنوانها (عدم) :

انفتح الضريح أخيراً لمن نجوا ، / وقبض الموت على من فروا . / وجدتُ جثتي ، تلك التي أبكيها ، / وجثث الموتى الذين كانوا يعيشون / وقد نجوا من اجسادهم . / صمت كبير في الفراغ المظلم/ غبار هائل من الاعمال ، / مايزال حزيناً ، / غناء مرهق ،جنازة/ بلا شاهد .

بيثانته اليخندره :

مازلت أراه في وسط النور الفامر ذات اصيل صيفي في ميرافلوريس دو لاسيرا حيث كان يلتجيء خلال الاشهر الحارة في مدريد . وكنت قد

ذهبت الى لقائه مع غبريل ثيلايا ورفيقته أمپارو غاستون . كنت انظر الى هذا الرجل الستيني ، وهو يمشي بين أشجار الصنوبر ، بعينين تتألقان بالضياء البحري ، وجبين بارز كأحد الكثبان ، وابتسامة مشعة ، وفهمت التأثير الكبير الذي يمارسه هذا الامير للشعر على جميع الشعراء الاسبانيين الشباب .

كان بيثانته أليخندره يمثل النقاء والضرورة في اسبانيا الفرنكوية المستسلمة لعفاريت الاظلامية والتعسف . وفي الخمسينات لم تولد مجلة في مدريد او في الأرياف الا وكان اليخندره يراسها أو غالبا ما يفتتح صفحاتها الاولى بقصائده . وفي الصمت الظليل من منزله بمدريد كان هذا المريض المقعد يستقبل المبدعين الجدد ويحاورهم ويقرأ بصبر جميع المخطوطات التي ترسل اليه .

ولد باشبيلية في السادس والعشرين من نيسان ١٨٩٨ ، ولكنه نشأ وترعرع في الوسط البحري لمدينة مالقه . وتأثر كبقية الشعراء في البدء بغونغورا وخصوصا في كتابه الاول (أمبيتو Ambito ، ١٩٢٨). ولكنه سرعان ما اكتشف السريالية وقرأ فرويد ، الامر الذي وجه اعماله نحو استبطان الاغوار في النفس البشرية ، ونحو التعبير عن تحرر اخلاقي وجنسي بشكل خاص . وفي عمليه الصعبين (عشق الارض ، ١٩٢٨ — ٢٩) و (سيوف كأنها شفاه ، ١٩٣٢) نقع على مقاطع تسيل كالضوء وتتزين بماسات سود تزيد في سحرها . وكانت تلك المرحلة مرحلة واعية . يقول في معرض حديثه عن ابتكاره بالنسبة الى علاقاته مع السرياليين الفرنسيين : **« لم اعتقد قط بتأثير الاحلام والكتابة الآلية والغاء الوعي الخلاق »** .

وفي عام ١٩٣٢ أصيب بالتهاب في كليته ، الأمر الذي استدعى استئصالها بعملية جراحية ، وحين تماثل الى الشفاء وفي دور النقاهة كتب مجموعته الشعرية (التدمير أو الحب) . وهي نشيد جنسي يتعالى في هيكل الحب الجسدي ، ويزخر بالتماعات تأملية . فالحب ، وهو قوة حيوية للتوحيد بوساطة الجسد ، هو ايضا مجابهة ، وعدوانية ، وعنف ، وجريمة احيانا ، وبمعنى آخر هو قدرة تدميرية . يصرخ الشاعر

امام العري المتألق المباح لجسد الحبيبة : « **تعـال ، تعـال ، ياموت ، يا حب ، تعال اسرع فاني ادمرك** » .

طالت مدة ديكتاتورية فرانكو اكثر من سـواها من الديكتـاتوريات الاوربية ، وكان من تأثير ذلك أن توثقت عرى الصداقة التي ربطت اليخندره بالشعراء الملتزمين كميغيل هرناندث الذي دافع بشجاعة عن ذكرى بيثانته واعماله ، وبلاس دي اوتيرو وغبرييل ثيلايا .. واثر هؤلاء الشعراء في تطوير شعر اليخندره نحو اسلوب اقل ابهامية . وصدر له عام ١٩٤٤ كتاب عنوانه (ظل الفردوس) وهو اعظم كتاب غنائي فيما بعد الحرب ، ويشكل عملا خطيرا ومجددا تتخلله علامات واشارات موجهة الى شباب يختنقون ، ويذكر بأن الشعر الاسباني في الداخل لم يمت وانه يجدر بالشعراء ان يبعثوا فيه الحياة والقوة . ولقد اراد اليخندره من هـذه الدعوة ان يزداد اقتراب الشعر من الواقع اليومي ، وان يناضل الشعراء ضد التجريد جرياً وراء الوضوح ، كما اراد ان يعلن عن ايمانه بالانسـان وقدراته التي لاتحد . وهكذا ولدت مجموعاته التالية : (حكاية القلب ، ١٩٥٤) و (في مجال واسع ، ١٩٦٢) و (عندما يستهلك كل شيء ، ١٩٦٨) .

في عام ١٩٧٧ نال جائزة نوبل للاداب . ولكن صحته كانت متدهورة منذ اكثر من سبع سنوات فلم يستطع التوجه الى ستوكهولم لتسلـم هذه الجائزة . وتوفي صباح الجمعة في ١٩٨٤/١٢/١٤ في مشفى بمدريد . وفيما يلي ترجمة لاحدى قصائده من مجموعته (التدمير او الحب) :

العاريـة

الموت هو اللباس / تراكم القرون الذي لاينسى ابدا ،/
ذاكرة البشر على جسدٍ فريد ، / خرقة ملموسة / عليها يزفر
صدر / وهو يبحث سدىً عن حب / او عن جسد عارٍ.

اويس ثرنودا :

ولد في اشبيلية عام ١٩٠٢ ، وتوفي في المنفى بمدينة مكسيكو عام ١٩٦٣ . كان بلا شك احد كبار الموهوبين والمجهولين في جيل ١٩٢٧ . وتعتبر اعماله مُسارّات حنين أو اعترافات تذمر من عجزه في ان يوافق بين رغباته وواقع العالم المحيط به . كتب خوان غويتيصولو : « منذ ان ظهر كتابه الاول وعنوانه (جانبية الهواء ، ١٩٢٨) ظهرت شفافية الموضوع الرئيس الذي عالجه ثرنودا ، واقصد المعارضة بين العالم الداخلي للفنان والمناسبة التاريخية ، وبين الواقع والرغبة ــ وهوتناقض ولد لدى الشاعر الاحساس الدائم بأنه غريب ، مقتلع من جذوره ،وهذا الاحساس سيزداد اتساعا مع الزمن » .

تغنى ثرنودا بجمالات الجسد البشري وبالمتع المحظورة فاصطدم بالمحرمات والتقاليد الاجتماعية والاخلاقية في مجتمع يحتمي بمؤسسات الزواج ، والاسرة ، والقوانين ، والديانات . وتبنى مفهوم الحرية الكاملة فلم يجد ، حتى لدى الذين يشاركونه ايديولوجيته ، سوى التعصب والعنف القمعي . وصرح بأخوته الى البشر فلم يلقَ منهم سوى الرفض والاستعلاء . يقول : « **ان أمد آنذاك يدي ، كان معناه ان أجد امامي جبلاً يمنعني / وغابة غير قابلة للولوج ترفضني / وبحراً يلتهم مراهقين متمردين** » . وكان يشعر باسبانيته اعمق الشعور ، وحارب ثم نفي في سبيل اسبانيا لم تكن في الواقع سوى أم شرسة . يقول : « **الوطن أم شرسة شحيحة / تتطلب منا العرق والدم والبذار / في مقابل النسيان والنفي** » .

يقول خوان غويتيصولو : « انتصب ثرنودا بكلامه الحقيقي في مواجهة بلاده ومواطنيه ، وظن في السنوات الاخيرة ان اعماله ستسقط لدى موته في هوة نسيان طوعي لتبعث من جديد ، لربما بعد وقت متأخر، وقد تعمقت وتطهرت بين ايدي الذين جعلوا منها ، في حياته ، هدفاً لاحتقارهم وتهكماتهم » .

وما يوليه اليوم الاسبانيون من اهتمام بهذا الشاعر يطبع هذا القول بطابع النبوءة الحقيقية .

وفيما يلي ترجمة لمقطع من احدى قصائده المنشورة في مجموعته (الواقع والرغبة) :

الى مواطنيّ

ولكنكم ترصدون النهار الذي/لن اكون فيه هنا ابداً ./
عند ذاك سيتهاوى عليّ الجهل واللامبالاة والنسيان ،/

ـ اسلحتكم على الدوام ـ كالحجارة ،/لتغطيني اخيراً،كما فعلتم/
مع آخرين اسمى مني ، / رماهم هذا الجهل ذاته / في العدم الكبير.

●● (دروس خصوصية) رواية للكاتبة الفرنسية
فرانسواز جيرو F. Giroud ، منشورات فايار ، باريس .

ـ (اجمل مهنة في العالم) رواية للكاتبة الفرنسية
فرانسواز ڤيرني F. Verny ، منشورات اوليڤييه اوربان،باريس.

كتابان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً بيناً ، ولا يستطيعان ، فيما وراء توافق الاسماء الصغيرة ، الا ان يلتقيا ، ويتعارضا ، ويؤديا معا دوريهما لدى القراء : كتاب فرانسواز جيرو (دروس خصوصية) وكتاب فرانسواز ڤيرني (اجمل مهنة في العالم) . ويفسر لنا العنوانان ماتقصد مؤلفتاهما ان تقولاه : فالاول يتحدث عما تؤكده فرانسوازجيرو، بلباقتها الكريمة ، من ان ما تعلمته وما تلقته انما كان من الآخرين . أما الكتاب الثاني فيقص علينا بشجاعة كبيرة قصة التشكل الطوعي فيالبحث عن هدف . وليس هذا الهدف ، كما يظن القارىء ، بعد قراءة سطحية ، هو القدرة (ماذا بامكان هذه الكلمة ان تعنيه خارج مجالي السياسة والاقتصاد ؟) بل شيء ما كضمان ثقافي ، يعاد النظر فيه على الدوام ويتسم بالمصادفة والضياع والاكتساب . وهو لدى فرانسواز جيرونوع من الغطس وراء الجوهر ، ولدى فرانسواز ڤيرني لعبة روليت روسية للوجود . وهذا يعني بمنتهى البساطة ان الناحية المأساوية هي اقل ظهوراً لدى فرانسواز جيرو .

باهر هذا الكتاب الذي عنوانه (دروس خصوصية) . انه الكلمة التي تقبل ، والشعور الذي يفرض ذاته ما إن يقرأ المرء صفحاته الاولى . فمؤلفته تملك فنا ، ونوعا من العنف المبتسم في ان تلتصق بقرائها ،وان تقيدهم بالاعجاب الشديد والفريد . وتنسب اليها هذه الكلمة : ماهم اذا كان الصحافي موهوباً منذ السطر السادس حين يتركه قراؤه فيالسطر الخامس . ان ذلك لا يوشك ان يحدث له ، فالمأساة المؤلمة لموت اليكس غرال التي تفتتح الكتاب قد قطعت منا الانفاس بحيث انها لاتعيدها الينا الا بعد ان تنتهي جميع الصفحات ، تاركة لدينا أسفاً جارحاً لانها لم تسترسل في الروي ايضا ، وتفسر بمزيد من التفاصيل صورا تبدو لنا خلاقة بسردها حكاية مجلة (الاكسپرس) اسبوعاً بعد اسبوع ويوماً بعد يوم .

ذلك ان الحياة لم تكن قط بخيلة مع فرانسواز جيرو . فهي تعرف كيف تفيد من شتى انواع التعاسة والسعادة ، ومن الاحباطات النسبية، ومن النجاحات الباهرة ، وتستمد منها دروساً خصوصية . تقول : **« الفظاعة في الفقر انه ليس هناك من سبب يدعوه لان يتوقف »** . وتفكر التفكير ذاته فيما يتعلق بكل ماهو سلبي ، مقللة من قيمة او اثر كل مايضعف او يقود الى العجز . إن فرانسواز جيرو لذات تهذيب عذب مستقيم ، الامر الذي لا يجعلها تستبعد العاطفة ، ولا الذكاء ، ولا الارادة ، ولكن تعرف أن تضع القارىء أو الشاهد في مكانه : في مقعد امامي من مسرحية فخمة ، ذات اخراج فني كامل . ولا نشك في ان الكاتبة تتفانى في خدمة الحقيقة مع التباعد ذاته الذي يهبه راسين لابطال فواجعه ، فالابتسامات تخبو ، والتماعات الذكاء تضيع ، والحنانالعميق يطفو ، والسخرية تتوالى ، وذلك كله في التعليق على شخصيات سياسية وعلمية وادبية كالرئيس الاسبق ڤاليري جيسكار ديستان والعالم النفسي لاكان وسواهما .

أما فرانسواز ڤيرني فانها تحافظ على مسافة معينة بينها وبين قارئها . انها تقص عليه من قصصها بشكل مجمل ومباشر ، حتى ليذهب القارىء الى القول ان كتابها مكتوب بطريقة اخرى ، كما لو انه يحوي نوعا من انواع التقارير المتعلقة باصحاب دور النشر واعضائها . اضف الى

ذلك ان الكاتبه تروي لنا قصة حياتها وخصوصا في شبابها وكيف انها تخرجت من الجامعة بدرجة الاستاذية في الفلسفة ، وانها كاثوليكية وشيوعية بكت يوم وفاة ستالين لا لاجل ستالين نفسه بل لانها تذكرت انه كان هناك مدينة مقاومة اسمها ستالينفراد وان الجيش الالماني بقيادة الماريشال فون پاولوس قد ضيق عليها الحصار ودمرها ، وان هذه الهزيمة الرهيبة كانت بداية هجوم معاكس من القوات السوفييتية توج بالظفر ، كما كانت بداية تحول خطير في مجرى الحرب العالمية الثانية ، وكان ذلك كله في زمان الصحافة المغامرة ــ اجمل مهنة في العالم ــ على نمط جريدة (كانديد) وسواها ، وبداية ظهور التلفاز الخ .

مايتميز به هذان الكتابان وما يشد القارىء اليهما هو الصورة الشخصية التي ترسمها كل من المؤلفتين لاشخاصها ، فلكل منهما اسلوبها الخاص بها في ميادين المعارف والصحافة والنشر والسينما والتلفاز ، وتستحقان ان يتابعهما القارىء في مئات الصفحات وان يحبهما.

انباء ثقافية عالمية

● **الكاتبة الامريكية روز بويت** يمكن ان يرد اسمها في مختلف الكتب التي تعالج (الامراض النفسية العائلية) . انها ابنة الرسام لوسيان فرويد ، وحفيدة العالم النفسي سيغموند فرويد . وقد نشرت مؤخرا كتابها الاول وعنوانه (العلاقات الجنسية) ، وهي قلما تتحدث فيه عن الجنس ، وهدفها ان يطالع القارىء كتابها من وجهة النظر هذه . قال لها الصحفي الذي حاورها : « **استغرب ان تكون البطلة مفرمة بابيها ! ؟** » فأجابت روز : « **كلا ، ياعزيزي ، لا يذهبن بك الظن الى هذا الحد ، فانا لم أقم علاقة سفاح مع أبي** » . ورسم الاب لوسيان فرويد غلاف الكتاب، وهو يمثل رجلا وامراة متعانقين بثيابهما ، تراهما يمارسان الحب ام لا ؟ قال الصحفي : « **وماعساه يكون رأي جدك فرويد ؟** » فأجابت : « **لاشك في انه سيشعر بردة فعل بورجوازية ... ولكن بما انه كان يعشق الأدب ، فانه كان سيفكر ان هذه بداية جيدة** » واكمل الصحفي : « **والكتاب الثاني الذي انهيت كتابته ؟** » ــ « **انه يتحدث عن الجنس ... ولكن بشكل اكثر تاكيدا** » .

● **الروائي الامريكي كورت ڤونيڤوت Vonnegut** لا يرى المستقبل وردياً على الاطلاق . انه يراه ابيض ، اسود ، اصفر ، احمر ، الاغنياء فيه مفصولون عن الفقراء ، واصحاب الصحة الجيدة عن الآخرين . كل في سبيله ، والفصل في جميع الاتجاهات . كل ذلك سيحدث في مدة ليست بطويلة ، لربما في حدود العام الفين . وعلى اية حال هذا ما يجري في روايته الجديدة (هنراء Hocus - Pocus ، منشورات پوتنام) ويوجد بطله في السجن حيث قادته مناهضته لامريكا : كان يعلم تلاميذه أن يتهيأوا للفشل دون النجاح ، فالفشل هو الشيء الاكثر احتمالا الذي سيحدث لهم . وبهذه المناسبة نشير الى أن السجون في امريكا هي بأيدي اليابانيين . فقد راوا في شرائها بأكملها وسيلة جيدة لاستثمار اموالهم . وقد ورد في (بروتوكولات حكماء صهيون) اكثر من مهنة تدار على هذا المنوال ... ويعلق الاديب جاي ماك اينيرني على ذلك بقوله : **ليس ما نذكره هو من قبيل الخيال العلمي . ان كورت ڤونيڤوت يتجرا على طرح اسئلة مربكة ، وساذجة ، واساسية عن النوع : لماذا نحن موجودون على هذا الكوكب ؟ ولماذا الحروب ؟ وهل التكنولوجيا مميتة ؟))** .

● **الروائي الامريكي ميكائيل هير Herr اصابه الملل** من كثرة الكلام عن ڤيتنام ، ومن كثرة الرجوع الى آرائه في كل مرة يتعلق الأمر بالحرب . لذا لجأ هارباً الى لندن . وداعاً اذن لروايته عن ڤيتنام (الموت الرديء) ! ومنذ خمس سنوات اشترك مع الفنان التشكيلي غي بيلارت Pellaert في سلسلة من الصور الشخصية لبعض المشاهير الامريكيين ومنهم وولتر وينشل Winchell . وولتر وينشل مجهول تماماً لدى الاجيال الفتية . ففي الاربعينات والخمسينات اقام الدنيا واقعدها في امريكا . كان من احسن المعلقين اللاذعين في الصحافة والاذاعة ولكنه فشل في التلفاز . ولم ينس ميكائيل هير صوته . وسيكون هذا الكاتب موضوعاً لكتابه المقبل ، وقد كتب على طريقة السيناريو ، ثم تحول الى رواية ــ سيناريو . يقول ميكائيل هير : **((بامكانكم تسمية هذا الكتاب سيناريو على شكل رواية ، لانه يقرأ كرواية ، ولكن احداثه**

تدور كفيلم . قد يكون صحيحاً ان تزوّد الرواية بكاميرا . قصة حياة وينشل تستهويني . لربما كان انساناً قذراً ، ولكني احبه لانه يمثل التاريخ الامريكي في تلك الحقبة » .

● **الروائية التقدميةمن جنوبافريقيا نادين غورديمر** Gordimer تميل الى بث الرعب في نفوس محدثيها . يقول احد معارفها : « **انها تتحدث كسكين كهربائية** » ، ويقول آخر « **انها تملك ارادة حديدية** » ، ولديها افكار متصلبة حول ما تحبه ، وتدلي بأحكام نهائية حول ما لا تحبه . انها اكثر الكتاب تنظيماً في عملها . فاذا ارادت ان تتحدث بالهاتف فانها تفعل ذلك في الساعة السابعة صباحاً ، ثم تحتم الا يزعجها احد خلال الساعات الاربع التالية التي تعمل فيها . « **رقابة النفس** » **هي صفتها البدهية الاولى** ، و « **احترام النفس** » هي كلمتها ـ المفتاح . هذه الملامح والصفات هي موجودة في كتبها حيث لا يستطيع ثنائي ان يمارس الحب قبل التحدث والنقاش طويلا حول العوامل العنصرية في الصراع من اجل الحرية بجنوب افريقيا ... وتخالف روايتها الاخيرة (قصة ولدي ، منشورات بلومز بيري) هذه القاعدة اذ يحدث فيها ان يتحاب اشخاص من غير التحدث في السياسة . وقد سرت شائعة قوية في المدة الاخيرة ان نادين غورديمر ستكتب كتابها المقبل بالاشتراك مع نلسون مانديلا .

● **الكاتب البريطاني هارولد بينتر** Pinter يحتفل بعيد ميلاده الستين بنشر روايته الاولى والوحيدة التي كتبها منذ ثلاثين عاماً وعنوانها (الاقزام) ، وهي تروي لنا ذكريات طفولته في الايست أند بلندن . ويعتبر بينتر احد كتاب المسرح البارزين اذ تحظى مسرحياته بنجاح كبير . وقد انشأ وزوجته الليدي انطونيا فريزر نادياً مناهضاً لرئيسة وزراء بريطانيا السابقة مرغريت تاتشر ، أطلق عليه اسم « جماعة العشرين من حزيران » حيث يرى من زواره إيان ماك إيوان ، وجون مورتيمر ، وجيرمين غرير ، ومرغريت درابل وسواهم ... ولاحظ احد الصحفيين الظرفاء : « **ما من احد في لندن يستطيع ان يجمع مثل هذا العدد من الكتاب والمثقفين الأنيقين ما عدا بينتر ... جميع الاشتراكيين حوصروا في قصره** » .

● **المغني الامريكي جيم موريسون Morrison وجه اسطوري .**
كان مغنياً في فرقة « الدورس » وتوفي عن سبعة وعشرين عاماً في عام ١٩٧١ ودفن بباريس . وكان أيضاً شاعراً ، « رامبو بسترة سوداء » . وقد نشرت له دار نشر كريستيان بورغوا بباريس منذ اكثر من عشر سنوات مجموعة شعرية عنوانها (صلاة امريكية وكتابات اخرى) . ونشر صحفي من الرولينغ ستون سيرة عنه لاقت رواجاً كبيراً . وقدمت عدة مرات نسخة منها الى قال كيلمر Kilmer ، ولكنه كان يرجيء قراءتها في كل مرة . وقال كيلمر هو الممثل الامريكي الذي يقوم بدور جيم موريسون في الفيلم الذي يخرجه عنه حالياً اوليفرستون . واخيراً قرا الكتاب ، واستمع مراراً الى الاسطوانات ، وقرا القصائد ، وتمثل تماماً شخصية موريسون . الشبه بينه وبين الممثل الراحل شبه تام . يقول : **« لم يكن جيم موريسون من هنا ، من هذا العالم . كان يقوم بزيارة لنا من كوكب آخر ... كان يعتبر حياته حياة شاعر ابتداعي ماساوي . اما انا فلست سوى مجرد ممثل »** .

● **الروائي الاسباني ادولفو بيوي كاساريس Bioy Casares**
لديه انطباع بأنه « ولد امس » وانه سيموت « اول امس » . وهي طريقة يعبر بها عن السرعة التي يستشعرها لكتابة روايتين واربع عشرة قصة تدور احداثها في راسه . ويعلن عن رعبه من الموت . يقول : **« موت بورخيس جعلني أشعر بأنني خارج الواقع . لا يمكن المرء ان يتهيأ للموت . وما من شك في أن الادب طريقة لتجاوزه »** وحساسيته مرهفة تجاه السلطة منذ ذلك اليوم الذي سئل فيه بالمدرسة سؤالا في الجبر لم يستطع الاجابة عنه ، الامر الذي جعله عرضة لكل انواع الاغاظة من قبل استاذه وهدفاً لضحكات رفقائه . يقول : **« لا اتعاطف مع اي شكل من أشكال السلطة »** ، ويعني بذلك حتى السياسيين والاطباء . **« والكتاب ؟ »** ـ **« اكون عاجزاً تماماً عن ممارسة مهنة الكتابة »** . ويؤكد بانه عندما كان لفترة من الزمن رئيساً لفريق في كرة القدم لم يربح فريقه قط . حصل في نهاية العام الفائت على جائزة سرفانتس وهي اعظم جائزة ادبية في اسبانيا .

● **الروائي والقاص البريطاني دجي. جيه. بالارد** Ballard
عمره ستون عاماً اي بعمر البيت الذي يسكنه منذ ثلاثين عاماً في شيبرتون الى الجنوب من هيثرو بلندن . أسرّ الى جون كلوت قائلا : « **ان تعلم انك تسكن منزلا بعمرك تماماً شيء يثبت وجودك** » ... الستون في عمر المرء امر مركب أكثر من الخمسين ، وتختلف كثيراً عن الاربعين . واأسفاه ! ان جميع الناس يملكون عن بالارد صورة بالية منذ عشر سنوات ، وان تفاجئه صورته في واجهة قد يكون احياناً شيئاً قاسياً . وكان قد تحدث في قصصه منذ أوائل الستينات عن سخونة الارض ، والقمر ، والتلوث ، أي عن كل ما يملأعناوين الصحف اليوم . وقدنشر مؤخراً مجموعة قصصية عنوانها (حمى الحرب ، عن منشورات كولينز) ولعل فيها أيضاً تنبؤات . وفي القصة التي تحمل عنوان المجموعة يرى بيروت مسرحاً لحرب تشكل متنفساً وتخفف من شدة الضغط العالمي . ونشوب حرب عالمية ثالثة قصيرة قد يسهم ايضاً في تثبيت العالم الذي يتفتت . « **وقصص (حمى الحرب) هي قصص خيالية ـ واقعية على طريقة اميل زولا وهي تعالج وقائع ولا تتضمن رموزاً ولا مجازات** » .

● **الشاعر والروائي الامريكي هنتر إس . طومسون** Thompson
اتهمته ممثلة امريكية سابقة تمتهن الدعارة بأنه استعمل معها العنف ، وكان يخشى عليه من حكم بالسجن يصل الى خمسين عاماً . واصدرت محكمة ايسن في ولاية كولورادو حكماً ببطلان الدعوى . وكان من تأثير هذا الخوف في نفس الشاعر ان الف كتاباً يروي فيه على طريقته وقائع هذه الدعوى ، واعطاه ثلاثة عناوين هي على التوالي (انشودة القدر المشؤوم / المزيد من الملاحظات على موت الحلم الامريكي / المجلد الثالث لاوراق غونزو ، عن منشورات ساميت بوكس) . وتفوه طومسون بشتائم ضد الشريف الذي جاء لاعتقاله ومعه خمسة من معاونيه : « **هؤلاء الوحوش الحمقى الذين حاولوا ان يدمروا حياتي** » . وطالب بأن ينشنقوا من اقدامهم ، وان ترمى عظامهم الى الكلاب . وهاجم المدعي العام فوصفه بأنه « **قميء داعر ، وانه اكثر غباء من تسع دجاجات ...** » ولحسن الحظ ان هنتر إس . طومسون الآخر موجود وهو « **بطل ، وقديس .. وشاعر غالباً ما يقدم رؤى قيامية في قصائده** » . وترى صحيفة الرولينغ ستون « **انه يجب أن يكافأ بجائزة نوبل للسلام .** » .

آفاق المعرفة

ملف...

أيام الثقافة الاسبانية

عرس .. للشعر

في زمن الغازات الخانقة

سليمان العيسى

فيديريكو غارسيا لوركا !

ايها اللحن المبلّل بالدم .. الشارد على شطآن الحب والجنون ..

ايها « الشجرة » الباسقة .. العربية الجذور .. الاسبانية الظلال والأغصان ..

انت مدعوّ معي الآن .. الى حفل رائع ..

الى عُرس الشعر .. لا الى ((عُرس الدم))(١) ..

أيها الشاعر الذي امتزجت في حياته أعراس الدم .. بأعراس الشعر .

مدعوٌ أنت .. ورفاقكَ الإسبان .. ضيوفُ دمشق الآن ..

أرجو أن تقبل الدعوة .. أنتَ ورفاقكَ الأعزاء ..

لا تتردَّدْ .. فما أعرفك ترددتَ في اصطيادِ اللحظةِ الخصبة النادرة..

ستشاهدون أمتعَ وأحلى ما يشاهده ضيف في احتفال ..

لا تتردد .. إنهـا فرصة تنفض عنا صدأ الحيـاة .. وغبار الضجر والفراغ .

كلُّ ما عليك ، يا شـاعري المبدع .. كلُّ ما عليكَ أن تطويَ الزمن ..

وأن تعود معي خمسةَ عشَرَ قرناً .. الى الوراء .

العرس يا شاعري .. عرس الشعر .

والزمان .. عصر الجاهلية ـ كما تعودنا أن نسميه في تاريخنا الأدبي ـ

والمكان .. قلب الجزيرة العربية .

● ● ●

ويفتح لوركا فمه في دهشة :

عرسُ شعر !

وخمسةَ عشَرَ قرناً الى الوراء !

نَحْضُره الآن .. أنا وزملائي الإسبان ؟ ..

واجيبه : نعم .. هيَّا .. ولا نُضع دقيقةً من الوقت !

● ● ●

وتفرش قصيدة من قصائد ((المُعلَّقات)) جناحَيْها لنا ..

و ((المعلقات)) مراكبنا الفضائية القديمة ..

وبلمحة عينٍ .. تطوي بنا القرون ..
وتحطّنا بين مضارب قبيلة بكر ..

● ● ●

الفرسانُ على صَهَوات جيادهم .. يلعبون لُعبةَ السيوف ..
وصبايا القبيلة كلهـا .. والقبائلِ المشاركة فيالاحتفال .. يرقصن بالدفوف والمزاهر .. ويملأن الجو زغاريدَ وأهازيج .. والولائم قائمة على قَدَمٍ وساق ..

وفجـأةً .. يَبْرز من الحشـد شاعر عربي أسمر ، في عنفوان الشباب ، يتوسط الساحة ، وينشد ، فَيُنصت له الجميع :

« لخولـةَ أَطْـلالٌ بِبُـرْقـهِ ثَهْمَـدِ »
« تَلُوحُ .. كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ »

وتبتسم فتاةٌ سمراء ، كانت تقفُ غير بعيـدٍ منه ، وتحمرُّ وجنتاها خجـلاً واعتزازاً .. كانت هي خَوْلة .. التي افتتح الشاعر الشاب قصيدته باسمها ، وراح يتابع ، والأنظارُ مشدودةٌ إليه .. مُعلّقةٌ بما يقول :

« إذا القومُ قالوا : مَنْ فَتىً ؟ خلتُ أنني »
« عُنِيتُ .. فلم أكْسَـلْ ، ولم أَتَبلّد »
ولسـتُ بحلاّلِ التـلاعِ مخافـةً
ولكنْ متى يَسْترفدِ القومُ أَرْفِدِ
« انا الرجـلُ الضَّرْبُ .. الـذي تعرفونَه »
« خَشَاشٌ .. كرأْسِ الحَيَّـةِ المتوقدِ »
« كريـمٌ .. يـروّي نفسَـه في حيـاتِـه »
« ستعلَمُ إنْ متنـا غـداً .. أيُنا الصدي ! »

ويمسك لوركا بيدي .. ويهمس في أذني مأخوذاً بالمشهد :

ما هذا ؟ .. إني أكاد أعرفه .. ما اسم هذا الفتى المارد الذي يتفجّر حيوية، وشعراً، يملأ إيقاعه كياني .. ؟ إني أكاد أرى نفسي فيه.

واوشوش صديقي الشاعر الاسباني العظيم قائلاً :

هذا الشاعر الفتى ، هو الذي تحتفل به القبيلة الآن ، ومعها وفود القبائل من شتى بوادي العرب ، يقيمون له هذا العرس الذي تراه ..
اسمه طَرَفة .. طَرَفة بن العبد ..
وهو كما تراه .. يتفجر عنفواناً وشعراً وشباباً .. مثلك تماماً .. عندما كنت ترسل قصائدك .. فتنتشي بساتين غرناطة ، وقباب الحمراء .. ولكنه .. لن يلبث أن يتمرد على كل ما حوله ، ومن حوله.. كما تمردت أنت .. وينطلق في هذه الصحراء العربية ، ينشد حريته التي لا يعرف هو نفسه أين تبدأ .. وأين تنتهي . ومثلك تماماً .. سَيُقتَل ذات يوم ، وهو في زهوة الشباب ، وروعة النشيد .

وبحركة عنيفة .. يشدني لوركا من يدي :

عرّفني بـه .. ارجوك .. دعني اصافحه .. اعانقه .. نتلاقى على الفور .

إنه صورتي في الماضي البعيد ، ماضيكم العربي العريق ..
يا لَروعة الشَبَه ! لكأنني تحدّرتُ منه .. من هذه الدماء ..

● ● ●

ويتعارف الشاعران المبدعان .. ويحتفي الجميع بنا .. أنا وصديقي الأثير ، قيثارة غرناطة .. وضيوفنا الأدباء الاسبان ، ونقضي ليلةً من ليالي الشعر والفروسية والحب مع القبيلة .. ونفتح اعيننا

صباحاً لنجد أنفسنا في دمشق .. نتابع احتفالنا بأيام الثقافة الاسبانية .. دون أن ينقطع الحلم . أو يتغيَّر العرس .

● ● ●

ايها الإخوة والأخوات !

ايها الأصدقاء الأعزاء !

هكذا كان أجدادنا العرب يحتفلون بميلاد موهبة ، ونبوغ وشاعر ..

ولقد كان الشعر ـ وما يزال ـ رئةَ هذه الأمة التي تتنفس بها ، حين تبحث عن الهواء النقيّ ، بالرغم من كل الفازات الخانقة التي تحيط بنا ، وبالانسانية جمعاء .. إنني ارثي لرئة تفقد هواءها النقيّ ، ولاتبحث عنه بأية وسيلة ، وفي أي مكان .

لا احبُّ أن أقف عند كل شامخة من شوامخنا الشعرية في التاريخ .. قديمه وحديثه ..

أبو تمام .. المتنبي .. المعري .. ابن زيدون .. السياب ..

قائمة طويلة .. ليس هنا مكانُ استعراضها ..

سنترك لكم ، أيها الأصدقاء القادمون من أناشيد الجمر ، وأعراس الدم ، والـذين تحملون نبرةَ صوتنا ، ونحمل نبرةَ صوتكم الجميلِ الأصيل .. سنترك لكم أن تسمعونا بعض أصداءِ الأرض التي امتزجت فيها أنفاسنا بأنفاسكم ، وأحلامنا الزاهية بأحلامكم ..

وليس للشعر من تعريفٍ إلاّ الشعرُ نفسه ..

إنني أردد مع الصديق الاسباني المبدع ((انطونيو بوربيتا)) عبارته الرائعة التي قرأتها منذ أمدٍ قريب ، والتي تقول :

((إذا ما سألوك يوماً : لماذا تكتب شعراً ؟ فلا تُجِبْ .. اصمتْ وتابع طريقك .. ولْيَبحثوا عن الجواب في قصائدك .. فهي وحدها .. نعم .. وحدها التي تستطيع أن تعطي قياس إلهامك الدقيق ..))

● ● ●

وبعد ..

هل تسمحون لي أن أختم هـذه الكلمة .. بقصيدة صغيرة .. لا تتجاوز اثني عشر بيتاً ؟ كتبتها منذ سنوات .. وأهديتها الى الموسيقار الاسباني العظيم « دي فالا » .. أو « فايا » كمـا تلفظونه هناك .. دي فالا الذي أعشقه ..

كانت القصيدة الصغيرة ..

من وحي رائعته الموسيقية الخالدة : « ليالٍ في حدائق الأندلس » التي استلهم فصولها من « جنة العريف » و « قباب الحمراء » وروائع تلك الأرض المعطّرة بالماضي المجيد .

تقول الأبيات :

دي فالا

مهداة الى الموسيقار الاسباني العظيم ..
على هامش رائعته الموسيقية :
« ليالٍ في حدائق الاندلس .. »

خمرُنا .. ما تزالُ أعتقَ من ليلِ
السكارى ، على الضفافِ ، وأحلى

خمرتا كالوجودِ .. إلْياذةُ الدّهرِ
تتصدّى على يديها .. وتتْلى

عبَرتْ في المساءِ أقْدامُنا الخُضْرُ
فغرناطةٌ .. مُحلّى

وجَوّادٌ ، وفارسٌ ، وزغاريدُ ،
وكأسٌ من جرّةِ الله تُملأ

وزَرعْنا على الدروبِ القناديلَ ،
ومازال عبقرٌ .. يَملَّى

عَبَّ مِنْ سِحْرِها ، وقطرِ على سمعي
لياليكَ .. يعرفُ الأَهْلُ أَهْلا

اَلْبساتينُ في يديكَ بساتيني ،
تَشَقَّتْ العبيرَ فرعاً وأَصْلا

والنجومُ التي قَطفْتَ .. نُجومي
وكُرُومي .. ظِلٌّ يعانقُ ظِلاَّ

لي على كَلِّ نقْرةٍ جيدُ حوراءَ ،
وثَغْرٌ عَلَّ الصَّباحَ وعْلاَّ

ويَفْتي مُوَشَّحٌ لي قديمٌ
في تسابيحكَ اللِّدانِ ويُملى

نسَبٌ بيننا .. ترقرقَ لحناً
ليس يَبْلَى شبابُه .. ليس يَبْلَى

إِسْقِني خَمْرتي ..
وجدِّدْ رَمادي ..
أنتَ مني ..
ويعرفُ الأهلُ أَهْلاَ

سليمان العيسى
دمشق : ١٩٩١/٩/٢١
« أيام الثقافة الاسبانية
في دمشق . »

---

(١) عرس الدم : من مسرحيات لوركا المعروفة في الادب العالمي .

مـــلف...

أيام الثقافة الاسبانية

فلسطين في الشعر الاسباني

د. محمود صبح

لقد شعر الشعراء الاسبان المعاصرون بان قضية فلسطين هي قضيتهم بل قضية الانسانية جمعاء ، ولذلك اتخذوا منها رمزا للمقاومة امام قوى الطغيان وللانتفاضة على الظلم والاضطهاد ، وارهاصا بانتصار الحياة على الموت معتمدين على عاملين : العامل الجغرافي اي موقع فلسطين بين البحر الابيض المتوسط ، بحر الحياة ،

وبين البحر الميت ، وعلى عامل تاريخي الا وهـو ابن بيت لحم عيسى المسيح الناصري ، عليه السلام ، وهو رمز لجدلية الحياة والموت عندهم .

بيد أن هذا كله يتطلب دعما ورفدا كي يتعمق الموقف لديهم ولدى الشعب الاسباني بأسره لاسيما رجال الفكر والادب والاعلام ، اي انه لابد من سياسة اعلامية واضحة محددة نشيطة ، وهذا غير متوفر في اسبانيا ، اذ لا تقوم أجهزة الاعلام العربية والجهات المختصة الا بالقليل النادر فيما ينشط العدو الصهيوني على جميع المستويات محاولا استقطاب بعض منهم الى جانبه ، فلم يستطع ذلك ، حتى الآن ، بين الشعراء ، وقدر على الروائيين والصحفيين والسياسيين .

لعل الكتاب الذي نشرته بالاشتراك مع المستعرب الاسباني / بيدرو مارتينيت مونتابيث Pedro Martínez Montavez / عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين تحت عنوان « شعراء المقاومة الفلسطينية » Poetas Palestinos de resistancia قد لعب دورا هاما في تغذية هذا الموقف الايجابي عند الشعراء الاسبان وفي اغناء شعرهم عن فلسطين ، فهذا الشاعر (خابيير بيان Javier Villán) الذي ولد في قرية من قرى « بالنثيا » (Palencia) ، وهي تقع في « قشتالة القديمة » (Castilla la Vieja) عام ثمانية واربعين ، ينشر ديوانا استوحى اشعاره من هذا الكتاب ، بعنوان « امثلة فلسطينية » (Parábolas palestinas) عنوان آخر قصيدة فيه هو : **نشيد الى المقاومة الفلسطينية** : واليكم ترجمتنا لها :

« ليس الشعر بحسام يجعل الجرح يئن ، / انما الشعر كلمات هاربة شاردة / منثورة في زوايا المعمورة الاربع . / الشعر هو الغضب او النحيب . / ياشعراء المقاومة الفلسطينية ، / (درويش قدوى طوقان ، سالم جبران ، زياد ، القاسم ،) / أنتم تبكون فلسطين وسيل الدموع / يلفح الضمائر ، يرفع البيارق . / غاضبة هي المجازات والاستعارات ، ساخطة قواعد النحو / تلعن الغازي اللئيم وترجمه . / الشعر ليس بحسام ولا قذيفة او رصاصة . / انما الشعر ضمير عقيم . / بين غابات الزيتون المسمدة بالبارود / يقصف رعد صوتنا المسهد . /

افواه مليئة بالدماء المسفوحة كسيل التيار ، / طير يحلق وغصن الزيتون بين اسنانه / والبندقية في القبضة والقنبلة فوق الاجنحة . / ايتها القرى، ايتها المدن ، ايتها الارض السليب / يا سكان زوايا المعمورة الاربع / حيث الحرية مهزلة مفروضة / حيث الكون نَهبَ غزو البرابرة / حيث الرعب يملأ المنازل / والضحكات والكلمات والعيون والايدي / حيث الحرمان يسود والجوع لا يرحم / حيث تشحن مستودعات العظام وتكتظ السجون . / ياشعراء المقاومة الفلسطينية / (درويش ، فدوى طوقان ، سالم جبران ، زيّاد ، القاسم ،) .

انكم تبكون فلسطين ، تناضلون من اجل فلسطين ، / تموتون في سبيل فلسطين ، / وفي شعبكم تعشقون / المأساة الكونية للانسان المنفي. / رايتنا واحدة ، غضبنا متحد . / أيها الشعراء الفلسطينيون جميعا ، يا عشاق الارض ، / انكم لتمثلون الانسان ، انسان البؤس العنيف والالم العميق ، / الانسان الذي يتحول في يديه الخبز افعى والسمك بحرا اجاجا والنبع زعافا / لان اعداء الحياة لا يريدون له الحياة . / ان الدماء لهي ثمن الفكرة الشجاعة ، / ان السجون توّجج المشاعل الملتهبة / في اللحم الهائج ، المعذب ، الثائر . / ابدا لن تسكت الريشة بأيدي المقاومة الفلسطينية / ولن تصمت البندقية ، / ولابد ان يأتي النصر في الوقت لمناسب . /

ويعلن الشاعر (كارلوس الباريث Carlos Alvárez) الذي ولد في بلدة « شريش » (Jerez) عام ١٩٣٤ ، في آخر بيت من قصيدته التي ألقاها في بيروت عام واحد وثمانين اثناء ندوة « قلعة شقيف » ، بأنه فلسطيني :

« اخي الفلسطيني سألني / عن وطني ... / فاجبته : ليس شجرة هو ، / وليس نهرا ، / ولا حتى ذكرى / ولا قبرا / ابكي عنده على آبائي . / اني لغريب بين الاغنياء ، / ومواطن بين الفقراء / عربا كانوا ام يهودا / صفرا ام سودا / بيضا بدماء حمراء . / اجل ، اجل ، اجابني ، / بيد اني / ليس لي من بيت ، / وهذه الليلة ابحث عن خيمة تأويني / وزيتونة تطعم ابنائي / فقد سلبوني / كل شيء حتى قبور

ابنائي / كل شيء حتى قبور آبائي . / إذّاك شعرت في ألم / بالنـدم / وبغضب المفتـاح في حزامي / وقد صار كالسكين ، / إذّاك أحسست اني فلسطيني . »

وكان هذا الشاعر قد قضى معظم سني حياته في السجن وفي المنفى بالسويد أثناء العهد السابق ، وهو معروف جدا في أوساط اليسار الاسباني حتى ان (رافائيل البيرتي Rafeal Alberti) وهو أعظم شاعر اسباني حي وصفه بأنه الشاعر الاجتماعي الوحيد في اسبانيا حاليا .

ومن المنطقة التي لم تطأها حوافر الخيول العربية أثناء الفتح الاسلامي للاندلس اختار لكم (اميليو سولا Emilio Sola) الـذي ولد في قرية بهذه المنطقة عام الف وتسعمائة وخمسين ، وراح يشارك في جميع المظاهرات والاحتفالات والمهرجانات التي تقام في اسبانيا لنصرة القضايا العربية وبخاصة القضية الفلسطينية ، وجعل من مقهى « لا باكيريا La Vaquería. » بمدريد مركزا لالتقاء الطلبة العرب الكثيرين في اسبانيا ولاصدقاء العرب ولعرض قضاياهم العادلة ؛ ودفعته محبته للعرب وحثته رغبته في المشاركة الفعلية في النضال من أجل نصرة الشعب الصحراوي الى أن يرتحل الى « جنوب الجنوب » ، على حد تعبيرة ، وهو عنوان ديوان شعر أصدره بعنوان « ابعد من جنوب هذا الجنوب للبحر » (Más al sur de este sur del mar) فسافر الى الجزائر ليعمل أستاذا في جامعة وهران . وحين أقام لي السفراء العرب المعتمدون في مدريد حفل تكريم أوائل عام ١٩٧٦ القى (اميليو سولا) قصيدة رائعة عن فلسطين نشرها المركز الاعلامي لجامعة الدول العربية بمدريد ضمن كتاب ضم جميع القصائد والكلمات التي قيلت في هذه المناسبة تحت عنوان «قصائد وكلمات تكريما للشاعر الفلسطيني محمود صبح » Poemas y palabras, homenaje al poeta palestino Mahmud Soubh وهي في الحقيقة تكريم للعرب جميعا وليست حفاوة بشعري المنظوم باللغة الاسبانية . وهاكم ترجمة هذه القصيدة التي لا تحتوي على أية علامة فاصلة أو نقطة أو استفهام أو استفراب بل هي لوحة بحروف موزعة على نحو بديع :

« للوصول الى فلسطين ثمة درب ازرق / هناك طريق عريض ازرق / بديع مثل البحر الذي يباعد بيننا ويوحدنا / واسع مثل صمت القرون التي هي نواقيس تنادينا / انتظري / يا فسطين / أيها الرمز الحبيب / يا دليل النور / أيتها النجمة / يا فدائي يا أيها الفلاح العاشق يا مهندس البحر والصحراء / يا هبة الريح العذبة القوية / يا صديق القمم والوادي العميق العريض / ان صهيون لهو مثل باخرة سمينة عتيقة تحطمت اشرعتها على صخور اعماق / انهار الارض / أيها الشعب الفدائي / يا سمكة في مياه شفافة / اسهر على اسلحتك كل ليلة / حتى تكون نهاية صهيون وخيمة عقيمة / أيها الفدائي يا من تقضي الايام تحت قبة السماء الزرقاء / يا من تسهر الليالي تحت قبة السماء المنيرة / يا فدائي القبة الزرقاء المنعكسة في عينيك الفولاذيتين / يا ايها الثائر للدماء المسفوحة / يا أخي في السهول وفي البحر / أحرس جيدا كنزك / ذاكرتك المقدسة الثرية الثرة / ذاكرة القرون / بمفتاح من ذهب رصاص حديد حافظ على صندوق تاريخك الحي » .

وهكذا نرى ان الدائرة الجغرافية لهؤلاء الشعراء الاسبان المولعين بفلسطين ، المدافعين بأقلامهم عن رمز عذاب الأمم في هذا القرن العشرين قد انداحت واتسعت لتشمل مناطق اسبانيا كلها ولم تعد الاندلس وحدها « عروس الشعر » بل ان عرائس الشعر وفدت عليهم من كافة الأقطار العربية فاتسعت كذلك دائرة الايحاء الشعري ، ولم يعد الشعر الاندلسي وحده ما يغني الشعر الاسباني بأخيلته وصوره ومعانيه ورموزه وعباراته والفاظه بل واكبه في هذا كله الشعر العربي جميعه ، قديمه وحديثه فاتسعت ايضا دائرة الاستلهام الشعري شاقوليا اذ تعمقت حتى العصر الجاهلي وافقيا اذ انتشرت على مدى العالم العربي باسره .

ولست بحاجة الى تعريفكم بسفير اسبانيا السابق لديكم الشاعر المسرحي (خسوس ريو ساليدو Jesús Riosalido المجريطي الذي كان قنصلا في القدس الشريف حيث ولدت ابنته الكبرى ، ومديرا للمعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد وكنت واياه نسهم في نشر الثقافة العربية في اسبانيا والثقافة الاسبانية في الوطن العربي . وهو في شعره يحدثنا عن ضحايا دير ياسين :

« لقد رفعت صوتي في الصلاة كثيرا / فهربت صفحات الكتاب / باليـة ذابلة ، / حذار أن يهز الصـوت المنطلق / ربابات الصـدى ، / حذار ان يرى النور وقد تلاشى . / كانت صلاتي اطول / مـن الدم المهرورق المزرورق ،/من دم الحواشي ، / من العقائد العتيقة /ستصلتون لي هكذا . / لم يكن لي شكل اصلي به له ، / ثمة مقابض حول بكائي المفرط . / صبرك اللعين بخنقنا / قلت له ، / ويقصفنا بعواصف طاغية جارفة / حيث يطفو الأطفال وتفيض الحروب ، / وموت مضطرب / في القاعات يتأجج مخاوف . / يا أمل الأموات الخادع ، الآن ، / يا ياسمين الهلاك الطلسم ، / يا وجها منفتحا على الفجر / مثل رمز لغتك الحمقاء أنشرهم من لحودهم الآن ، فالأسرار ملكك . / » .

امـا (خواكين بينيتو دى لوكاس Joaquín Benito de Lucas الذي ولد في مدينة « طلبيرة » (Talavera) حيث التقى موسى بن نصير وطارق بن زياد بعد أن توغل طارق في فتوحاته ـ عام ١٩٣٤ ، وكـان مديرا للمركز الثقافي الاسباني في دمشق ما بين عام ستين واثنين وستين، فقد نظم اثناء اقامته في بلاد الشام قصائد عديدة استلهمها من تدمـر وقاسيون وبيروت وصيدا وبيت لحم واريحا ، ولعل أجمل قصيدة ابدعها في هذا المجال هي قصيدة النبي محمد (صلعم .) ، وقد جمع ذلك كله في دواوين شعرية نشرها بعد ذلك . وكم اطرب بالمعنيين الحزن والفرح ، كلما قرأت قصيدته التي اهداها الى (خوليو كورتيس) Julio Cortés الذي تلاه في ادارة هذا المعهد ، وهو أول اسـباني تعرفت عليـه هنـا في عاصمة الامويين ، وعنوان هذه القصيدة الصغيرة المعبرة هو في عيد الميلاد

« الجبال الوردية / الوديان الزرقاء / الأنهار البطيئة / حفيـف الهواء ، اسيرة غابة الارز / اراني ابكي تحت اسوار هذه المدينة القديمة والنسيم في غابة الزيتون يغني ، / يعانق الأنفال ، / والرجال في غابـة الزيتون يغنون ، / وانا وحدي ، أمام هذه المدينة / اسير الرياح / اسير الرجال / اسير الذكرى / اسير الأطفال / ابكي / اضيع بين بيت لحم واريحا » .

بينما يربط الشاعر الجليقي خوسه انطونيو اراوخو Josi Antonio Araújo (Galicia) ـ من منطقة « غاليثيا » التي كان العرب يدعونها « جليقية » ، وهي بشمال غرب اسبانيا ـ بين صليب الطفل عيسى المسيح وبين عذاب الطفل الفلسطيني في قصيدة بعنوان **الصليب في كلّ مرّة أكثر حياة** :

« تنتشد غابة / تريد أن تجوب في جغرافية وطنك / حيث الروح القدس تتجسد في طفل / والنار تحيا في الجميع ، / غنى رجل في وطنك فصار صليبا . / بأيد معدنية نمت المعجزة / ونمونا جميعا بعد ذلك ، / فأبعدنا غرباء الى الصحراء / ثم التجأنا الى الحقول / لعلها تخفف عنا آلامنا / آلاما تراكمت موسماً بعد موسم ، / المخاض لما يحن بعد / الكلمة لما تزل محبوسة في البنادق / ولسوف تنطلق النيران / الى ان تعود المنازل الى أهلها / فيعود الغناء والرقص ، / ولسوف يطلقها الطفل الذي يبكي الآن / في منفى الرمال / » .

في حين يعثر الشاعر القادشي (مانويل ادرادا Manuel Adrada ـ قادش مدينة في أقصى جنوب اسبانيا ، بناها الفينيقيون ـ على اكثر السماوات زرقة في قرية بفلسطين رآها في أحلامه ومناماته ، وقد أكد لي الشاعر بانه قرأ كلمة « الضاهرية » في خارطة المنام وهي قرية صغيرة ولد فيها ضاهر العمر الذي تمرد على السلطنة العثمانية وأنشأ دولة في الجليل أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، وهذه القرية تقع قرب بلدتي صفد بفلسطين المحتلة :

« حين كنت طفلا اعتقدت بأن أكثر / السماوات زرقة / هي سماء ارضي / بيد أن رجلا متخيلا / او اني رايته في الحلم ، / قال لي في لغة لا تفهم / إلا في الأحلام ـ لأن هذه اللغة لما تزل تتنزل / من على تلك المئذنة الحزينة ـ / إنّ اكثر سماوات الكون زرقة هي سماء فلسطين . / فهرعت الى خارطة فعشقت / مدينة « الضاهرية » / أكثر مدن احلامي زرقة / » .

والقى هذا الشاعر قصيدته هذه في حفل التكريم الذي شارك فيه ايضا الأمين العام للهيئة المشرفة على جائزة « المو » اي شجر الحور ، التي منحتني هذه الجائزة عام ١٩٧٥ ، المحامي (خوسه ليديسما كريادو Josi Ledisma Criado) وهو شاعر من مدينة « سالامنكا » Salamanca ولد عام ١٩٢٦ ، بقصيدة عنوانها : **اغنية الأمل :** وهاكم مقاطع منها :

« الطفل / الطفل كان اسمه (فراي لويس) / أمس حين قرعت النواقيس / فيما انا انظم هذه القصيدة ، / وانت كنت تشاهد الغروب البعيد / تحلم بنهر « تورميس » هاربا / فتأوى عيناك الى نور البحر الأبيض المتوسط . / محمود ان الحياة لمعراج / وان الأمل والحب عربيان أصيلان . / محمود ، السماء صوت ساكن هادىء / والساحة ساكتة منصتة / الى الملك العميق في اشعارك . / مازلت اذكرك / حين قدمت الى « سالامنكا » / في خريف بديع / فكانت المعجزة / اذ رايت بين يديك مدينتي / وشاهدت مدينتك قرطبة / بمسجدها وقصرها وأزقتها ، / واستمعت من خلال صوتك / الى اغنية الأمل / امل انتصار الحياة على الموت / في فلسطين . / » .

وكانت هذه الجائزة قد منحت في العام السابق الى (انخيل غارثيا لوبيث Angel Garcia López الذي ولد في بلدة « روطة » (Rota) التي كان العرب يدعونها « رابطة روطة » ، وذلك في عام الف وتسعمائة وخمسة وثلاثين ، وهذا الشاعر هو شاعر الحنين الى الاندلس يغمس ريشته في مناهل الحضارة الاندلسية ليحلق بجناحين ، جناح مرفرف يبلغ السماكين في الاعتزاز بالتراث الاندلسي الثر وجناح كسير ينوح على مجد الأمس ، هذا المجد الضائع بين الأطلال او الباقي في الآثار التي خلفوها لتبعث في اهل اندلس اليوم هذا الشعور المزدوج بالعزة واللوعة معا ، بالانتصار والانكسار في وقت واحد ، باندلسيتهم الأصيلة واسبانيتهم الصادقة دون ان يشعروا بالتناقض بين هذه وتلك البتة لأن

مفهوم الأندلس لديهم هو هذا بعينه ، ففي بوتقة الأندلس انصهر الشعبان العربي والاسباني ، فاعطيا للانسانية هذه الحضارة الخالدة .

وقد اهداني « سونيت » القاه في هذا الحفل المشار اليه آنفا ، واليكم تعريبه :

« يا اخي محمود المدجن البدوي / من نبلي جواده واحضر موالـه صهوة / فاعطى بين شعره الجواب / منزلا دائما للجمال . / يا اخي محمود ، / على نخبك ارفع كاس نبيذ الصداقة ، / اشهر قامة الأندلس، وطني ، / وأبرز درع الشمس الحمراء ، الفلسطينية الجريئة عن كل بيت شعر من اشعارك / اهبك غرناطة ، اعطيك قرطبة ، امنحك اشبيلية، / واهدي الى الجليل سيفا مصنوعا في طليطلة ، / ولأجل صوتك الذي تغنى بصفد وانشد : « فلسطين زيتونه بين بحرين / بحر المنية والزعفران / وبحر الزنابق والبرتقال » ، / اقدم يدي وعيني ، يا أبا طارق » / وانشودة الاخاء في سبيل المعركة » .

اما الشاعر صديق الخيل والليل (غريغوريو غارثيا سواريث Gregorio Garcia Suárez ابن مدريد الأصيل فقد اهداني اغنية وضع لها ، فيما بعد عازف البيانو الفجري (فيليبه كامبوثانو (Felipe Campuzano) لحنا بديعا : « هذا الذي يكتب الشعر يكمن في صدره / ضيف منذ عهد الطفولة يتفعمه / حنانا وحنينا وحبا / هذا الشاعر له كثير من الأصدقاء / وام وصورة قديمة كادت ان تتمزق / وهي في جيبه محفوظة . / هذا الشاعر يسمع في اعماقه / صوتا حزينا يقول له : / « لا احد يمكن ان يعيد لك مافقدته » / . يعرفه الضعفاء والمهزومون / واولئك الذين يعودون الى طفولتهم / حين يبلغ بهم الأسى حد الانتحار / هذا الشاعر هو رمز فلسطين / يحيا ويموت ثم يحيا / » .

ونجد الشاعر المغني البرتو كورتيس Alberto Cortés الذي ولد في الارجنتين عام الف وتسعمائة واربعين ينظم قصيدة ــ اغنية عن

ضحايا صبرا وشاتيلا بيعت من أشرطتها آلاف النسخ في اسبانيا وفي أمريكا اللاتينية ، ويبلغ به الحزن والألم والغضب الى أن يدين نفسه إذ لم يعمل شيئا في سبيل انقاذ ضحايا هذه المجزرة التي تقع مسؤوليتها على الجميع وان كانت بدرجات متفاوتة ، على حد قوله :

« اين كانت الشمس حين رنت / اصداء الغضب المنطلقة ؟ / اوليست الظلال هي التي اخمدتها / في صبرا وشاتيلا ؟ / أين كان الرب، حين فقئت / مآقي الخلق بالحديد والنار ؟ / اوليس انه صار غير مبال / في صبرا وشاتيلا ؟ / أين كنت انا ، في اي كوكب ، عديم الاحساس اقرأ الخبر ؟ / أو لم اكن احد المشاركين في مؤامرة / صبرا وشاتيلا ؟/ أين كنت بفطرستك ، / أيها السيد الجبار ، يا من تحمل في المزادة / جثث الطفولة البريئة كلها ، طفولة / صبرا وشاتيلا ؟ / أين كانت كرامة البشر ؟ بل بالاحرى نفاق البشرية ؟ لان مثل هذا الالم ليس له من اسم / في صبرا وشاتيلا . / أين كنت انا ، يا رفيقي ، / وضميري جد مرتاح ؟ الم اكن انافق العدو واتملقه / في صبرا وشاتيلا ؟ / أوما كنت انا مع الجنود محشورا / بين أرتالهم وصفوفهم / قابلا بما ارتكبوه من جرائم / في صبرا وشاتيلا ؟ / انه زمن صياغة البيانات / لإزالة ماهو شائك عن الشوك . / أني لهم ان يخفوا ماجرى / في صبرا وشاتيلا . / هيهات لهم أن يقدروا على تخفيف حدة الادانة / التاريخية الجماعية الشاملة / كيف يستطيعون ايقاف النزيف / في صبرا وشاتيلا ؟ مع اني لم ازل غائبا في كوكبي / أتاجر بالخبر في أغان ، / فان شيطان الرعب يتابع مسيره / في صبرا وشاتيلا . / أهيم على وجهي في بيروت وفي أقمار اخرى / ادب بلا هوادة مثل الخنفس / بعيني النهم والسغب / في صبرا وشاتيلا . / لعلني اود الوصول الى عتبة داري ، / ربما تكون داري في منعطف الزاوية ، / بيد ان الجرح لما يزل ينزف ، لن يندمل / في صبرا وشاتيلا . / .

ولم يقتصر الابداع الشعري المستلهم من القضية الفلسطينية رموزه وركائزه على الشعراء الرجال فحسب بل شاركتهم فيه الشواعر الاسبانيات من امثال (أكاثيا اوثيتا Acacia Uceta التي شاركت مع مجموعة

كبيرة من الشعراء في المهرجان الذي عقد في طليطلة عام الف وتسعمائة واربعة وسبعين تكريما للثقافة العربية ، وقد القت حينذاك قصيدة رائعة عن نهر النيل الخالد ، ومن الجدير بالذكر ان زوجها الاديب (انريكمه ميلان Enrique Millán) القى كلمة افتتاح هذا المهرجان بين فيه دور الحضارة العربية في تقدم الانسانية . وانشدت الشاعرة الجليقية (اليثيا ثيد Alicia Cid قصيدة بعنوان الصوت الآخر في حفل التكريم الذي اقيم لي في قاعة المؤتمرات والمعارض بمدريد :

« هذا الصوت السري الآخر / الذي يولد حين تموت الكلمات ، / هذا الصوت الآخر الذي يضع في قلبك / ارادة النضال صرخة الاحتضار . / هذا الصوت الآخر ، يا محمود ، / لا يمتلكه من يحمل سوطا في يديه ، يقسم بيت شعرك الى شطرين ، / فيجعل منه معجزة / تدني الأبعاد ، تصهر الزمن ، / تبلغ بك ما تحب ، / اذ انك تود أن يكون جسدك في مكان آخر . /ان خلف ابتسامتك/لبكاء وحنينا وصوتا...» .

وما هذا الصوت ، في الحقيقة ، الا صوت المعذبين جميعا كما قالت في قصيدتها شاعرة البحر الابيض المتوسط (بالوما بالاو Paloma Palao التي توفيت في حادث فاجع قبل عدة سنوات . وختاما انشدكم رائعتها المعنونة **بلا بعث للحياة** :

« لن اذهب الى فلسطين . / لن تنبجس الينابيع في القلب ، / ولن يرتشف ثغري الشهد ، / ولن اتحسس الشمس / التي تستحيل / الى ربة الارض في فلسطين . / لن اذهب الى فلسطين ، / مع اني اود ان اعود فأحس / قلب الله يشفي هذه الأرض ، / يشفي كل ارض ، / بينما يظل الرمل . / الرمل الذي يجس جسد الانسان / دون أن يدميه او أن يلطخه . / ولن اقتلع الورود / الورود التي تهبها الصحراء الى الحياة ، / على الرغم من يدي اللتين تودان ان تعودا / فتلمسا الارض المقدسة المباركة . / ارض النضال على مدى سنين وسنين ، / ارضا

ذات قلب متوهج متقد ، / أرضا ذات عيون وميضة محروقة من طغيان الظلم . / لن أنهل السلسبيل / من مياه نهر الاردن ، / ولن اكلل راسي بالازهار ، / ولن ابيع الحمائم ، / ولن اضطجع على باب مدينة القدس/ الضائعة الخالدة . / لابعث للحياة / ولا موت للمعذبين المضطهدين ، / ولا دم في مدرج الهيكل . / لن اذهب الى فلسطين . / لن انمو في اماسي الشمس ، / لن اقطن الحجر الذي يئن ، يئز / وقد هشمه الالم ، / ينزو دما ودمعا / وقد جرحته اقدام الغزاة . / لن ارحل الى فلسطين / طالما انه يذبح الحمل الوديع / طالما انه تقدم دماه اضاحي . / فلسطين هي منفى / كل المعذبين المغلوبين ، / ومافتىء هذا المنفى يقدم الجراح تلو الجراح / في سبيل سلام عادل . / لن اذهب ابدا الى فلسطين / لان فلسطين هي في قلوب الذين يتألمون / ولان قلبي هو دوما فلسطين .

اعيد ما قالت : ان قلبي هو دوما فلسطين . والسلام عليكم والحياة لفلسطين .

د. محمود صبح
استاذ اللغة العربية وآدابها
في جامعة مدريد المركزية

★ ★ ★

مـلف ...

أيام الثقافة الاسبانية

بصمات عربية

عند بعض شعراء القرن العشرين الاسبان

بقلم : خاثينتو لومث غورخه
ترجمة : رفعت عطفة

يقول الاستاذ والمستعرب الاسباني الكبير بيدرو مارتينث مونتابث ، من جامعة أوتونوما في مدريد في « بحوث هامشية حول الاستعراب » لو أن أي أدب غربي آخر أراد أن ينتج شعراً حول ما هو عربي فان عليه أن يخرج خارج حدوده . والأدب الاسباني لا يحتاج ذلك ، لأن ما هو عربي موجود داخل بيتنا : في الريف ، في المدن ، في الناس وفي العادات :

ولهذا الاستعراب الاسباني اسم يعبر عنه : أندلوثيا (الاندلس) وبالفعل فها هو الشاعر الاندلسي ، الشعراء الاندلسيون ، الذين يشكلون غالبية الشعراء المعاصرين الذين سنشير اليهم .

هناك عدة مختارات لشعراء أندلسيين من القرن العشرين بينها مختارات الشعراء الأندلسيين أيضا خوسيه لويس كانوولويس خيمنث مارتوس ، رغم أن اية مختارات لشعراء أندلسيين تريد أن تكون شاملة حقا ودون حدود زمنية يجب أن تتضمن شعراء اسبانيا الاسلامية العظام والذين حقا لم يكونوا قليلين . ليس غير ذي معنى أن كتاب « قصائد عربية اندلسية » ، للاستاذ اميليو غارثيا غومث المذهل ، هو المختارات الاولى التي عرفناها لشعراء اندلسيين .

لقد عثرت ، اثناء انغماسي في شعر القرن العشرين الأسباني ، وأنا ابحث عما هو عربي ، على امثلة كثيرة صائبة ــ بعضها اكثر من معروف بالنسبة لنا نحن الذين تطرقنا ودرسنا شعر القرن التاسع عشر ــ وعلى آثار وبقايا ليست قليلة . ومن خلال بطاقات ما يقارب الخمسين شاعرا ، التي استطعت أن اجمعها ، اكثر من ثلاثين منها لشعراء اندلسيين او على الأقل لشعراء ولدوا في جو من كانوا يشكلون اسبانيا العربية او شمال افريقيا ، خمس شعراء اندلسيون ــ بيلياسبيسا ، غارثيا لوركا، روميرو موروبه ، ريكارد مولينا وفرناندو كينيونس ، واثنان لم يكونا كذلك وهما دومينيتشينا وريوساليدو عندهم كتب بكاملهامخصصة للموضوع العربي ، وهذا ما يمكن أن يرى حتى دون أن يفتح الكتب ، لأنه يظهر من العناوين « فناء الريحان » لفرانشيسكو بيلياسبيسا (هذا دون أن نذكر الا كتابا واحداً لهذا الشاعر الغزير الانتاج ، « ديوان تاماريت » لفديريكور غارثيا لوركا ، « قصائد النسيان » ، لخواكين روميرو موروبه ، « مرثية مدينة الزهراء » لريكاردو مولينا ، « وقائع الاندلس » لـ فرناندو كينيونس ، « ديوان ابزول أغريب » لـ خوان خوسيه دومينتشينا « موشحات » لخيسوس ريوساليدو . وعناوين أخرى لشعراء آخرين ــ مثل « مرثاة وادي الكبير » للاشبيلية مارياده لوس ريس فوينتس ، أو « شعر اندلسي» للقادشي انخيل غارثيا لوبث ، توحي بالتفكير بأنها كتب مخصصة أيضا بكاملها للموضوع . لكن لا . انها كذلك الى حد ما . هناك شعراء آخرون

ودون ان يعكسوا هذا في عنوان اي من كتبهم ، خصصوا للموضوع العربي عددا من قصائدهم او تلقوا تأثيرات ظاهرة من الشعر العربي ، جمعوها فيما بعد في كتبهم او نشروها بشكل مستقل خارجها ، في مجلات او منشورات اخرى . يجب ان اضيف ان الشاعر ميفيل فيرناندث ، المولود والمقيم في ميليا ، والمتحدر من اصل اندلسي ، نشر مجددا في اشبيليا كتابا مخصصا بكامله للموضوع : « نيران الذاكرة » ، رغم ان ما هو عربي ، ينحصر في غالبية القصائد وبشكل قطعي تقريبا بمراكش . اما فيما يتعلق بالمختارات ، المرتبطة ايضا بالموضوع العربي فان علي ان اضيف كذلك احدث مجموعة ، لانني لم اذكرها من قبل جمعتها وقدمت لها بنفسي : « مراكش في الشعر الاسباني المعاصر ، والتي تكاد تكون بكاملها لشعراء اندلسيين ، ونشرت مجددا في غرناطة » .

لكن لنتكلم بالتفصيل الآن عن شعراء القرن العشرين الاسبان،الذين لهم علاقة بهذا الشكل او ذاك وبشدة اكثر او اقل مع الجو العربي . سأتبع نظاماً زمنيا متسلسلا لكن ليس حسب ولادة الشعراء ، وانماحسب ولادة الشعر ، بمعنى العام او الاعوام التي عرفوا فيها كشعراء .

اولهم ــ او اقدمهم ــ جميعا هو الميري فرانثيسكو بيليا سبيسا ، الذي نادرا ما قدر في هذه الايام من نقاد ودارسي الشعر الاسباني المعاصر . ولد في لوجار من اعمال اندراش في البوخار المرية في ساحة مآثر القائد الموريسكي ابن حمية ، والذي سيخصص له فيما بعد واحدة من مسرحياته وفرانثيسكو بيلياسبيسا شاعر حديثي ، من اتباع روبن داريو ، بدأ بنشر كتبه ــ وله اكثر من خمسين كتابا ــ اعتبارا من عام ١٨٩٨ ، التاريخ الرمزي لهذا الجيل الادبي ، الغريب تماما عن عمل هذا الجيل الغنائي او المسرحي لكنه في عام ١٩٠٣ ومع كتابه « رحلة عاطفية » بدأ استعرابه . « فناء الريحان » و « مشرف لينداراخا » عنوانان هامان في هذا الاستعراب ذي الاسلوب البيلياسبيسي السطحي ، وهما كتابان من عام ١٩٠٨ ، سيتبعهما حتى عام ١٩١٥ عدد آخر مثل « نوافذ الحلم » ، « سهار جنة العريف » . وبيلياسبيسا ، يشبه الشاعر ، ابن القرن التاسع عشر خوسيه ثوريليا في شرقيته الاصطلاحية ذات العواطف السهلة والرنين الصوتي المحض . لم يكد يعامل جيدا من النقد . وكان نصيبه من المؤرخين الأدبيين أقل .

وضمن الحركة الحديثية الروبينيه ، مثله مثل بيلياسبيسا ، كان مانويل ما تشادو رغم انه حقق في مجموع اعماله مستوى شعريا افضل ، وهو ـ شاعر اندلسي عظيم ـ لم يكن الموضوع العربي غريبا عنه . ومانويل ماتشادو اشبيلي ، مثل اخيه ـ انطونيو ـ شاعر الـ ٩٨ البارز ـ يفتخر بنسبه العربي الاندلسي ، في تلك الصورة الذاتية ، المشهورة في زمنها والتي لم تنسى قط ، والمتمثلة بقصيدة « الدفلى » ، التي يفتتح بها كتابه « روح » عام ١٩٠٢ . من ميزات شخصيته الشعرية والعربية ، والمصورة في « الدفلى » جيدا هي الفتور ، الخمود ، الارتياب ، السأم ، بالاضافة الى قابليته للتأثر بالنور ، اللون ، الجمال ، تعدد النغمات ، تألق الخلق ، « حسب كلمات اميليا ميرو ، التي تطبع كل شعره بانفجار حسي للواقع ، والتي تكمل ملامح هذا الشاعر ، الذي قال عن صورته الذاتية في الأبيات الاليخاندرية الأكثر شهرة ـ لانه يملك صورة ذاتية أخرى ، لا ترقى الى هذه ـ والتي يوجد في العربية عدة ترجمات لها :

انا مثل هؤلاء الناس الذين جاؤوا الى وطني

من سلالة عربية ، رفيقة الشمس الأزلية

الذين ربحوا كل شيء ثم فقدوه .

روحي من سنبل الطيب روحي ، عربية اسبانية .

والآن ، شاعر آخر ممن اسميتهم في مختاراتي « نصف قرن من شعر الحب الاسباني » ، تطوان ، مراكش ١٩٥٩ ، شعراء المرحلة الانتقالية ، شاعر ، رغم انه غير اندلسي ، لكنه يستحق أن يكون كذلك . اقصد خوان خوسيه دومينتشينو ، الذي يعود كتابه الأول « عن القصيدة الخالدة » الى عام ١٩١٧ . ويقع خوان خوسيه دومينتشينا في المرحلة الانتقالية التي تمتد بين جيل ٩٨ ومدرسة روبن الحديثة وخوان رامون خيمينث وحتى الماورائية وجيل الـ ٢٧ الشعري . وهو صاحب اكثر من عشرين ديوانا ـ عشرة في اسبانيا واحد عشر في المكسيك ـ ، ويدخل خوان خوسيه دومينتشينا في هذه المداخلة او الرسالة من اوسع ابوابها واجرئها بكتابه « ديوان از اول ـ اغريب » كتاب فريد مطبوع في المكسيك ولا يمكن العثور

عليه في اسبانيا ، التي كان مجهولا فيها . والاشارات النادرة لهذا الكتاب في الخمسينات ، منحت لي للكشف عنه عندما كنت أدير في تطوان المجلة الأدبية الاسبانية ـ العربية « كتامه » (١٩٥٣ ـ ١٩٥٩) . والأخبار الأولى التي حصلت عليها عن هذا الديوان المسمى أيضا « ديوان الغرب » للشاعر المختلق « أبز أول أغريب » ، كانت اخبارا تلقيتها من دومينتشينا نفسه قبل أربعة سنوات من وفاته في المكسيك . ففي رسالة كتبها لي من منفاه في المكسيك بتاريخ ٢٠ أيار ١٩٥٥ ، والتي احتفظ بها في ارشيفي عن الشعراء ، أعترف لي دومينتشينا بين أشياء اخرى بما يلي : « كل ما اكتبه هنا تقريبا ، وقد كتبت ونشرت كثيرا ، له صبغة الحنين والدين باستثناء مجموعة من القصائد النثرية ، « ديوان أبز أول أغريب » ، الذي عزوته الى شاعر اندلسي من القرن الحادي عشر ، والتي أعتقد بعض النقاد الامريكيين الشماليين والاسبان هنا أنها ساذجة . ولم أرسل من هذا الديوان اي نسخة الى اسبانيا . . « مات خوان دوسيه دومينتشينا يوم ٢٧ تشرين الاول ١٩٥٩ . وكتكريم له بعد وفاته اردت ان انشر في « كتامة » ست قصائد من « ديوان أبز أول أغريب » ، التي كان دومينتشينا قد أرسلها لي ، الى جانب دواوين اخرى لزوجته ، الشاعرة ارنيستينا تشامبورثين ، لمختاراتي من شعر الحب المذكورة ، والتي كنت بصدد اعدادها ، ونشرتها مع ملاحظة طويلة لافتة انتباه قراء « كتامة » الى صوت وشخصية دومينتشينا الأدبية ، والى انه نشر « ديوان أبز أول أغريب » عام ١٩٤٦ . لكن وبالاضافة الى نشرها في هذه الترجمة الاسبانية المختلفة ، وهي الترجمة الوحيدة التي كنا نملكها ، كنا سنترجمها الى العربية . . . ونشرها في القسم العربي من المجلة ، الترجمة التي كلفت بها مساعدي عبد اللطيف الخطيب ، الكاتب المراكشي الذي كان شابا جدا آنذاك ، والذي توصل ، مع مرور الزمن لأن يصبح سفير مراكش في اسبانيا وفيما بعد في البرازيل « لا تاكد الى اي تتطابق ـ قلت في ملاحظتي ـ مع الشعر الاندلسي الحقيقي ، ولا شك أنها ستكون تجربة غريبة بعد نقلها الى العربية .

وارنستينا كامبورثين ، أرملة دومنتشينا ، تقيم الآن في مدريد . اذ بعد سنوات من وفاة زوجها وضعت نهاية لنفيها وعادت الى اسبانيا . واليوم أتشرف بصداقتها . زرتها في بيتها في شارع هافانا وهناك استطعت

ولاول مرة ، ان املك في يدي نسخة من « ديوان ابز ازل اغريب » الوحيد الذي كانت تملكه من تلك الطبعة المكسيكية وربما الوحيد الموجود في اسبانيا ، بعد سنوات كثيرة عرف الكتاب الى جانب كتاب آخر للمؤلف نفسه في اسبانيا ، حدائق حفصة الذي كانت تحتفظ ارنستينا كامبورثين بمخطوطه والذي راى النور مع مقدمة لها نفسها لاول مرة في مدريد عام ١٩٨٦ « بعد نسخ مجهد قام به خيسوس ريوساليدو وانطونيو ثيرادو » .

وهانحن في جيل الـ ٢٧ ، وفيه اندلسي آخر : فيديريكو غارثيا لوركا وهو ودون شك الاندلسي ذو الجذور الاكثر عروبة في قصائده . وشرقيته كشرقية بيبياسبيسا : انها والى حد ما اكثر تجذرا وعمقا ، والقصائد التي يفصح فيها عن ذلك اعلى وارفع نوعية . ففزالاته وقصائده لا تعرف الخليط المتنافر ابدا ، كما هي حال قصائد وغزالات بيلياسبيسا ، الذي يسمي اشعاره قصائد ويستطيع ان يسميها اي شيء آخر . فهي من حيث الشكل ليست كذلك . وهذه القصائد اثنتا عشرة غزالة وتسع قصائد — تشكل كتابا بكامله ، « ديوان تاماريت » رغم انه ليس كتابا واسعا الا انه كذلك من حيث النوعية الفنائية . فقد كتبه في السنوات الاخيرة من حياته القصيرة . عندما وصل النضج عند الشاعر الذي كان عظيما اعلى قمم الشعر المعاصر . يؤكد اميليو غارثيا غومث ان غارثيا لوركا كان قد الف عام ١٩٣٤ مجموعة من القصائد والغزالات ، اي ديوانا ، والذي سماه فيما بعد « ديوان تاماريت » تكريما للشعراء العرب الغرناطيين وبخاصة ابن زمرك — الذين تزين قصائده جدران الحمراء وتحيط بأجران النوافير — . ابن بستان سان بيشنته الغرناطي ، حيث كانت عائلة فيديريكو لوركا ، تملك بيتا ، كان — حسب غارثيا لوركا — مسكنا لتاماريت ، شاعر غرناطة العربية . وهذا الشاعر الغرناطي ، عشريني القرن ، شاعر اندلسي مثل اولئك المسلمين العرب ، وهو مثلهم ايضا مبدع المجازات الادبية ، يتقمص او ما يشبه ذلك ، سلفه من بستان سان بيشنته ، مكرما بهذا الشكل الشعراء الذين ولدوا في ظل الحمراء .

وقد ضمن ، وكما هو واضح « ديوان تاماريت » في جميع الطبعات وهي كثيرة ، التي قامت بها غيلار في مدريد للاعمال الكاملة لغارثيا

لوركا ، مع ملاحظات في النهاية ، حول النص ، تعرف من خلالها كيف رات النور كل واحدة من تلك الغزليات والقصائد البعدية تقريبا في مختلف المجلات والمختارات قبل عام ٣٦ المأساوي ، والتي شكلت هذا الكتاب الذي طبع بعد وفاة الشاعر ، بعد ان بقي مجهولا ككتاب حتى عام ١٩٠٤ ، حيث نشر في نيويورك . وقد كتب الكثير منذ ذلك الوقت عن « ديوان تاماريت » ، لكنني انصح بالعمل الذي يحمل عنوان « الآثار العربية في ديوان تاماريت » الذي نشرته مجلة « اينسولا » في أيلول من عام ١٩٧٧ لمؤلفه ماريو هير هاندث، صاحب «طبعة ومقدمة وملاحظات عن ديوان تاماريت» الذي نشرته دار نشر اليانتا بعد اربع سنوات ايضا في مدريد . وإنني احيل الى هذين العملين الرائعين من يهتمون بالدراسة التفصيلية ـ سواء من حيث الموضوع ، او الشكل أو المصادر التي استلهمها ديوان غزالات وقصائد لوركا .

شاعر غنائي آخر مهم من جيل الـ ٢٧ وله علاقة كبيرة مع ما هو عربي ورغم انه ليس من درجة لوركا ولا شخصية مهمة ومتوضعة ـ انه بالأحرى مقلد ـ في هذا الجيل ، انه الاشبيلي خواكين موروبه ، المتوفى عام ١٩٧٢ . اندلسي واشبيلي واحتكاكه بما هو عربي لم يكن فقط اختياريا وانما الزاميا ويوميا . فهو لم يكن اقل من حافظ لقصر اشبيليا . وكان يعيش فيه . وقد حدد هذا الحضور المباشر للماضي العربي الاندلسي المجيد خط شعره ، الذي كان دائما من طبيعة ارضه . لانه نشر في عام ١٩٤٥ « قصيدة النسيان » عنوان كتاب قصائده كلها ـ او تقريبا جميعها ـ قصائد ، كما يسميها هو نفسه . وكذلك « قصيدة الملاحة » ، « قصيدة الكنز الخفي » ، « قصيدة الماء الغافي » ، او قصيدة الملك المعتمد . الكتاب الجميل جدا والرقيق حيث يكتسب النور والوقت بعدهما الجنوبي النهائي .

واتجاوز جيل ١٩٣٦ وبعض الدفقات العرضية لما هو عربي عند ميغل هيرناندث في قصائد شبابه الأولى ـ خليط متنافر على طريقة بيلياسبيسا كما يقول لئوبولدوده لويس ـ والتي لم تجمع في اي من كتبه. كما انني لن أتوقف عند كارمن كونده ، رغم اننا نجد في كتابيها « غبطات »

و « موعد مع الحيـاة » ، بعض القصـائد النثريـة في الأول « غبطة » ، « حبيبة » و « عربية رقيقة مثل ماء لامسته الريح » « والموزونة في الثاني ، حيث تشير هي نفسها الى استخدام بعض الكمات العربية المقصودة . لكن الامر لا يتجاوز ذلك .

وبذلك نكون قد وصلنا الى الشعر الاسباني لما بعد الحرب ، لما بعد حربنا الاهلية واقصد شعراءنا الذين بدؤوا يعرفون في الاربعينات ، لان بعض الكتب او القصائد ذات الموضوع او المصب العربي ، المشار اليهـا هنا تنتمي ايضا الى مابعد الحرب . وينتمي الى جيل الاربعينات هذا شعراء مجلة « كانتيكو » القرطبيون ، ريكاردو مولينا ، بابلوغارثيا بائنا ، ماريو لوبث ، خوان بيرنيير ، الخ .. حيث نستطيع ان نجد الكثير من آثار اسلافهم العرب ، وبخاصة ريكاردو مولينا ــ ويبرز ريكاردو مولينا من خلال كتابه « مرثية مدينة الزهراء ، الذي يكفي عنوانه كي يدخل في الموضوع ويبرر حضوره في هذه الرسالة .. ان ريكاردو مولينا ، الذي مات مبكرا عام ١٩٦٨ شاعر قرطبي جوهرا ، وكقرطبي ، متجذر تماما في النسغ الذي استقطره شعراء الأندلس . وقد ترجموا له عام ١٩٤٩ في مجلة « المعتمد » لـ ترينا ميركادير ، التي سنتكلم عنها فيما بعد ، الـى العربية قصيدة « الاحتيالات » التي لم يكن يستطيع ان يكتبها الا شاعر من قرطبة . ونشر عام ١٩٥٧ في مدريد « مرثية مدينة الزهراء » هذا الكتاب العظيم التي يتفكر فيه الشاعر وهو يتأمل آثار مدينة الخلفاء المهدمة سرعة زوال الحب ، السعادة والجمال . وهو على امتـداد قصائده الثلاثة والثلاثين ، التي تشكل المرثية ، لايناجي مدينة الزهراء باسمها الا مرة واحدة . المدينة او ذكراها حاضرة في كل القصائد مثل قوله : « في شوارعك تتبادل الظلال القبلة الاخيرة » . او مثل تسميتها بـ « المدينة المختفية / التي تتحدث عنها / وثائق وآثار باطلة / خفيف خفيف النباتات ». و«شاعر عربي» قصيدة اخرى في هذه الجوهرة مدينة الزهراء ، وكذلك يشير الى نفسه ، شاعرا عربيا ايضا .

سأتكلم الآن عن المجلة الاسبانية ـ العربية «المعتمد» وعن مؤسستها الشاعرة ترينا ميركادير ، التي عاشت في مراكش سنوات طويلة ، في البداية في العرايش ومن بعدها في تطوان، قبل أن تعود الى اسبانيا لتموت في غرناطة . وقد نشرت المعتمد بين العرائش وتطوان ، من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٦ . لكن عام ١٩٥٣ وحتى ١٩٥٩ ظهرت في تطوان مجلة مزدوجة اللغة أيضا ، هي « كتامة » وكانتا مجلتين متوازيتين لذلك اعتقد ان من الضروري الاشارة الى الثانية ، رغم انني كنت مديرا لها ونشرنا في الاثنتين أول قصائدنا نحن الاسبان المقيمين في شمال مراكش. الى جانب الشعراء المراكشيين وشعراء عرب آخرين . وكانت كلا المجلتين تقترح الاهداف نفسها ، او شبيهتها ، نشر شعر أسبان تلك الايام وشعر كبار الشعراء السابقين في مراكش وفي العالم العربي ، أو شعر الشعراء العرب في تلك الايام وما سبقها في المجال اللغوي الاسباني .

وكانت المعتمد « تفضل الشعراء الاسبان الذين لهم علاقة مامع ماهو عربي ،وكانت تحث المتعاونين معها للنزوع باتجاه ما هو شرقي . وقد اعطت ترينا ميركادير الشاعرة الرائعة المثل في مجلتها ـ وعرضيا في مجلتي ومنذ اللحظة الاولى ـ من بين قصائدها العديدة التي نشرت آنذاك اريد ان أذكر ، بشكل خاص « مرثية الى المعتمد » ، التي كتبتها ترينا ميركادير بمناسبة زيارة الشعراء لأغمات ، قرب مراكش في جنوب المغرب ، بحثا عن قبر الملك ـ الشاعر المعتمد ، الذي مات اسيرا ، منفيا من مملكته في اشبيليا عن ارضه الأندلسية . « اين انت كي نلقاك / ياسيد النجوم/ وسلطان كل نسمة ناسجة للماء » هذه القصيدة التي لها خط قرطبي مجلة « كانتيكو » تماما ، وقد نشر ريكاردو مولينا ، المذكور آنفا في عدد « المعتمد » نفسه قصيدة مترجمة أيضا الى العربية .

وميغيل فرناندث ، مثله مثل فرانشيسكو سالفايرو ومثلي ، ارتبطنا جميعا بمجلة ترينا ميركادير و بـ « كتامة » ، نظرا لاقامتنا الطويلة في شمال مراكش ، نشر مجددا وكما قلت سابقا قصائد تلك السنوات

وقصائد اخرى كثيرة بعدها في كتاب « نيران الذاكرة » حيث نستطيع أن نجد عناوين مثل « نشيد لاجل غابة باب شكر » ، « مخيم المعجزة » ، « مولاي ادريس ليلا » ، « تكريم ابن عمار السيلفسي » أو « غرفة الخزف » وهذه القصيدة من اجمل القصائد واكثرها تجذرا في الموضوع العربي ، سواء من ناحية الاشارات الى تاريخ الاندلس في مخيلة الشاعر ـ افريز الخزف العظيم هذا ـ او من ناحية اللعب بالالفاظ والمفاهيم المتكررة والذي سيتوجه نور الأندلس . لسالفايرو نستطيع ان نذكر قصيدة ، « شاون » او « هنا في هذه الأرض » من بين الكثير مما نشره في مجلة « المعتمد » أو ظهر فيما بعد في كتبه .

ومن تلك المرحلة ـ الخمسينات وما تلاها ـ ايضا القادشي فرناندو كينيوس ، رغم ان كتابيه « اخبار الأندلس » و « ابن حقان » لم ينشرا حتى عام ١٩٧٠ . وقد قدم هذان الكتابان نفسهما كاعادة خلق شامل للاندلس العربية : « ان تحيي بقصائد من ايامنا ـ كما قال ـ شيئا من ذلك الاندلس . تلك هي المسألة ، الشعر والتاريخ معا » . هنا يختلط النقل الذي لا يكاد يناله بعض اللمسات لمراسيم عامة وقصائد على طريقة بعض الشعراء العرب ـ الاسبان ـ محدثا بعض الأشكال المستعربة مثلاً « الأوكوشة » ، الموشحة والخرجة والزجل ....

وفي نهاية هذه الرسالة هناك خواكين بينيتوده لوكا وخيسوس ريوساليدو،وهما شاعران اسبانيان اقاما ، وان في مراحل مختلفة لعدد من السنوات في دمشق ، وكلاهما قشتلاني ـ مانتشي . الاستاذ خواكين بينيتو ده لوكا عمل مديرا للمركز الثقافي الاسباني في دمشق ، حيث ظهر القسم الأكبر من كتابه « اغواءات » حيث جميع قصائد الباب الثاني تقدم برهانا على استعرابه . هكذا مثلا « القافلة » ، « هذه الجبال » ، « ليل الصحراء » ، « النبي » ، « تدمر » وأخرى غيرها . وبعد عودته الى اسبانيا كتب قصائد اخرى مثل « ارض لبنان » ، او « الصديقة ذات

العيون الحزينة » وهذه الاخيرة على طريقة الشاعر الثوري نزار قباني ، الذي عاش في مدريد لعدد من السنوات ، حيث نشر أكثر من كتاب ترجم الى القشتلاتية ، واحد بمقدمة لبينيتو ده لوكا .

اما بالنسبة لـ خيسوس ريوساليدو ، فربما اننا امام الشاعر الاسباني الذي كرس نفسه ، أكثر من اي شاعر آخر ، للكشف عن اعماق ما هو عربي . جميع كتبه المنشورة تقريبا ـ «زجل كتاب الحب» ، « ديوان الظلال » ، « مقامات القرآن الخجول » و « ديدي محمود » ـ تشكل نزوعا او تفرغا لما هو عربي . او بالأحرى لذلك العالم العربي الذي استقر في اسبانيا وتحول الى عنصر أندلسنا . ان خيسوس ريوساليدو ، كعضو في السلك الدبلوماسي عين أول ما عين في الاردن ، وبعد سنوات وقد عاد الى مدريد عمل مديرا للمعهد الاسباني العربي للثقافة ، والى وقت غير طويل كان سفيرا لاسبانيا في دمشق « بالنسبة لي يؤكد ريوساليدو ـ ان افضل ما في تاريخ اسبانيا ينتهي عام ١٤٩٢ » . ضمن هذه القناعة وعملا بها ، الف جميع كتبه تقريبا ، وخاصة الاول والرابع ، وهما ، حسب ذوقي ، الأفضل . ان هويتنا الاسبانية الاندلسية الأصح ـ كما اقول ايضا في مقدمة كتابي « مراكش في الشعر الاسباني المعاصر » ـ انما صيغت خلال عصور الاندلس و « قمة اسبانيا ـ حسب ريوساليدو ـ تبدأ بالانحدار تماما في ذلك العام ١٤٩٢ » ، الذي يحدد نهاية اسبانيا الاسلامية . اتمعن في الماضي ـ صرح ريوساليدو ذات مرة ـ كي لا اتوهم ان من الممكن العودة اليه ، بل لأظهره كمثل ، كنموذج وبهذه المهمة من البحث عن الهوية او البحث عن الماهية الحقيقية لروحنا يلتزم الشاعر ، من هنا جاءت أزجاله . « زجل هو كلمة السحر عندي » يقول ويعبر عن نفسه بالزجل . « ما احاوله انما هو ان اكتب زجلا من قرننا ، لا ان اقلد ازجال السابقين لكن وعندما يحدثنا عن الجذر الشعبي العميق الذي حققه القالب ، يؤكد انه : « ومنذ القرن السابع عشر لم يعد أحد يكتب ، حسب علمي ، أزجالا بمعنى الأزجال في هذا البلد . ان اعود لأقوم بذلك ـ ينهي حديثه ـ وهو وبكل عدل ما احاوله » . ومقدمة

« موشحات » مهمة جدا ايضا . « ان موشحاتي غامضة ومتعددة المعاني ومنطوية ولها في نهايتها مخرج ، خرجة ، تشرح بكلمات قصيرة المتاهة اللغوية التي تتقدمها » . فبدلا من البحث عن الشفافية ، كما في « زجل كتاب الحب » فان ما يتطلع اليه ريوساليدو انما هو التجريب اللغوي . واخيرا اقول أن ما اراده في « ديوان الظلال » بنوع من التمرين انما هو أن يطبق على القشتلاتية الحديثة وعلى الوزن الأحد عشري نظريات القصيدة العربية .

سأنهي حديثي مشيرا ، لأن الوقت لا يسمح بأكثر ، الى شعراء لاحقين تركوا لانفسهم في كتبهم والآن او منذ سنوات قليلة أن ينساقوا نحو اغراض عربية او عربية اندلسية ، متخذينها على عاتقهم في كثير من قصائدهم . هكذا هم المذكورون في البداية انخيل غارثيا لوبث وماريا ده لوس ريس فونتس ـ الأول صاحب قصائد مثل « مرثاة على عود مطل على الليل » أو « شهادة في وطني » ، من الكتاب الذي مر ذكره ايضا ـ وكذلك الاندلسيون مانويل ريوس رويث ، الذي ليس غريبا أن نجد عنده تعبير « جرار خليفية » أو « كتابات الطوائف الكوفية والساحرة » في كتابه « المزمار » الذي يطفو في زخرفية لفظية كثيفة ، وانطونيو اباد الميلي المقيم في مالقا في كتابه « قوس القمر » حيث نجد صفحات وصفحات مخصصة لمنطقة قبداني الريفية او الى نفي المعتمد في اغمات ودون أن ننسى المدريدي لويس انطونيو ده بيلينا ، صاحب كتاب « هروب من الشتاء » حيث تكتشف في الحال بعض التأثيرات العربية كما في قصائد « الحياة السرية لبلاد العرب (الجزيرة العربية) ، « عذري » أو ملذات نصرية » .

وبهذا انهي مداخلتي .

ملف ...

أيام الثقافة الاسبانية

العربي

وحركة التعاطي مع ماهو عربي في الأدب الاسباني المعاصر

بقلم : خيسوس ريوساليدو
ترجمة : رفعت عطفة

صار مالوفا القول بان الموضوع العربي والشرقي هو احد الموضوعات المفضلة في الأدب الاوروبي الغربي منذ فجر الرومانسية ، بل ومنذ الباروكية في القرن الثامن عشر . فالموسيقي موزارت ، الذي سيحتفل بذكراه المئوية الثانية عام ١٩٩١ ، اشار الى الموضوع العربي ، وان كان عبر غربال تركيا ، في اوبرا ((اختطاف سيراليو)) وقد اختار القشتلاتي دومينغو باديا ، وهو احد اشهر الرحالين الأسبان في ذلك القرن .

البلاد العربية لتنقلاته السياسية ـ الجغرافية ، واتخذ الاسم المستعار علي باي. وقد اسلم هذا الرجل وكان احد اوائل الاوروبيين الذين حجوا الى مكة والمدينة . وقد حافظ ، كوكيل لجلالة الملك دون كارلوس الرابع ، على اتصالاته الدبلوماسية مع كثير من البلاد العربية وبخاصة مع مراكش . وقد اعيدت طباعة صحيفته اليومية ، التي اسماها « اسفار الى مراكش » في اسبانيا باشراف المستعرب والدبلوماسي سالبا دور باربيرا ، الامين العام للمعهد الاسباني العربي للثقافة في وزارة الخارجية الاسبانية .

ان نماذج العربي ، الفارس ، النبيل ، المهذب مع السيدات او الخادم ، والظريف المستنبط من شخصيات السوق او المدينة ، تكثر في الاوبرات الجدية والفكاهية في القرن الثامن ، وتصب بقوة جاذبيتها كاملة في ادب القرن التاسع عشر الغربي ، او على الاقل في جزء كبير منه ، فاوروبيو القرن الماضي ، الذين خنقتهم الازمنة الحديثة وآلة التقدم ، التي كانت قد بدأت تلتهمهم ، كانوا يبحثون عن الهرب ، الحلم ، عن احياء الماضي ثم وفي النهاية عن تأمل الفضاءات والمشاهد والشخصيات الشرقية ، وخاصة العربية ، لتحررهم ، مثلا ، من القطار «المربع» ،الذي راح يبدل وبشكل حتمي مشهد الريف ،او من دخان المعامل ، التي راحت ترتفع في كل مكان . يكفي ان نذكر هنا جوهانس بول ريتشر في المانيا ، والساندرو مانزوني في ايطاليا والكساندر تككا دوما او فيكتور هوغو في فرنسا كي نلاحظ الاهمية التي اكتسبتها تلك النزعة الجمالية والتي بلغت قمتها مع « حكايات الحمراء » لواشنطن ايرفينغ . فجميعهم يفعمون اعمالهم بالأذواق والحكايات والأجواء القروسطية والشرقية ، ولم يكن اقل من ذلك ما فعله الرومانسيون الأسبان في بلدنا وان كان بعمق اكبر ومعرفة افضل ، وان كان هذا بديهي ، بالعلم العربي وبالديانة الاسلامية في تلك المرحلة .

وبالفعل فقد كتب انخيل سابيدرا ،دوق ريباس ، عملين اساسين للموضوع العربي فيهما حضور ظاهر او مضمر . العمل الاول « المسلم اللقيط » يتعرض الى العلاقات الاسلامية ـ المسيحية في اسبانيا المسلمة

والثاني يتبنى برقة رائعة مذهب القدرية ، او المصير المحتوم ، مما يجعلنا نفكر بأن دوق ريباس كان على معرفة طبيعية ، تكاد تكون وراثية ، بهذا المذهب . انها مسرحيته المشهورة « دون البارو أو قوة القدر » . وتظهر القصور الاسلامية في اسبانيا وتحديدا قصر الجعفرية في سرقسطة في عدد من الاعمال ، من بينها « الشاعر الجوال » لانطونيو غارثيا غوتييرث ، التي استفاد منها فيردي في الاوبرا التي حملت العنوان نفسه ، وموضوعات الروحانيات ، أو السريات في « القنينة المسحورة » لايوجين هارتزينبوخ والموضوعات التاريخية عند مارتينث ده لاروسا صاحب « ابن امية » وهي مسرحية تعالج تمرد موريسكيي البشارات على فيليب الثاني عام ١٥٦٧ .

ومن جهة أخرى يجب أن نذكر شاعر بلد الوليد ، خوسيه ثوريلياس ، المتوج في الحمراء ، والذي كتب ديوانا بعنوان « شرقيات »، وكونت نورينيا ، الذي ترجم وبشكل غير مباشر وعن الانكليزية ، كثيرا من الشعر العربي والفارسي .

ويفهم من هذه الاشارات جميعها على أنها رسم اجمالي لأن الأعمال الاسبانية ذات الاجواء العربية في القرن التاسع عشر هي من الكثرة بحيث يصبح من المستحيل استعراضها موسعا هنا . والغريب ، او المتميز فعلا في اسبانيا عما في بلاد اوروبية اخرى هو استمرار ما هو عربي كموضوع بيننا بعد دخول الرومانسية مرحلة التصفية ، وتخطي مراحل الرمزية والواقعية ونفذ الى القرن العشرين ، دون أن يختفي اطلاقا ، ليس من الأدب وحسب وانما ولا من الفنون الجميلة ، الرسم والنحت والعمارة بل وحتى التصوير الضوئي .

ان تجذر ما هو عربي وما هو متوسطي (نسبة الى البحر الأبيض المتوسط)، الذي يظهر في اعمال فورتوني ، انغلادا كاماراشا وروميرو ده توررس وآخرين قد فتح المجال أمام استشراق (بمعنى النزعة الشرقية) في الرسم الاسباني تمتد تقريبا الى ١٩٥٠ ، والذي ، على فكرة،يعود اليوم بقوة. ففي العمارة ظهر اسلوب يدعى بالمدجن الجديد ،

الذي سجل حضورا كبيرا في مدريد ، في التصوير الضوئي صار التصوير بثياب ابي عبد الله « الصغير » او عديلة (اوداليكا) ، في منظر من حجر الكرتون على انه ساحة ، مسروقة من الحمراء ، موضة .

صحيح ان الرمزية والواقعية اعطتا رواية حميمية وفطنة بما هو شرقي وعربي مما اعطته الرومانسية ، لكن هذا لا يعني انه كان اقل حضورا ولا اقل اهمية من المثبتة في المرحلة السابقة . فـ « سالامبو » لفلوبير ذات استشراق عالي النبرة ، لكن « بيبيتا خيمينث » لخوان باليرا تغوص بشكل لا يصدق في مشكلة الوهم الجنسي والديني الذي جاء في قسم منه متوارثا عن العرب ، وخاصة في الأندلس وقشتالية ، وكأن القصة استخلصت من جو القاهرة أو مراكش ، اكثر مما استخلصت من جو محافظة من محافظات الجنوب الاسباني . ويبدو انطونيو ده الاركون ، في « يوميات شاهد على حرب افريقيا » يتأمل الموضوع العربي من منظور المؤرخ : وحمل احد « الوقائع الوطنية » لبيرث غالدوس عنوان « ابن امية » ، مثل العمل المذكور سابقا لثوريلياس . يستعرض غالدوس في « الوقائع الوطنية » الصفحات الاولى من تاريخ اسبانيا بعزيمة المعمم والوطني الخاصة بالعصر .

كذلك هناك بعض الحضور لما هو عربي في المسرح الموسيقي الاسباني في القرن التاسع عشر ، هناك مثلا الثرثويلات ـ الاوبرات الاسبانية ـ « بلاط فرعون » ، التي حملتها مجددا آنا بيلين الى السينما ، و «دهشة دمشق » التي تصف قصة حب معاكس ، والتي يظهر فيها بائع مصافي حب من سوق الحميدية في دمشق .

والاهتمام بما هو عربي في اسبانيا يتجاوز حتى جو الأدب الابداعي بشكل محض ، ويؤثر على العلاّمة والباحثين والأساتذة سواء أكان لأجل التحدث ايجابيا أم سلبيا عن الحضور العربي في اسبانيا ونتائجه على تشكل الشعور الوطني الاسباني . هكذا يظهر مرثيلينو ميننديث اي بيلايو (١٨٥٦ ـ ١٩١٢) معارضا للاعتراف بالقيم العربية في الثقافة الاسبانية ويعتبر ان الجوهر الاسباني يجب أن يكون كاثوليكيا وأوروبيا. هذا ما يقوله في كتابه « تاريخ الملحدين الاسبان » . بينما يقترب انخيل

غانيبت في بحثه « غرناطة الجميلة » من المطالبة بماضينا العربي بتوازن اكثر وعاطفة اقل من الرومانسية .

هذا النزاع بين محبي العرب وكارهيهم سيطول لاجيال لاحقة ، خاصة بين المتخصصين واساتذة الجامعات ، فأمريكو كاسترو مؤيد للعرب في كتابه « الحقيقة التاريخية لاسبانيا » وكلاوديو سانتشت البورنوث معاد لهم في مجلده « اسبانيا ، لغز تاريخي » ومن الغريب ان نشير الى أن كلا الاستاذين ، ورغم شغفهما بالموضوع وربما انحيازهما ايضا في بعض الحالات ، يساهم بتقديم معلومات قيمة لا تقدر للتأمل في نقاط غامضة من تاريخ الاندلس ، فحتى يومنا هذا أنا شخصيا ومستعربون آخرون ما نزال نجد في نصوص هذا المعادي للعرب الساذج قليلا ، والذي هو سانتيث البورنوث ، مصادر اكثر ومعلومات افضل لفهم عرب اسبانيا مما في كتب المستعربين المتخصصين تماما ، لذلك فعمل الاثنين يجب أن يشكل راس قائمة الكتب التي لا غنى عنها في اسبانيا لكل من يرغب في هذا النوع من القضايا .

من بين الأخوين الشاعرين الشهيرين انطونيو ومانويل ماتشادو ، كان مانويل هو الذي اهتم اكثر بالعرب في اعماله .. وانطونيو ، رغم انه كان افضل مكانة الا انه لم يفعل ذلك الا بشكل غير مباشر عند الحديث عن الاجواء الاشبيلية ، وفناءات الدور وحقول الليمون التي عرفها في طفولته ، قبل ان ينتقل الى شمال قشتالة . مانويل ماتشادو هو مؤلف القصيدة المعروفة « الدفلى » ، حيث يصف بدقة رقيقة حساسة وفطنة جَبَلَة الناس الذين جاؤوا الى وطني « ويؤكد انه » من سلالة عربية ، صديقة الشمس الأزلية / الذين ربحوا كل شيء ، ثم فقدوه / روحي من سنبل الطيب روحي ، عربية اسبانية .

ورغم ان خوان رامون خيمينث ، الشاعر والحاصل على جائزة نوبل لم يكن مرتبطا بماهو عربي بشكل مباشر وانما بما هو شرقي وبالتحديد بما هو هندي فانه لا يضير ذكره ، فقد قام وزوجته زنوبيا كامبروبي بترجمة رابيندرانات طاغور ، احد الشعراء الذين يشكلون نقطة علامة بالنسبة لجيلنا . من اسلوبه وطريقته في العمل ينحدر وبتأثير من كتاب

آخرين لهم علاقة قريبة بالعالم العربي . مثل خوان خوسيه دومينتشينا، الشاعر الذي ينتمي لجيل ١٩٢٧ في « ديوان الزولا غريب » و « حدائق حفصة » ولا يمكن العثور على هذه القصائد الاخيرة الا في الطبعة الوحيدة التي بترخيص من ارملته ، اصدرتها مختارات شعر جمعية ربيندرانات طاغور الثقافية ، التي لي شرف رئاستها .

ومن جهة اخرى ليسوا قلة الكتاب الذين جمعوا بين دراساتهم الضليعة او العلمية وبين الابداع الادبي . دامسو الونسو . مثلا ، حقق مساهمة مهمة حول مجموعة أشعار أوبسالا ، في كتابه « ربيع الشعر الاسباني المبكر » . هذه المجموعة ، المحفوظة في السويد تبرهن وحسب المستعرب ستيرن ، والاستاذ الاسباني غارثيا غومث والونسو نفسه ، الاصل الاسباني العربي للشعر الغنائي الاسباني الكلاسيكي. وقد اعطى اميليو غارثيا غومث المذكور دفعا استثنائيا للمعرفة بما هو عربي عندما ترجم وبشكل مباشر اهم الشعراء الأندلسيين ، وترجمته رقيقة ودقيقة ، حتى انه يمكن القول وبلا شك ، انها ليست مجرد ضلوع في المعرفة وانما ابداع ، وابداع من الطراز الأول .

وعندما نشير الى النصف الاول من القرن العشرين ، يصير لا مفر من ذكر فرناندو بيليالون (١٨٨١ ــ ١٩٣١) وفيديريكو غارثيا لوركا (١٨٩٩ ــ ١٩٣٦) ، وكلاهما اندلسي ومشبع بالاستعراب ، سواء في شكل او مضمون شعره . فبيليالون له « اناشيد الثمانمئة » ، التي لا يمكن ان تقارن وبكل عدل بـ « نشيد الفجر » لغارثيا لوركا ، حسب ما يقول غونثالو توريته باليستر في كتابه « بانوراما الادب الاسباني المعاصر » ، صفحة ٣٨٣ وفيدريكو غارثيا لوركا ذو شهرة هي من الذيوع بحيث تعذرنا ، للتأثيرات التي نريدها ، عن التوسع بالاشارة اليه . لكنني اريد ان اقول انه يملك دواوينا ذات عناوين عربية تماما مثل « ديوان تامريت ». حيث يسمى قصائده «قصائد»وحيث يسترجع بعض الأزجال الاسبانية العربية التقليدية ، مثل « مسلمات جيان الثلاث »

دائما كان غريبا بالنسبة لي ان لا يضم اطار التأثيرات العربية في الأدب الاسباني واحدا آخر من عظماء الشعر الغنائي ، انه رفائيل

البرتي ، ان خلو أعمال البرتي مما هو شرقي امر واضح . وفقط اذا ما اجهدنا انفسنا يمكننا ان نعثر على ما يعوض هذا الفراغ وذلك في اهتمامه بما هو امريكي جنوبي ، لونا وعرقا ، في كوبا والكاريبي ، في فنزويلا والمكسيك ، وذلك كي نبرر على الأقل ذكره في هذه الاسطر .

ان حضور اسبانيا في شمال مراكش ، من عام ١٩١٢ الى عام ١٩٥٦ . وتكثيف العلاقات الدبلوماسية والتجارية والثقافية مع البلاد العربية اتعمل فيما بعد كوسيط . كي لا يختفي الطابع الشرقي او الاسلامي من الأدب الاسباني . او من جزء منه . وعلى الأخص من الشعر . الشيء نفسه سيحدث مع الظاهرة العكسية ، اي مع تدفق المهاجرين من شمال افريقيا الى اسبانيا ، والذي افسح المجال لمجموعة قصائدي « ديبي محمود » عام ١٩٧٥ ، وهي نوع من الرؤية المستقبلية لما سيحدث فيما بعد ، عندما ينتقل الى اسبانيا اكثر من مئة الف مهاجر من شمال افريقيا ومن بلاد عربية اخرى .

ومع ذلك ، وقبل الدخول في هذه المرحلة ، الاحدث ، من دراستنا اسمحوا لي أن انهي المرحلة التي قبلها بالاشارة الى ابرز شخصيات الاستشراق الأدبي في قرننا ، فرانثيسكو بيليا سبيسا (١٨٧٧ ــ ١٩٣٦) الشاعر والمؤلف المسرحي المولود في احدى قرى غرناطة ، في لاوخارده اندراكس حيث كانت مملكة ابي عبد الله الصغير الأخيرة والمصفرة بعد ان اضاع غرناطة . لا شك ان بيليا سبيسا يصاب بعدوى الجو المحيط به فيخصص قسما كبيرا من اعماله للموضوع العربي والغرناطي . كثيرون هم الذين يعتبرونه أدبيا وريث شاعر اندلسي النزعة ذي اصداء شرقية . سالبادور رويدا واعماله ، في اطار ما يهمنا هنا ودائما ضمن المبادىء الحديثية ، هي « كارمن » (١٩٠٧) ، « فناء الريحان » « مشرف ليندراخا » . هذه الكتب شعرية ، لكن وبالنسبة للمسرح فيهمنا ان نذكر مسرحيات من مثل « قصر اللؤلؤ » و « ابن امية » ثالث . هذه الاعمال متهمة بـ « استشراقها الكرتوني الحجر » لكنها في ايامها ، نالت

نجاحاً منقطع النظير ، وربما حتى اليوم واذا ما اخرجت بديكور اقل موريسكية ، يمكن أن تستعاد نجاحاتها .

أعتقد انني لا ابالغ حين اقول ان تاثير ما هو عربي والاستعراب في الادب الاسباني ، بعد الحرب الأهلية الاسبانية ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، كان شعريا اكثر من اي شيء آخر . على كل الاحوال ان بيان التأثيرات على الشعر ، على النثر والمسرح يميل بوضوح لصالح الشعر ، مما يجعل النوعين الآخرين ، الا في بعض الاستثناءات الرائعة . مثل استثناءات خوان غويتيسولو او انطونيو غالا في مرتبة ثانية تماما .

ربما كان القرطبي ريكاردو مولينا هو الذي عاد ، ومن خلال مجلة « كانتيكو » (١٩٤٧) ، ووضع موضوع ما هو عربي وما هو مسلم موضة في اسبانيا ، خاصة بعد ان نشر « مرثية مدينة الزهراء » عام ١٩٥٧ . وفي هذا الاطار يمكن ان نذكر ، وان كان بشكل اخف ، بابلو غارثيا بائنا وخوان بيرنيير . وقد استمرت « كانتيكو » بالظهور حتى عام ١٩٥٦ .

الشاعران الميلليان خاثينتو لوبيث غورخه وميغيل فرناندث كانا ايضا على راس مجلتين لهما طبيعة عربية ــ اسبانية خلال تلك السنوات، ولم يكونا غير « مانانتيال » (الينبوع) و « الكاندارا » . ويقدر ايضا الناقد والشاعر لويس خيمينث مارتوس أن استمرارهما انما كانت مجلة الجزيرة الشهيرة : « باهيا » .

و « صلاة اندلسية » ، لألفونسو كاناليس ، المنشورة عام ١٩٧٣ ذات نزعة اندلسية غريبة ، بينما « الرمل والاحلام » ، الذي نشره له لوبث لويس لوبث انكلادا عام ١٩٧٢ ، القصائد الصحراوية ذات النزعة الافريقية نظرا لمهنة صاحبها العسكرية . ان هذا الشاعر الضابط شاعر رائع ، والذي حصل بديوانه « اغنية الى طارق » ، مجموعة قصائد فتح العرب لاسبانيا،على جائزة ابن خفاجة من معهد الثقافةالاسبانية العربية من المعهد الاسباني العربي للثقافة عام ١٩٨٣ .

بالطريقة نفسها التي كانت للعسكريين كتب الدبلوماسيون ايضا ، بسبب عملهم المتنقل ومهنتهم ، في اسبانيا ما بعد الحرب ، حول ما هو عربي وحول الاستعراب . لأتكلم عن حالتي نفسها ، وانتم تعرفون ان سيرتي في هذا المجال مزدحمة جدا ، بدءا من « زجل كتاب الحب واشياء اخرى » عام ١٩٦٩ وانتهاء بـ « وكان شكوكا » الصادر عن دار طلاس في دمشق ١٩٩١ . ومن خلال ثلاثين كتابا طبعا ليست جميعها شعرا وانما فيها كثير من البحث والتحقيق ، مثل « مجموعة اناشيد اويسالا » او ترجمة ، واود ان اذكر هنا اسم انطونيو سيرانو ده آرو ، الذي كان مثلي ومثل سالبادور باربيرا ، السكرتير العام للمعهد الاسباني العربي للثقافة وسفيرا في استوكهولم . وسيرانو له « مدينة الليل » الرائعة التي نشرها في ايرنسوالا عام ١٩٦٧ تحت الاسم المستعار ا. جبلي ، والتي تبعتها اعمال اخرى لها الالهام نفسه . وقد اعطى فرانشيسكو اوتراي ، الذي كان مديري في ذلك المعهد ، للصحافة « ازهار » المفعم بالاشارات الاندلسية ، والفارسية والافريقية . هناك كثيرون يمكن ان يذكروا هنا لكنني لن افعل للاختصار ، ليس إلا .

لقد احيا ريكاردو مولينا في قرطبة وانا في مدريد الشعر الغنائي الاندلسي القديم ، وخلقنا نوعا من الموضة ، التي انضم اليها وفي الحال تقريبا الميليان المذكوران آنفا ، وبخاصة لوبث غورخه ، الذي كتب سلسلة من القصائد عن منطقة كتامة ، في شمال مراكش وعن ذلك البلد بشكل عام . كذلك انضم آخرون فيما بعد الى هذا المركب ، مثل فرناندو كينيونس وكونثشا لاغوس في « مرثياتهما للوادي الكبير » . وقد حصلت كونثشا لاغوس على جائزة ابن زيدون من المعهد الاسباني العربي للثقافة عام ١٩٨٣ . هناك من تبنى موقفا حازما في تأييده للعرب في حالات قضايا سياسية محددة لهذا الشعب ، وبخاصة ، القضية الفلسطينية ، كما كان ومايزال حال مانويل باثكيث مونتالبان ، المولود عام ١٩٣٩ . وباثكيث مونتالبان صحفي ، مثل انريكه باثكيث ايضا وكلاهما محيي للنقاشات

والبرامج ذات الصبغة العربية انطلاقا من وسائل نشرهما ، كلٌ من خلال وسائل نشره ، وبخاصة التلفزيون العام والخاص .

جميعنا ، نحن الذين نشكل « مجموعة دمشق » هذه ، وربما كان من المناسب ان نبدأ لنسميها هكذا ، كانت لنا ارتباطاتنا الاستعرابية ، لكن اسمحوا لي ان اذكر بخاصة أولئك الذين حصلوا على جوائز المعهد الاسباني ـ العربي للثقافة ، مثل كارلوس مورثياني ، الحاصل على جائزة ابن زيدون عن كتابه « ربما عيناي البطيئتان » وكارمينا كاسالا الحاصلة على جائزة ابن خفاجة عن كتابها « الآن والطحالب تحتضر » . ربما كانت الجوائز اهم ما ساهمت في تقريب الاستعراب من شعراء لم يكونوا قبلها مرتبطين به بشكل مباشر ، مثل خوسيه غارثيا نييتو ، الحاصل على جائزة ابن زيدون عن ديوانه « غاليانا » ، الذي يدور حول القصر المدجني الذي يحمل الاسم نفسه في طليطلة ، وخوان فان هالين ، الحاصل على جائزة ابن خفاجة عن كتابه « جواد الحلم » ، أو لويس خيمينث مارتوس، جائزة ابن زيدون ١٩٨٧ ، وهو آخر من حصل عليها قبل أن ينتقل المعهد الاسباني العربي للثقافة الى ايد اخرى غير يدي ، وذلك عن كتابه « قصيدة الحدثان الطيب » .

اما فيما يتعلق بالمسرح ، اضافة الى الاكثر قدما ، مثل ادواردو ماركينا ، الذي كتب نوعا من « المسرح الشعري » ، بعناوين من مثل « كان يا ما كان في بغداد » والمرحوم الفونسو باسو ، الذي كان كاتبا مسرحيا محبا جدا للعربي ورئيسا للبيت الاسباني العربي في مدريد ، كما هو حال انطونيو غالا الآن ، رغم ان المؤسسة التي اشير اليها اختفت منذ سنوات . وخوان خوسيه الونسو ميليان ، رئيس الجمعية العامة للمؤلفين في اسبانيا ، ينظر الآن في نشر مسرحيتي « ولاّدة » عن اميرة قرطبة الأموية الشهيرة وحبيبها ابن زيدون ، في مختارات هذه المؤسسة . وانطونيو غالا بخاصة اعماله مفعمة بعبق الاندلس والعرب بدءا من « خاتمان لاجل سيدة » وحتى كتابه الحديث جدا الحاصل على جائزة بلانيتا ، « المخطوط القرمزي » وهذا الاخير ليس مسرحية وانما رواية .

فرانثيسكو أيالا ، الاكاديمي ، نشر سلسلة من الكتب عن الاجواء الموريسكية ، وهي ذات فطنة رائعة ومعرفة كبيرة بعقلية الشعب الاسلامي الاسباني ، والتي افضل منها « قعر الكاس » ، وبعض الدبلوماسيين ساهم بنصوص نثرية وروايات ، مثل فرناندو شوارتز ، في « مؤامرة الخليج » وانطونيو فورنيير في « المد الاسلامي » .

عادة ما اختم كلماتي ومداخلاتي بترجمة نص ما من الادب الاسباني المرتبط بالعلم العربي ، لانه يبدو لي ان التأثير العربي في ادبنا مستمر ، وليست هذه بالمناسبة التي يتخلى فيها المرء عن تقاليد صحية ، لكن اسمحوا لي قبل ذلك أن اشير الى ان التأثير الشرقي الاستشراقي في اسبانيا لا يقتصر على مجال ما هو عربي وانما يضم ايضا ما هو فارسي وهندي ، هذا دون أن نأخذ بالحسبان الشرق الاقصى ، الصين واليابان.

وكبرهان على ما قيل ، هو ذا هناك الشاعر فيليكس غرانده الذي نشر عام ١٩٧٨ « رباعيات اورائيو مارتين » ، محاكاة لرباعيات عمر الخيام ، ذات صبغة حزينة ، وتصور وعرض جيدين . ومع ذلك فليس من الممكن أن نشير هنا الى جميع التأثيرات الشرقية في الادب الاسباني المعاصر .

لنأت اذن الى قصيدتنا الاخيرة ، التي لن تكون هذه المرة قصيدة « دقلي » المعروفة جدا لمانويل ماتشادو ، وانما « جزر الوادي الكبير » لـ فرناندو بيليالون ، التي ترجمها محمود صبح لطبعة كتاب المعهد الاسباني ـ العربي للثقافة « مختارات من الشعر الاسباني » عام ١٩٧٩ ، الجزء الذي كان لي شرف التقديم له :

مُفْضَضٌ البيت ليس أزرقَ هذا النهرْ
لأنَّ البحرَ المحيطَ يحرّك له احشاءَهْ
وحوافَهُ الجرداءَ بلا ظلِ دوداد

ولا خضرةِ قصبٍ تتخدرُ برداً .
في السهوب القاحلة كان شريطاً من فضة
من معبدِ فينوسَ الذي كان قائماً في سانلوكر
يروي الأغوارَ إلى أن يتواعدَ في اشبيليا
كي تتنزّه الالهةُ في الغرضةِ .
على ضفته الخصيبة تجارُ الثيرانُ السوداءَ
والمهار تشِبُ ... فارسٌ راعٍ
يتنزّهُ برمحهِ وسرجهِ العربي
تراهُ واحدٌ من بني سراج ... ام عربيٌ محاربٌ
لم يرضَ استسلاماً حين احتلالِ اشبيليا ؟
شراعٌ ابيضُ ناصعٌ يجيءُ على وَقْعِ المدِّ .
يقفو البحارُ وكلبٌ في الدفة
يظهر جالسا ويحرك ذيله ،
الى ان يوقظ صاحبه النؤوم
باخرةٌ تاتي في الخلفِ ، ها ضجيجُها يسمَعُ ...
رافدتُها تلامس قاعَ القناة ،
تتقدمُ صافرةٌ فيهربُ الشراعُ
ويولي ثورٌ ، كان يشربُ ، الأدبارَ بين القصب .

* * *

آفاق المعرفة

ملف ...

أيام الثقافة الاسبانية

مدينة دمشق

في عيون شاعر اسباني

بقلم: خواكين بيينشوده لوكاس
ترجمة: رفعت عطفة

منذ سنوات وانا مهتم بالرؤية التي يقدمها المسافرون للبلاد والمدن التي يزورونها ، وبالكتابات التي يخلفونها لنا عنها . بثقافة تكاد تكون دائما مختلفة عن ثقافة أهل البلد الذي يطوفونه ـ خاصة عندما يكونون مسافرين من جنسيات اخرى ـ وبحساسية مختلفة ونظرة نقدية ، سواء اكانت اجتماعية او

فنية، فان عيونهم التي هي دليل طريقهم تقدم منظورات جديدة، تكتشف بلادا كانت حتى ذلك الوقت مجهولة ويظهرون آراء واحكاما تجعل ابن البلد يتفكر ماذا يقول عن مظاهر الواقع في أمته ، والتي لم يستطع التعرف اليها لانه اعتاد على تأملها وسماعها .

لقد وصل الى اسبانيا وعلى امتداد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عدد من الزوار الاوروبيين ، يقولون لنا عنها اشياء كثيرة بحيث اننا عند قراءتها اليوم نتساءل ما اذا كان للجميع الهدف نفسه عند اكتشافها، الغاية نفسها عند الحكم عليها والرغبة نفسها بالفهم . أو اذا كان ، العكس كانت عينهم المتفحصة تنظر بأوهام بلده الاصلي الظالمة بل وحتى بموقفه المحتقر لكل ما لا يعترف به ويحبه كشيء خاص .

وقد قمت بنفسي ، منذ سنوات عديدة ، بعمل قصير حول رؤية مسافر متنور من القرن الثامن عشر ، هو انطونيو بونث ، عن مدينتي تالابيرا (تل ابيريا العربية) .

ضمن عملها المسهب « اسفار اسبانيا » ومنذ اكثر من سنتين بقليل كنت عضوا في لجنة التحكيم لرسالة الدكتوراه ، الرائعة بالمناسبة ، للاستاذة اللبنانية ناديا ظافر شعبان : « لبنان في عين الرحالة الادباء الاسبان في نهاية القرن التاسع عشر »(٢) .

ما اريد ان اتحدث عنه اليوم بايجاز انما هي الانطباعات التي خلفتها دمشق وقسم من سورية عند شاعر اسباني بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٢ . والآن حسن ، فان ميزات هذه الانطباعات سوف تكون مختلفة تماما عما يمكن ان يعطيه مسافرون آخرون . وسوف تكون مختلفة لانها مكتوبة شعرا . والتفسير الذي سأقدمه عنها سوف يكون خاصا ، ذلك لان المسافر صاحب هذه الانطباعات انما هو انا . حتى انني أستطيع ان اقول إنّ انطباعاتي ليست انطباعات مسافر ، بل انطباعات من شعر ومنذ لحظة وصوله الى البلد بانه مقيم في البلد .

وبالفعل ما ان انهيت دراساتي في جامعة مدريد في ايلول ١٩٦٠، حتى سميت مديرا للمركز الثقافي الاسباني في دمشق . وصلت الى دمشق في

نهاية ايلول . وكان ذلك أول احتكاك لي بالعالم العربي ، لان اجازتي كانت في فقه اللغة الرومانية . وكانت الدهشة امام أشكال الحياة غير المعهودة بالنسبة لي ، وكذلك الاعجاب ، الذي تحول فيما بعد الى حب ، عندما اضفيت عليها معنى الحرية ، والجمال ، ولماذا لا أقوله ، الغرابة ، التي تركتني في انبهار . مازلت أتذكر ميناء بيروت والسفر في السيارة الى دمشق بالاثارة نفسها التي شعرت بها منذ ثلاثين عاما !

اقمت في المركز الثقافي الاسباني ، في حي المهاجرين ، شمالا في الجزء الاعلى من المدينة ، تحت ظلال حماية قاسيون . وكان هذا الجبل ، صعب المسالك نظرا للطريق المرتفعة ، حيث يوجد في أعلى نقطة فيه التلفزيون السوري ، أقول كان هذا الجبل بالنسبة لي ومنذ وصولي الى دمشق هاجسا حقيقيا . خلف قاسيون كانت تتفتح الصحراء ومن اعلاه كان يشاهد سهل الغوطة المستحمة في بردى . ها قد أعلنت عن عناصر ثلاثة شدتني بشكل خاص منذ اللحظة الاولى : الجبل ، النهر ، والصحراء .

وبسرعة راح الجبل ، جبل قاسيون يشكل جزءا من حياتي اليومية. ان جفافه في الصيف ، قمته التي تغطى بالثلج احيانا في الشتاء ، كانت تمثل بالنسبة لي روح اهل هذه المدينة : قنوعون ، صبورون ، هادئون. بهذه الانطباعات بدأت اكتب ديوان شعر عنوانه « اغواءات »(٢) الذي أنهيته في برلين عام ١٩٦٣ ونشر بعد عام في مدريد . في قصيدة منه ، ربما كانت من اوائل القصائد التي ألفتها تظهر العناصر الثلاثة التي اشرت اليها : الجبل ، الصحراء ، والنهر . ها هي القصيدة :

هذه الجبال التي ترفع عمامتها ثلجها
نحو السماء ، ليست لي .
لكنني اعيش عند اقدامها . وعندما تشرق
يهبط النور يبحث عن الفرح
في المدينة . واذا ما وضعت اذنك
على هذا الجبل ، اذا لصقت خدك

بحرارته سمعت النهر الذي يمر .
ورغم ان البحر يغنيه على ضفافه ،
فانه لا يبحث عن البحر ، بل عن الصحراء
مسكن الضباع والجمال .

انه مثل اهل هذا الوطن
وله مسيرة ايامهم نفسها .
بعيدا عن مدّه المنقذ ،
وفي ملاذ من هبوب النسمة
يخافون البحر ويغزون في السير
بقوافلهم الباردة باتجاه الصحراء .(٤)

هذا الجبل ، جبل قاسيون ، الذي تبدل كثيرا اليوم ، هو الذي اغنيه في القصيدة . هذا الجبل الذي عشت عند قدميه ، والذي اتخذته، كشيء خاص بي ، والذي كنت أرى النور يهبط منه كل صباح الى المدينة التي كانت تستيقظ على خرير مياه بردى ، كان من قيودي الاولى التي ربطني بدمشق .

وانا من منطقة في اسبانيا، هي قشتالة ــ لامانتشا في محافظة طليطلة، وكما كنت قد قلت من مدينة تالابيرا ده لا رينا ، التي تستحم أيضا بنهر، هو التاج ، ذات الشتاءاته الباردة والاصياف الحارة . لذلك لم يفترض طقس دمشق بالنسبة لي اي جدة. فقد كنت أتحمل شتاءاته جيدا وأحب أصيافه الحارة . والى جانب المناخ الجوي كنت أعاني من شيء آخر ذي صبغة روحية : وحشة الاجنبي في بلد يكتشفه للتو مما كان يجعلني أفكر بالمراة ، التي سأتزوج منها لاحقا ، وبالتحديد فهنا في دمشق ، وكانت موجودة في جنوب فرنسا تنتظر الاجتماع بي . في قصيدة اخرى من « اغواءات » عنوانها « مناخات » أصف انطباعتي عن طريقة حياتي في الشهور الاولى مقارنة بالحياة التي كانت لزوجتي المستقبلية في بلاد الباسك الفرنسية .

« مناخات »

مناخك ومناخي
الذي اعيش فيه الآن ،
مختلفان . لك امطار
هائلة ، تهرب احيانا
من عينيك احيانا عندما
تذكر اسمي .
لعينيك جبل صاف مساطع ،
ايام الشمس وبحر مثل جواد
غاف دائما على خبب ظلك .
ليـــس
لي بين يدي غير
جبـــل ملتـــو
وســـام كفكرة
ترتعش ان هي لمست ،
نجوم مسلمة
لتتلألأ دائرية لا تتعب ،
صحارى وغزلان ،
ضباع قرورة ، مغامرات
قصيرة بلا فراش ،
ملاءات بيضاء ، اعناق حمام ،
وامام نافذتي مسجد
ابيض القبة ، دائريها تحت الشمس .(٥)

المسجد . ها هو عنصر آخر ذو صبغة دينية ، ومع ذلك يمكن ان يعتبر كشيء جمالي (زخرفي) وغرائبي في القصيدة . لكنني لا اظن هذا الاعتبار صحيحا . ورغم أنني لست متدينا ، لكنني مع ذلك تهزني جميع المظاهر التي لا تبحث في الدين عن غذاء الايمان الذي يرتفع بالمؤمنين فوق عالم المحسوسات وحسب وانما ايضا عن غناهم الروحي والأخلاقي . من هذا المنظور كتبت قصيدتي « النبي » . ثم علي أن أعترف بأن الجو الديني الذي اعتّقدت انني التقطه من حياة المسلم المعبر عنها بالأذان جعلني اتصور لوحة مثلت فيها الأيام الأولى للدعوة الاسلامية .

النبـــي

ينشد النبي جهما كفراش أرملـة
نقيـا تحـت الشمس
تنفتـح الصحـراء
تبحث امواج رمالها عـن البحر ،
حاملة الكلمات التي اطلقها المختار .
هكذا تمضي الحجارة
ضد ظهـر الجمال ،
على جسد الضباع المنزلق
والأفاعي . بدو ورجال قوافـل
من بلاد اخرى يعبرون ليستمعوا اليه .
عمامته تلمـع بقـوة الحقيقة .
ذراعـاه نهـر
عينـاه غابة ، راسـه
شامخ نحـو الشمس ، لحيته
المفعمة بالزبد ترتعش
تحت المعجزة ، التي حطمت

بدورها كـل القيود .

حوله ، وهو الذي تفوح منـه رائحة

الماعـز والنقـاء ،

التعب والنسيان ،

الـف عين تتا ملـه ،

آملة أن يتخذ العالم

بكلماته شكلا جديدا .

لكن المساء يمضي

وتاتي النجـوم .

يتراجع الرجـال

ويبحثون في خيام الأحلام

عن تلك المعجزة التي تنكرها عليهم الحياة .

بينمـا المختـار

وسط الرمل الى الله

ويهـز راسـه .

الى جانب الحياة البسيطة للمدينة المملوءة بالالوان وبالايقاع السريع والرزين ، الى جانب الأصالة الموحية للاسواق ، الشبيهة بالمنظار السحري المبهر ، والتأملات الدينية التي كانت تحيط بالمسجد الاموي ، الـذي كنت اتنزه حوله كل صباح مع شروق الشمس تقريبـا ، فتتمثل لي الصحراء كفكرة مسيطرة ، كشغف . (لقد راينا أن الصحراء هي الاطار الذي تتطور فيه دعوة النبي في القصيدة السابقة .) وهكذا شرعت ذات يوم في السفر الى تدمر . وقد نتج عن هذه الرحلة قصيدتان ، حيـث حاولت أن اعبر عن انطباعاتي كمسافر .

في واحدة منهما وهي بعنوان « ليالي الصحراء » حاولت أن اخلد ذكرى الليلة التي قضيتها في تدمر . لكن ، ما الافكار التي كانت عندي

عن الصحراء ؟ سأقولها بأبيات الشاعر عبد القادر الأمير الجزائري الذي قاتل الفرنسيين . وانتقل بعدها الى فرنسا ثم الى سورية . وتوفي ١٨٨٥ . لقد كانت الصحراء بالنسبة لعبد القادر ولي « سجادة رملية » حيث « تبدوالحجارة لآلىء» مليئة بالحدائق «مفعمة بالعطور»، «مزخرفة بكل حظوظ الجمال » ، وحيث كان الهواء يأتي بعبق « النباتات العطرة »

لو كنت تدري ما الذي تنطوي عليه الصحراء ،

لفهمت ما اقول ،

لكنك تجهل كل شيء ،

وكم من الضرر في الجهل !(٧)

هذه النظرة عن الصحراء . سواء اكانت ادبية أم لا . هي التي كنت اشارك فيها الشاعر الجزائري . ومع ذلك فان مساهمتي في ادب هذا الموضوع كانت متواضعة جدا بالمقارنة بمساهمة عبد القادر . وتلكم هي القصيدة :

عالية ومرصعة بالنجوم

ليالي الصحراء .

يجيء الهواء

بعبق مدن بعيدة ،

والنخيل الأخضر

وحيدا وعفيفا

يحرك اوراقه الخضراء

الموجهة الى صدر

الصباح الأسود

كالرماح الحادة .

وما عدا ذلك ليس غير الصمت .

يرتفع احيانا
عواء ثعالب ،
والغزلان تعبر
سريعة ، وعيونها
تمكث في الهواء
مثل لهب خافت .
وما عدا ذلك ليس غير الصمت .
مع أن الرمل يغني
والنسيان يغني
ومع أن الجبال تغني
بلسانها الرملي المعذب
فما عدا ذلك ليس غير الصمت
بينما الليل يمضي .(٨)

وتحمل القصيدة الثانية ببساطة عنوان « تدمر » . وأحاول فيها ان أعبر عن التأثر الشديد الذي احدثته عندي آثار المدينة القديمة . وتدمر من جهة اخرى ينظر اليها في القصيدة كرمز لنضوج الشاعر ، الذي « حررته » تجربة الذاكرة من اغواء لا يمثل هويته ذاتها .

« تدمر »

الى فرانثيسكو كريادو

احمر كان المساء
وكل حجر كان احمر
والشمس تشعلها للحظة
بلسانها الذهبي ،

لتضرب النجوم بعدهـا
خيامها البعيدة .
مسافرا في دروب الصحراء
خلف القوافل وآثارها ،
مثل صياد خلف الطيب
الذي تخلفه الغزلان وراءها ،
وصلت الى تدمـر ،
المدينة الرهينة وسـط الرمـل
كم سرت حتى
وصلت اليهـا !
مدينة قديمة في النسيان
حيث لا شيء غير الحجـر
يغني طليقـا في الهـواء ،
وقد كسرت قيودها .
اليوم وقـد ذهبتها السنون
وانضجها انتظـار .
الغـزاة الكثـر ،
الذيـن ملؤوا شرايينها ،
فانها ترنم اغنيتها الحـرة ،
في السلام الذي يحيط بها .
وحده ارتعاش النخيل
يعيش حولهـا ،
النخيل الذي يغني
حين يحس باحتكاك

الرمـل بجسده .
وحـدك تجهلين
الموسيقى التي تحملين في داخلك .
رغم انك ، في الصمت ، تسمعين
القلب ، لا تكادين . تصغين في
داخلك الى اصوات بعيدة ،
مشوشة ، كما في الحلم ، اوتار
تنحطم بلا صوت ، مطارق قاسية
تطرق سندانات الظلام .(٩)

يلاحظ من كل ما قلته كيف ان الصحراء تفرض حضورها المستمر في جميع قصائد « اغواءات » تقريبا . لو حاولت ان اشرح قيمة الأهمية التي كنت امنحها لها، لما عرفت. ربما فكرت في رؤية اسطورية ـ مسيحية للحياة في مظهرها الصوفي . وربما في حالات اخرى اعترتها كرمز لجانب من الحياة اليومية علينا ان نتخطاه بجهد . ويمكن انني في مناسبات اخرى ، اعتقدت انها تمثل المجاز الكلاسيكي العظيم للسفر المليء بالمخاطر والمحن .

يواجه الشاعر السوري : ادونيس : المولود قرب اللاذقية . الذي يتميز شعره بكتامته احيانا ، وبغموضه وقدرته على الايحاء دائما . واقع الوجود انطلاقا من افتراضات فكرية ، يحاول من خلالها ان يمنح العيش معنى . الى هذا الشاعر يمكن ان اشير في قسم من « اغواءات » ، الثالث حيث اطرح الوجود كبحث دائم . كسير دائم استقصائي : صوفية ؟ تطهر بالفن ؟ سفر ام طريق ؟ في هذا القسم الثالث المذكور . اواجه هذه المسالة غير القابلة للحل والتي هي الوجود : كصيرورة متواصلة . كـ « تحقق للكائن » مستمر .

يبدا المسافر رحلته عبر عالم يقدم نفسه مليئا بالاغواءات والمخاطر حيث الاغواء الكبير انما هو تخمين نهاية الخط والخطر الاكبر انما هو

ما يمثله المسافر نفسه لنفسه ؟ وماذا يكتشف ؟ وما هي الاخطار التي تترصده ؟ ادونيس نفسه كتب في مختاراته الجديدة « ذاكرة الريح . قصائد ١٩٥٧ ـ ١٩٩٠ » ما يلي : « سواء أكان الشعر رحلة الى حدود الخارج او الى الداخل الاكثر حميمية ، والذي هو الخارج في الوقت نفسه ، بل وخارج لا ينفصل عن الداخل ومع ذلك فقد تملكني احساس بأن عمل الكتابة يشير اكثر مما يوضح ، بالنسبة لي أكثر مما يوضح ما كنت أريد ان اظهره عني ، ومنذ ذلك الوقت لم أغير في هذا الشعور.»(١١)

لو عرفت هذه الافكار آنذاك لوددت ان أكون قد انطلقت منها . لكن، لابأس ، فلتكن مدخلا متأخرا لهذه العينة من القصائد التي كتبتها يوم كان عمري ستا وعشرين عاما . من هذا القسم الثالث المؤلف من عشر قصائد ، سوف أقدم اثنتين ، الثانية والسادسة .

- ٢ -

ها هو الليل يدفع

خطواتك في الضباب .

قوافل متعبة

شعوب بخيام داكنة

تعيش بصدر

اخترقته سكين الرمل الحادة

تتقدم نحو الصحراء

تحت البدر .

وانت بينها

لا تعرف شيئا مما يحيط بك .

لكن في حواسك ،

وكما النخيل في واحة ،

تنمـو الاغـواءات
بالايقاع نفسه الذي تتناسخ فيه النجوم .
ما ابعد العالم عن يديك
واقرب جسدك من الارض !
وتشعر بان عطرا غريبا ،
خليطا من يانسون وسمسم ونعناع ،
مسكر يدبّ فيه مثل
رقصة شبقة وعمياء .
وفجاة تاخذ الحياة ، امام عينيك ،
ايقاعاً سريعاً ، تنفلّ الرؤية عندك يمضي الصباح
والمساء يتأجج
كما لو انـه يريد أن يخلـد
مذهبا الجبال بلسانه ،
أنهار من الألـق تمضي في السماء ،
كما الدروب في الأرض ،
لكنك لا تجوبها أنـت
لأن في جسدك غابة من الحزن .
لكـن الليـل يعـود
ويبتـدع بظلـه
اغواءات أخرى لرغباتك .
وهكذا تظنك سعيداً أمـام بـاب
وهم آخـر ينفتح لـك
ووهم آخـر جديد ينغلـق(١٢)

- ٦ -

اعمى امام نظرة
شمس كالجحيم
تبحث عن سلامة جسدها
في المعجزة ، رحت اسير
في الجمر تحت سلام الصحراء .
لا احد يراني ، تصعد الأرض
الملتهبة في جسدي
كي تواريني في نسيانها ،
وتشعل بين عظامي
صلاة . يسمع مطر
مدينتي بعيدا ، بعيدا
وانا اسير في الرمل
الملهب للذكرى .
يهبط المساء كنهر
من الضوء عريض وهادىء ،
وانا امضي وسط النور .
رغم ان عيني معميتان
فلحمي يعيش المنظر .
احد يدفع من السماء
قمرا من ذهب براق .
لا ادري ما اذا كانت شمسا اخرى

او مرآة ما كان يضيىء لي في مرات سابقة

ويذكرني اليوم ، وقد جبت

مدنا كثيرة ،

قطعت قرى مثلها ،

ان عليّ ان اعود الى الشمال

وغاباته الكثيفة ، تلوجه المزهرة

مثل غصن لوز .

وبينما انا افكر في هذه الأشياء

تستمر الصحراء تملؤني

بموجه الملهب ،

بجنات تلمح في البعيد ذاهلة ،

بمدنها الغامضة

التي تنتصب على الرمل

لتهدمها الريح فيما بعد .

واذا كما كان الين ظاهرة جوهرية في حياة الشعب العربي اليومية ، فكذلك حال الحب . ولا شك ان الشاعر السوري ، نزار قباني ، هو افضل عارض لهذه الظاهرة الشعرية في اللغة العربية على امتداد القرن العشرين . وقد قال عنه افضل مترجم له في اسبانيا ، والذي سأتكلم عنه فيما بعد : « قباني شاعر يكاد يكون ذا موضوع واحد فقط : الحب » . ونزار قباني يكتب عن الحب برقة احيانا ،وبنزق احيانا اخرى وبسخرية ،وحزن احيانا قليلة . لقد عرفت شعر نزار قباني من خلال الترجمة التي قام بها لأعماله وما يزال المستعرب الرائع وصديق السوريين الأستاذ بيدرو مارتينث مونتابث . حتى ان الكتاب الأخير

لقباني « انت يا حب » ، الذي ترجمه ايضا الأستاذ مونتابث ونشرته دار كانتابريا للطباعة ، والتي تديرها مستعربة كبيرة اخرى ، هي الأستاذة كارمن رويث برافو ، يحمل مقدمة . لي شرف انها لي(١٥) .

حسنا ، كذلك موضوع الحب يظهر في كتابي « اغواءات » . انه يظهر لأن الديوان لا يحتوي فقط على قصائد الانطباعات كتلك التي على علاقة بالصحراء وانما ايضا قصائد عاطفية . واحدى العواطف الأكثر كونية هو الحب . ويظهر هذا الدافع مرات عدة في الكتاب ، لكنني سأشير الى واحدة منها . انها تعود الى القسم الأخير . أسجل هذه الملاحظة لأن القصيدة كتبت عندما كنت في برلين ، وجهة عملي الجديدة ، حيث قضيت سبع سنوات كمدرس للغة الاسبانية في الجامعة الحرة ، بعد السنتين اللتين قضيتهما في دمشق .

وقد فكرت اكثر من مرة في هذه القصيدة وفي الدافع الذي كان وراء ظهورها . من ناحية مضمونها ، لا شك انها قصيدة حب مخصصة لامرأة ، لا تكاد تظهر فيها اية اشارة يمكن ان تحددها . لكن ومن جهة أخرى ــ لنسمها حشمة ــ فهذا معتاد في شعر الغزل . ومع ذلك فقد قمت « بقراءة ثانية » لها . بمعنى انني اعطيتها تفسيرا مختلفا عن الظاهر . وقد اعتبرتها في هذه « القراءة الثانية » قصيدة وداع . ان قصيدة الحب والنسيان القائمتين على السيرورة التي لا تنسى لأنها تنطوي على فكرة كيف ان النسيان المستذكر دائما هو اكبر برهان على الاخلاص في الحب . ولم أقل حتى الآن انه وبعد ثلاثة اشهر من وصولي الى دمشق أحضرت خطيبتي ، وإننا وفي عشرين كانون الاول من عام ١٩٦٠ تزوجنا في سرداب القديس حنينا في حي باب توما . واستطيع أن اقول ، رغم انني محفوف دائما بخطر ان لا أصدق ، انني عندما غادرت دمشق في تموز ١٩٦٢ مع زوجتي وطفلتي بأشهرها القليلة ، لم أترك في هذه المدينة اي حب غير حب المدينة نفسها . وهكذا فان هذه

القصيدة ورغم أن القراءة الأولى لها وجهتها المرأة فانها تمثل رمزياً ذكرى كل الحب الذي زرعته في هذه المدينة وسكانها .

ونزار قباني كان قد استخدم هذا الأسلوب في مناسبات عدة عندما غنى مدنا ، خاصة مدن الأندلس ، مستخدما تقنية ولغة العاشق التي يتوجه الى معشوقته . واكثر من ذلك فان لنزار قباني قصيدة ، يقترب عنوان قصيدتي من عنوانها . اقصد « رسائل لم تكتب ابدا »(١٦) . وهي عندي « رسائل لم تقرأ ابدا » لأن النسيان يفيد في الربط بين العاشقين . تلك هي التناقضات التي تنطبق تماما على جدلية الحب ، والذي يمكن البحث عن اصله ، وان كان باتجاه آخر، في العصر الوسيط بين شعراء التروبادور البروفنساليين . اخيرا اقول انني عندما كتبت هذه القصيدة انتابني حدس بأنني لن اعود قط الى دمشق . ولحسن الحظ انني اخطأت في حدسي هذا . وها هي القصيدة :

ليس الحب ...

ليس الحب هو ما يوحد
بل النسيان . رسائل لا اقرؤها تصل
كل صباح منك ، من الجنوب ، من الشرق الجميل
حيث تعيشين الى هذه البلاد الباردة
مثل عصافير صغيرة تهاجر
من يدك الى يدي .
رسائل ما زال فيها عبق الأرز ،
طعم الرمل ، الأرض الموعودة
حسن الضيافة ، لكنني لا اقرا ،
لأن النسيان يربطني بك ،

كما يربط نهر مدينتك الصغير

بين هذه الضفة وتلك .

ما كنت قط قريبة مثلما انت الآن .

كلماتك المكتوبة ، مثل جسور معلقة

تعبر الزمن ، تجيىء اليّ .

لبلاب حياتك ، الذي حين اقرؤه

يلتف على عينيّ ، تملئين بالغابات

النظرة ، وبالثلج الجبهة ،

مثل جبال بلادك .

لا ارض أجمل من ارضك ،

ولا نسيان أكبر من نسياننا .

لذا ، اليوم والساعات ترتعش

وتسقط كما قطرات المطر

من الأشجار ،

أتخيلك في الجنوب ،

فأرى نهر الحياة الحار الذي

يجري في صدرك

يطل على رسائلك

يناديني بلهفة يناديني(١٧) .

بهذه القصيدة التي هي بالاضافة الى نسيان ــ ذكرى شكر وامتنان، أنهي مداخلتي .

←

الهوامش :

(١) عمل مطبوع في مدريد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ويتالف من ١٨ مجلد يدور الجزء الثامن حول تالابيرا ، « الرسالة الثانية » ، ص ٢٠ ــ ٤٧ .

(٢) رسالة دكتوراه قرئت في قسم اللغة العربية في جامعة أوتونوما في مدريد .

(٣) الدار الوطنية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢ ــ ٢٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

(٧) بيدرو مارتينث مونتابث ، « مدخل الى الأدب العربي المعاصر » ، مدريد ، « المنارة » ١٩٧٤ ، ص ٤٢ ــ ٤٣ .

(٨) « اغواءات » ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٣٣ ــ ٣٤ .

(١٠) باريس ، غاليمار ١٩٩١ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ ــ ٤٢ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٥٠ ــ ٥١ .

(١٤) نزار قباني قصائد حب عربية ، ترجمة ومقدمة بيدرو مارتينث مونتابث ، الطبعة الثانية ، مزادة ، مدريد ، المعهد الاسباني العربي للثقافة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٢ .

(١٥) نزار قباني ، « انت ، يا حب » قصائد اختارها وترجمها الى الشعر الاسباني (القشتلاني) بيدرو مارتينث مونتابث ، مقدمة خ. بينيتو ده لوكاس ، مدريد ، طبع دار كانتابريا للطباعة والنشر ١٩٨٧ . يتالف الكتاب من ٥٢ قصيدة قصيرة ، وجميعها قصائد حب .

(١٦) قصائد حب عربية ، ص ٨٦ ــ ٨٨ .

(١٧) المصدر المذكور ، ص ٦١ ــ ٦٢ .

آفاق المعرفة

القديم والجديد

نلتفت الى الوراء كي نتقدم

ميخائيل عيد

صار الكتاب الجيد رخيص الثمن امنية عزيزة يتمناها طلاب العلم والمعرفة في ايامنا .. لقد زاد عدد الكتب التي تصدر كل يوم زيادة كبيرة ، وكان ارتفاع الاسعار وحده ماجارى ازدياد العدد ، أما جودة الكتب فقد نقصت ، وصرنا نجد الكثير من الكتب الرديئة .

* ميخائيل عيد : شاعر من سورية ، يكتب الشعر والقصة والمقالة ، ويهتم بالترجمة ، ينشر منذ أوائل الستينات ، ويهتم بأدب الأطفال . من أعماله (سفر) ديوان شعر ، (اغنيات لقمر الطفولة) (وردة الطقس البارد) شعر .

وبقيت الكتب التي تصدرها وزارة الثقافة في القطر العربي السوري بين اهم الكتب التي تصدر في الاقطار العربية من حيث فائدتها ومن حيث اعتدال اسعارها .

وقد يكون الأمر المميز لهذه الكتب كونها تغطي جوانب عديدة من حاجة المثقف الى الكتب العربية والعالمية في شتى مناحي الثقافة ، فثمة سلسلة لكتب التراث ، واخرى للقصص والروايات ، وللمسرح والشعر ، وللموسوعات العلمية ، وسلسلة لكتب الاقتصاد واخرى للفلسفة،وكذلك سلسلة للاعلام من الرجال الذين اسهموا في اغناء الحياة البشرية في ميادين الشعر والعلم والسياسة .

ان ما اصدرته وزارة الثقافة حتى الان يشكل ثروة ثقافية هامة ، وما تنوي اصداره مطمح يحتاج الى الجهد الكبير والوسائل الكبيرة ، وقد تكون الوسائل هي نقطة الضعف الوحيدة ، ومنها نقص الملاك المشرف على اصدار الكتب ، ونقص آلات الطباعة الحديثة .

كان لابد من مثل هذه المقدمة القصيرة قبل الدخول في الموضوع . والموضوع ذاته محاولة تنويه بسلسلة جديدة تصدرها الوزارة وهي على قدر كبير من الأهمية والفائدة ، انها سلسلة « قضايا وحوارات النهضة العربية » التي صدر منها حتى الان الكتب التالية : « القديم والجديد » عام ١٩٨٩ وهو في ٥٣٥ صفحة ، و « نظرية الرواية » عام ١٩٩٠ في ٣٠٣ صفحات ، و « النفط مستعبد الشعوب » ليوسف ابراهيم يزبك عام ١٩٩٠ في ٣٠٦ صفحات ، و « على طريق الهند » لعبد الفتاح ابراهيم عام ١٩٩١ ، في ٣٧٠ صفحة ثم « الاشتراكية » عام ١٩٩١ وهو في ٦٢٠ صفحة.

إن من يطلع على احد كتب هذه السلسلة يرى الجهد الكبير الذي بذله معدها ومقدمها الاستاذ محمد كامل الخطيب .. لقد بحث ونقب وقرأ ، وقارن ثم اختار وصنف ثم قدم لنا عينات ترسم امام اعيننا صورة شاملة للمشهد الثقافي في ذلك الزمن وللقضايا التي كانت محور الصراع الاجتماعي ، التي ارتدت ملابس شتى من بينها الفني والادبي ، اضافة الى لباسها الاجتماعي والسياسي .

ثمة مسألة هامشية هي ان بعض الباحثين يرى أن العرب لم ينهضوا بعد .. وان الكلام على النهضة العربية سابق لاوانه .. ان ماحدث هو استفاقة وليس نهضة .. لقد ايقظ صخب العصر الحديث الناس فتثاءب بعضهم ودلك عينيه ، واعتدل في جلسته وطرح اسئلة وسعى الى الاجابة عنها ، في حين عاد آخرون الى النوم . والذين نهضوا كانوا قلة ، وكان اكثرهم ناقلين وكان اقلهم مبدعين .. وكان حتى نقل الناقلين مفيدا جدا ولكنه لم يحدث نهضة . لقد أشار هؤلاء وأولئك الى مواطن الداء ولكن احدا لم يعالجه العلاج اللازم ، والعلاج ليس مهمة رجل المختبر بل الطبيب . وقد لعب بعض المثقفين الرواد دور المختبر الطبي الاجتماعي ـ الثقافي ولكن قادة الأمة لم يلعبوا دور الأطباء .. وصرنا نعرف الكثير من امراضنا وبقينا عاجزين عن علاجها .

قد يكون في مثل هذا الرأي جانب كبير من الصواب وقد لا يكون .. مايعنينا الان هو ان الحوارات التي دارت في ذلك الزمن قد انقطعت أو حرفت عن موضوعاتها ، او جرى تجاوزها ، تعاليا عليها ، قبل ان تصل الى غاياتها وقبل ان تنجز المسائل التي طرحتها .. ومن هنا الاهمية الفائقة لجمعها ونشرها كي يكون الاطلاع عليها مقدمة جيدة لمواصلتها . فما حدث امس هو المقدمة لما يحدث اليوم ، وقد تكون فروع الاخطاء التي نعيشها اليوم هي الفروع التي نمت عن تلك الجذور التي ضربت في تربة مجتمعنا منذ ذلك الزمن أو قبل ذلك الزمن .

نعرف ان الجديد يصير قديما ، وان المسائل القديمة الاساسية تطرح باثواب جديدة في كل عصر ، وان الفكر يتجدد ويتقدم بمثل هذا الجدل المستمر في كل الازمنة . واهمية الكتاب الاول في سلسلة « قضايا وحوارات النهضة العربية » « القديم والجديد » تكمن في انه يتيح لنا الاطلاع على الخطوط المميزة لصورة مواقع الاشتباكات التي دارت في زمن اليقظة ، وهو اذ يرسم الخطوط المميزة في هذا الجانب يفتح امامنا افق الرؤية ويوسعه فنرى السمات الأكثر جوهرية للحوارات الأساسية التي دارت على الصعد الاخرى : السياسية والاجتماعية ، ولما كان الوقوف

عند كتب السلسلة الخمسة متعذرا في مقال واحد فقد رايت أن أقف عند الكتاب الاول منها على أمل في ان تتاح لي فرصة اخرى للوقوف عند الكتب الاخرى .

يقدم الاستاذ محمد كامل الخطيب للكتاب بمقدمة عنوانها « من عصر النهضة الى نهضة العصر » ثم يعرض لنا الخطة التي اتبعها تحت عنوان آخر هو « القديم والجديد » ومن ثم ندخل الى عوالم الحوارات فنسمع صهيلا وصليل سيوف . ان فرسان الجديد يهاجمون قلعة القديم التي ضاقت نوافذها ، وفسد الهواء في غرفاتها ، ولم تعد قادرة على استقبال أضواء شمس الازمنة الجديدة ، ونرى شبانا يندفعون متحمسين حماسة تصل الى حدود التهور احيانا ، طامحين الى العيش متحررين من القيود في أجواء الازمنة الحديثة التي تهب انسامها من الغرب ، ونرى ادعياء يدعون الاصالة ، أو يجعلون فهمهم القاصر للدين متراسا يحاربون من ورائه كل جديد ، ويحاولون ان يمنعوا كل نسمة منعشة وكل ضوء من التسلل عبر جدران القلاع القديمة ، ونرى آخرين يرتدون مسوح الحكمة ، ويمتطون جياد البلاغة والفصاحة لستر خوائهم واخفاء عجزهم عن مسايرة الزمن وفهم روح العصر ، وتتكرر امام انظارنا صور الثعالب ممن يعتلون منابر الوعظ مدعين احتكار الحكمة الازلية والمعرفة الشاملة الكاملة التي لا يأتيها الباطل من اي جهة ولا تقبل جدلا .

وبين أصوات هؤلاء واولئك نسمع اصواتا اقل صخبا واكثر رزانة ورؤية ، انها اصوات تدعو سجناء الماضي الى الخروج من سجنهم الى رحاب الحاضر ، وتدعو المندفعين الى الحذر من مطبات الدرب الخطرة ومهاويها المهلكة ، ونستخلص منهم الحكمة التالية : ليس الزمن ماضيا وحسب ، وليس الزمن مستقبلا وحسب .

نقف في الصفحة الاولى من الحوارات عند اسم يضع ملحوظات ذكية حول مسألة تجديد الشعر هو اسم نجيب شاهين .. وتنتابنا مشاعر كثيرة ينبع منها سؤال محدد : أين هو تراث هذا الكاتب ؟ وهل يعقل ان يكون مقاله هذا اول وآخر ماكتب ؟ ونتقدم خطوة اخرى على الدرب ذاتها

مع اسعد داغر الذي يرى : « ومتى كانت العلة باطنية لا يفيدها استعمال المراهم على ظاهر الجلد » فما الفائدة من مناشدة العاجزين وغيرالموهوبين القيام بالتجديد والابداع فيه .

وننظر الى ماحولنا فنرى أن الكثيرين من المتشاعرين والعجزة لايزالون بين اكبر اعداء الشعر الجديد .. ولا يفوتنا ان نرى ان الكثيرين من العجزة وغير الموهوبين يمتطون الآن موجة الحداثة ويحاولون تقليد صهيل جياد فرسانها .

ويدلي محمد كرد علي برأيه المتزن ، فلا هو مع الناشئة التي « عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور التعقل » ولا هو مع « دعاة القديم ، واكثرهم مثال الجمود والبلاهة » (« القديم والجديد » ص ٣٢) ثم يذهب ابعد من ذلك فيحدد سبب الضعف العام فيقول : « والعامل الرئيسي في كل البلاد في السياسة ، اذا ضعفت يتبعها كل شيء » (ص٣٢) وان جهل الملوك والحكام رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين الذين جعلوا من الدين « سلاحا يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم وأهوائهم » (ص ٣٢ ــ ٣٣) ثم يقدم على الصفحة (٣٦) مثال اليابان التي أخذت علوم الغرب وطورتها وأحيت تقاليدها العريقة ولم تعارض هذه بتلك . ويكثر آخرون في الكتاب من ايراد هذا المثال .

ويسأل محمد تيمور مستنكرا : « وأي خطر يداهم الامة ان هي فوجئت بآراء جديدة ؟ » (ص ٣٩) ثم يردف مؤكدا : « لا مشاحة في أن كل رأي صائب يبقى رغم أنف كل مستهجن له ، وان كل رأي فاسد يضمحل ويموت وينسى مهما كان معززا ، ومهما تمادى صاحبه في ضلاله وغلا في جهالته » (ص ٣٩) .

ونقرأ في مقدمة « الديوان » للعقاد والمازني موجزين عملهما « انه اقامه حد بين عهدين لم يبق مايسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وأقرب مانميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصري عربي » (ص ٤٠) وقد أعلنا اختيارهما وهو : « فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة » (ص ٤١) .

وقد تكون السمة الابرز لاندفاعة الشبان قد تجلت في هذه الفكرة التي أورداها : « تحطيم الأصنام أولا » أما البديل فيطرح بعد ذلك .

ولكن كيف نقنع المؤمنين بالاصنام بضرورة تحطيمها اذا لم نقدم لهم ماهو خير منها ؟

يبدو أن هذه المسألة لم تكن ذات كبير أهمية في نظرهما في ذلك الحين . ولكننا نجد لهجة المازني تصبح أقل حدة في مقاله « تقليد القدماء » على الصفحة (٤٢) وما يليها ، ونسمعه يناقش الامور بروية وحكمة ويصرح : « لا ننكر مالدراسة الادب القديم من النفع والفائدة » (ص ٤٣) بعد أن يصرح : « ألسنا الوارثين لغتهم ، وللوارث حق التصرف فيما يرث ؟ هل تقليدك العرب وجريك على اسلوبهم يشفعان لك في خطأ نحوي أو منطقي ؟ كلا . اذن فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف نتحاكم الى العقل في الاولى والانستقصيه في الثانية ؟ » (ص ٤٣) .

ويبدو أن الشبان من أنصار الجديد قد اتبعوا استراتيجية الهجوم الاقتحامي مهما كلفت من ضحايا .. وهذا سلامه موسى يبدأ مقاله « مصطفى صادق الرافعي ، المذهب القديم والمذهب الجديد » بالهجوم من غير مقدمات ، فالهجوم هو المقدمة : « في مصر وسورية طبقة من الادباء لها عيون خلف رؤوسها فاذا نظرت لم تر سوى الماضي ، ثم هي مع ذلك لا ترى كل الماضي وهي لو استطاعت أن تفعل ذلك لكانت لها من ذلك بصيرة بالحاضر والمستقبل » (ص ٤٧) ثم يهاجم الذين يخلطون بين « الدين والقومية والادب العربي » والذين يتوهمون أن الخروج على المألوف في الأدب هو خروج على «الدين والقومية العربية» ويهاجم شكيب ارسلان الذي لا يعرف في الادب « الا مذهبا واحدا هو مذهب العرب » (ص ٤٧) ثم يربط بين الحقيقة والجمال ربطا عضويا فالبحث « عن الحقيقة هو البحث عن الجمال » (ص ٤٨) .

ويرد الرافعي على ماكتبه سلامة موسى بهدوء الشيخ ومحافظة الشيخ فنقرأ كلاما متين السبك ، ونسمع حكمة ، فهو مع الابتداع الذي

لا يمحو ما قبله ولا ينازع فيه بل يرى فيه قانونا من قوانين الطبيعة . ولكنه يريد الحفاظ على « سلامة اللغة وسلامة القومية » وهو يؤثر « الفضيلة على الرأي » ويرغب في المصلحة الجافية الخشنة على المفسدة اللينة الناعمة وان كانت نعومة الانوثة الباريسية » (ص ٥٧) وهو يرى ان العربية « لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم ، وقد اجمع الاولون والاخرون على اعجازه بفصاحته الا من لاحفل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق . » (ص ٥٩)

ويدلي الدكتور طه حسين برايه في مقال مسهب يقدم له بمقدمة تقول بقدم الخصومة بين القديم والجديد وباستمرارها : « فينتصر جديد على قديم ثم يصبح الجديد قديما وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك مادام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة » (ص ٦٣) .

وبعد ان يؤكد ان الخصومة مشروعة يطلب من المتخاصمين ان يحددوا « لنا موضوع الخصومة حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا » (ص ٦٣) ثم يسهب في مناقشة مسألة « الذوق والفهم » التي أثارها الرافعي . ونرى انحيازه للجديد مع تقيده بقواعد اللغة العامة « التي تفسد اللغة اذا تجاوزناها » (ص ٦٨) مع الاحتفاظ بحق إدخال الالفاظ الجديدة والاسلوب الجديد كي تفي اللغة « بحاجات أهلها التي تتجدد وتتنوع بتجدد الازمنة وتبدل الظروف » . (ص ٦٨)

ويرى شكيب ارسلان أن الجديد نزعة غربية ، وانه حلقة من سلسلة دسائس « مقصود منها الاسلام لا القرآن من حيث كونه قرآنا ، والا الفصاحة من حيث كونها فصاحة » (ص ٣٧) وان كل « ما يتجدد هنا أو هناك لا بد من أن يرجع الى نصاب اللغة وينزل على حكمها ، ولن تترك اللغة فوضى لا في شرق ولا في غرب » (ص ٧٤) .

وندرك انه يتكلم على الشباب من المجددين الذين ناقشوا أمورا تتعلق بحقهم في الخروج ولو قليلا على قيود اللغة . . فيزجرهم ويردعهم عن ذلك ويطلب اليهم الرجوع الى الصف .

ويرسم محمد حسين هيكل صورة باسمة « للمعركة » في بداية مقاله : « الأدب واللغة ، القديم والحديث » ثم يطالب الكتاب بان يبدعوا اولا ، فالابداع هو التجديد وهو الذي يهدم القديم البالي .

ويسأل : « ما القديم وما الحديث ؟ » ويناقش المسألة في تاريخ الادب العربي .. ويذكرنا بان لغة « امرىء القيس وادبه ليست لغة أبي نواس وادبه . » (ص ٨٠) ثم يخلص الى نتيجة هي : « والقديم والحديث لا يمكن ان يكون بينهماخلاف ، وإن كان ابدا بينهما اختلاف ، بل الخلاف بين ادب اللفظ وادب الفكر » (ص ٨١) ثم يدعو الى دوام صلة اللغة : « ولقد يبلغ من حدثها ان يقبرها » ثم يحلم بمجيء النوابغ والفحول الذين يعتصر ذهن الفرد منهم « لب الحضارة جميعا وينفثها من روحه القوي في احاديث وقصص او في قصائد منظومة ، أو في كتب علم وفن ، فيتلقاها عنه قومه وقد لبست ألفاظه ثيابا من المعاني يجب ان تقرها معاجم اللغة راضية او كارهة . » (ص ٨٣)

في « المرحلة الثانية » تعلو الجلبة ويرتفع الغبار وتدخل الحلبة « كباش نطاح » من الوزن الثقيل بينهم رئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء ، وشيوخ الازهر وسواهم . فالجدل هنا يدور حول ماطرحه « زنديق خطير » هو الدكتور طه حسين . وموضوع العراك هو ما جاء في كتابه : « في الشعر الجاهلي »

اعرف ان العودة الى الكتاب هي الأفضل ولكن لا بد من تسجيل بعض الانطباعات العامة وبعض المسائل العريضة . فثمة مسائل ما زالت قائمة في بعض من جوانبها ، ولا نزال نعاني من الاندفاع حتى التهور ومن الركود حتى الجمود على أكثر من صعيد .

إن ما يثير الدهشة هو ان اساتذة مرموقين وشيوخا وقورين يسمحون لانفسهم باسم المنطق بالتخلي عن المنطق وبشتم الآخرين شتما غير معلل باسم الحوار . ويحرّف بعضهم كلام « الخصم » ثم يقيم الدنيا ولا يقعدها استنادا الى ما خيل له ، أو الى ما حرفه هو لا الى ما قاله الآخر . وان واحدا مثل محمد عرفه يقول في اعلى الصفحة (١١٦) « فان

مستوى البحث في مصر لما ينضج بعد » ثم يقول في اسفل الصفحة ذاتها : « وانما هو ينشرها في أمة متحضرة متمدنة ضربت في العلم بسهم واخذت منه حظاً .. الخ » بعد أن يكون قد اتهم طه حسين بانه « يحشر نفسه في زمرة العلماء حشراً » (ص ١١٥) وانه « ليس ممن يرجى منهم اقتناع ، فانه ليس طالب حق وانما هو طالب رواج » (ص ١١٦) ولا يرضى صاحب « المنار » هذا الحكم فهو يرى أن « مطلب الرجل الاول صرف الناس عن الدين وحملهم على الالحاد والزندقة .. الخ » (هامش الصفة ١١٦) .

وتطالب لجنة العلماء بمحاربة هذه « الروح الالحادية » كي لا يختل النظام ويضطرب حبل الأمن ثم تعلن دهشتها من أن يتلقى هذا الداعي الى الالحاد « مرتبا ضخما » من أموال المسلمين . (راجع ص ١١٦ وما يليها) .

وانظر الى الحاضر فأرى كثيرين يبحثون ولو عن ثقب صغير في صرح اقامه سواهم ، فاذا وجدوه اخذوا الصرح كله بجريرة الثقب واصدروا حكمهم بهدمه هدما تاما .. واهمس : هي الحال لم تتغير الا مظاهرها .

ونزداد اندهاشا : فالقرآن الكريم اصل التجديد وحامل لوائه (ولنتذكر كتابات الكهان) يوضع في مجابهة كل تجديد ومن قبل أناس يزعمون الحرص عليه وعلى الاسلام .. ونسمع اقوالا تجعل البشر إما شياطين وإما ملائكة .. ونسأل : اما من بشر بين البشر ؟ وهل أخلاق الناس إما « بيضاء ناصعة أو سوداء قاتمة ؟ » ونسمع حكما على طه حسين : « فالرجل متخلف الذهن تستعجم عليه الاساليب الدقيقة .. الخ » (ص ١٣٥) ثم يخشى منه على الاسلام والامة : « وحاشا الاسلام أن يصادمه علم أو عقل » (ص ١١٦) .

وتستغل النواقص في المنهج لمحاربة المنهجية ، وتستغل النواقص في عمل الجامعة لالغاء الجامعة ، وكل ذلك تحت ستار من الحرص على أموال الامة ، ومن الخوف على دافعي الضرائب . ويطلب آخرون الانتظار حتى يستيقظ النيام ، حتى ولو من أهل الكهف ، ثم يتم التطور ! وينصح آخرون باستعمال المراهم بدلا من المشارط . وبالمواربة بدلا من المواجهة . .

وإلاّ .. فقد يقوم في البلاد « من يهاجم نظام الحكم اعتمادا على حرية الراي » (ص ١٤١) .

وترتسم امامنا صورة الحرية التي يريدها « المحافظون » من خلال محاكمتهم للمسألة . فهم يرون ان من يتقاضى مرتبه من الحكومة لايحق له أن « يبصق في وجهها » اي يجب ان يسكت عن الاخطاء او ان يكون بوقا من أبواقها . « من يأكل خبز السلطان يضرب بسيفه » وكأنما اموال الامة ملك السلطان ينفقها على أهله وحاشيته .. واما الآخرون ، الذين لهم راي ، فموضع شبهة أو خارجون على القانون .. وهم يرسمون مثل هذه الصورة بمزيد من البراعة وبمزيد من البلاغة ايضا .

وتشعر ، لكثرة تباكيهم ، وكأن اموال الامة المسكينة ما انفق منها درهم إلاّ على تعليم هذا « العاق » طه حسين وعلى الجامعة التي صارت منبرا له .

ويكون المطلب الاول في البرلمان بشأن هذه المسألة :

« اولا : مصادرة واعدام كتاب طه حسين المسمى « في الشعر الجاهلي » .

ويكون المطلب الثالث :

« ثالثا : الغاء وظيفته في الجامعة وذلك بتقرير عدم الموافقة على الاعتماد المخصص له » (ص ١٤٩) .

ويلح النائب عبد الحميد البنان : « اريد اعدامه » اي اعدام الكتاب .

وتطرح الوزارة مسألة الثقة فتطوى القضية رسميا وتبقى الحملة مستمرة الى اليوم على هذا الصعيد أو ذاك .

وكان الذي قاد الحملة الصحافية ضد طه حسين وسعرّها الشيخ رشيد رضا محرر « المنار » وقد دفعت هذا الرجل حماسته الى الحد

الذي جعله يزعم ان طه حسين عدّ «افسق الفساق في التاريخ كأبي نواس من كبار المصلحين » والمعروف ان طه حسين عد ابا نواس بين كبار المجددين في الشعر ولم يعده بين المصلحين .. ومن ثم حكم الشيخ رشيد رضا على الدكتور طه بأنه عدو اللغة والدين (ص ١٧٤) .

ويعلو نشيش لحم المبدع الغض يشوى على سفافيد الدوغمائيين وضيقي الافق .. ويدعونا بعضهم الى تصديق كل ما قاله القدماء والاخذ به متجاهلين او جاهلين ان الاسلام لا يقبل ذلك .. ويجري دفاع مجاني عن كل المحدثين وكل المفسرين دون استثناء ! ونحن نعلم أن منهم منافقين وافاكين .. ثم كيف ننسى ان حمادا من اشهر رواة الشعر !

ونسمع من يشتم علماء الغرب كلهم في موضع ثم يعود للاستشهاد بآراء بعضهم في موضع آخر . وتشعر انك في جو خانق ، فالناس محمومون ويخافون النسمات المنعشة .. ولقد الف بعضهم فساد الهواء .

وكم بنوا من دعاوى على سوء الفهم ، وكم خرجوا على ادب الحوار! وهاهو محرر « المنار » يشمت بالدكتور طه حسين كونه أعمى .. « فاذا حشر لا يمكنه ان يقول : وقد كنت بصيراً ؟ » (ص ١٨٥) ثم يعدنا في آخر الصفحة ذاتها بانه : « سيقرظ كتاب « الشهاب الراصد » قبل ان يقرا الكتاب .. وكان قد شتم كتاب « في الشعر الجاهلي » قبل ان يدرسه دراسة متانية ..

فهل اختلف اليوم عن البارحة كثيرا ؟

ونقرا مقالة الدكتور طه حسين « ديكارت » وتشمخ امامنا قامة الرجل .. ولا يعكر علينا جمال ما نقرا الا الخلل في طباعة الصفحة (١٩٣) وليته لم يقع .. ويظل الرجل يحلق صعدا ، ضاربا في اجواز فضاء الفكر والادب ، ملقيا نظرة ازدراء على الزاحفين ، تاركا « الموتى يدفنون الاحياء» منهم .. ثم يتمنى لهم ان يقراوا « رسالة صغيرة توجد في مكتبة الاستاذ الجليل احمد زكي باشا بقسم المخطوطات يقال لها « دومة في نومة » (صفحة ٢٠٢) .

ويكتب ابراهيم عبد القادر المازني فنسمع كلاما فيه المنطق والحرص على قول الحقيقة .. ونشعر ان الانسام تهب بعد رياح التعصب .. ونجد انصافا ، ولا نجد محاباة .. ونتمتم : ستبقى الدنيا بخير (ص ٢٠٣ وما يليها) .

ونطوي الصفحات التي فيها « قرار النيابه العامة » والتي فيها « مقدمة المؤلف » لمحمد احمد الغمراوي ، ومقالات آخرها مقالة « حماة القرون الوسطى » لسامي الكيالي ، على مافي الاخيرة من فائدة .

يبدأ الكلام على « المرحلة الثالثة » في الكتاب بعنوان طريف هو « الطربوش أم القبعة » وندرك قبل أن نقرأ المقالين ان الكلام هنا هو رجع الصدى لما يدور في الميادين الحاسمة .. والطريف انه غاب عن « ممثل الطربوش » وعن « ممثل القبعة » ان جوهر المسألة ليس في هذا ولا في تلك . فلقد لبس المسيح ويهوذا الاسخريوطي الزي ذاته ، وقد يلبس العالم والاحمق قبعة او طربوشا ولن يتغير شيء في جوهر هذا او ذاك .

ثم نقرأ لسامي الكيالي في افتتاحية مجلة « الحديث » رايا قد يكون خلاصة استخلصها من المعركة الناشبة بين القديم والحديث يقول : « واذا نظرنا نظرة الى انصار القديم وانصار الحديث ، نرى كلا الفريقين يسير بين الافراط والتفريط ، وهي خطة قد يكون ضررها اكثر من نفعها ، وسيئاتها أعم من حسناتها ، لذلك « فمجلة الحديث » التي فكرنا باصدارها منذ عامين لخوض غمار هذه الحرب المضطرمة ــ ستنهج نهجا وسطا نوفق كل ما تكتبه بين انصار المذهبين ، بحيث لا تحبذ الهدم على علاته بدون أن نفكر بالبناء .. الخ » (ص ٢٥٥) .

وتعود مجلة « المنار » الى اتهام خصومها بالخفة والعقوق ، ويضن محررها « بابن الكيالي الكريم ان يكون مقلدا لسلامة موسى ، ومحمود عزمي ، وطه حسين الذين لا وطن لهم ولا ملة » (ص ٢٥٩) .

ويعلن محمد علي ثروت انه لا يكره القديم اطلاقا .. « ولكننا يجب ان نفكر برؤوسنا ولا نفكر برؤوس الاقدمين » (ص ٢٦١) .

وتتكرر المقالات والردود بصيغ مختلفة وبأساليب متفاوتة ولكن الجوهر يبقى واحدا : « قديم وجديد » . يتهم بعض انصار القديم انصار الحديث بالزندقة والالحاد فيرى هؤلاء أن انصار القديم « لا يدعون الى خير ، ولا يريدون الا النفع ، ولا يبتغون من الدين والعلم الا اخس اعراض الحياة » (ص ٢٩٠) وتصدر دعوات الى تركيز النقاش حول المسائل المركزية ذات الفائدة الحقيقية للاصلاح والكف عن اتهام الناس في دينهم او اشخاصهم .. وترتفع دعوات صريحة الى « استقلال العلم والبحث العلمي عن جميع المؤثرات من دين وسياسة ، فالعلم لا دين له ولا وطن . » (ص ٣١٨) ويجري التوكيد على أن النهوض لا يكون الا شاملا وانه لا تتم العناية التامة بالآداب « الا على اثر انقلابات علمية واجتماعية كبرى » (ص ٣٢٣) .

ويطرح خليل تقي الدين سؤالا هاما : « وهل التجديد غير أن يكتب الكاتب ما في نفسه لا ان ينقل ما كتبه الاخرون عن نفوسهم ؟ » ثم يسخر من الذين « يرثون كل ميت ويمدحون كل كبير وينظمون الشعر كما تأكل انت او كما يدخن النارجيلة معروف ! » (ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧) .

ويأتي صوت جميل صليبا هادئا رصينا مستندا الى العلم والمنطق ، ثم يعرض احمد حسن الزيات افكاره حول التغير ، فهو يرى أن تغير الشكل هو « فعل القانون العام الذي يغير ابدا كل شيء » (ص ٣٧٢)

ويرى احمد امين : ان الأدب العربي الحديث هو أدب ارستقراطي لا أدب شعبي ، واعني ارستقراطية العلم لا ارستقراطية المال . » (ص ٣٨٢) ويرى أن الأدب العربي « أدب قديم لم يستكمل حديثه ، لذلك كان الأدب العربي أدب الخاصة لا أدب الجمهور » (ص ٣٨٦) .

وتطرح مسألة الكلمات التي ماتت في المعاجم والكلمات التي تحتاج اليها المعاجم .. ويشكك بعضهم في ان يكون هذا التجديد تجديدا فهو تقليد للغرب وليس التقليد تجديدا .. وتطرح مسألة عدم ارتباط التجديد بسن المبدع .. فبعض الشيوخ مجدد ، وبعض الشبان محافظ .

ويأتي كرم ملحم كرم بآراء ناضجة ويناقش نقاطا محددة في صلب الموضوع .. ويطرح ابراهيم المصري مسألة التهالك على التوظيف وخدمة الطبقة الحاكمة دون الشعب . ويعزف محمد احمد الغمراوي على الاوتار القديمة نغمات قديمة ، ونحس الحدة في نبرات صوته . ويرد عليه عبد الوهاب الأمين بسخرية .. ونطوي صفحات من الكتاب ثم نقف مع مارون عبود فتنشرح صدورنا .. قد تجد ابتسامات هنا او هناك في هذا الكتاب الجاد .. اما مع مارون عبود فتضحك بكل كيانك ، وتكتسب الكثير من الأمور التي في منتهى الجد .

ومع اقتراب نهاية الكتاب نشعر باقتراب نهاية مرحلة ، فبعض الذين كانوا مهمازا لجواد الجديد صاروا لجاما له . وصارت المهار جيادا هرمة ، وغابت اسماء كثيرة من الساحة الثقافية . فها هو العقاد يرى ان « التقدم يأتي على التعاقب والتدريج ولا يأتي طفرة واحدة في زمن من الازمان » (ص ٤٩٣) وليته يقف عند هذا الحد .. انه يعلن خوفه من ان يستلم الشبان مقاليد الأمور ويزعم ان زعامة هتلر « وهي اكبر زعامة في الجيل الحديث ــ قامت على الجيل الناشيء في البلاد الالمانية، ولم يكلفه اقناعهم غير الهاب حماستهم ، واشباع شغفهم بالمواكب والمظاهرات ، وتزويدهم ببعض الافكار التي لا تعبر عن حقائق الاحوال في العالم . فكانت النتيجة كارثة على هتلر ، وكارثة على الجيل الناشيء ، وكارثة على البلاد الالمانية ، وكارثة على العالم باسره » (ص ٤٩٤) ثم يقول في أسفل الصفحة ذاتها: «وهكذا حصل لايطاليا على يد موسوليني، وهكذا يحدث لكل بلد يبطل فيه التعاون بين الاجيال ويقوم الحكم فيه على هوى جيله الجديد دون غيره من اجيال الشيوخ والكهول . »

ويرد فتحي رضوان المحامي على العقاد ردا مفحما .. ونهمس ! « ستبقى الدنيا بخير حتى لو تخلف كل الشيوخ عن الركب » ونتجاوز مقال الاستاذ ساطع الحصري وهو مقال غني جدا لنسمع الشيخ رشيد رضا يعلن ان كل ما عندنا قد شاخ « وانفصمت عروته » (ص ٥١٧) ويعترف بان الازهر والمعاهد الدينية بحاجة الى الاصلاح . ولكن المدارس الاميرية والاهلية « احوج الى الاصلاح » ثم يمتدح خطة محمد علي الاصلاحية ويمدح سلطان البلاد جزافا ويتهم بعد ذلك المجددين فهم « زعنفة من الملاحدة في هذا البلد العظيم » (ص ٥٢٠)

ويجمل طه حسين « نتائج المعركة » .. ويرى ان ابرز الفوائد في ان تلك الحوارات قد خلقت فئة واسعة من القراء « وظهر الاستمساك بحرية الراي والبحث عن حقائق الاشياء والجهر بما لم يكن الناس يجهرون به من قبل في بعض المسائل التي تمس السياسة والتي تمس الدين »(ص ٥٢٨) .

ونطوي آخر صفحة من الكتاب وتبقى منتصبة امامنا قامة طه حسين العملاق الذي اجتهد فاخطأ واصاب ولكنه لم ينحن في مواجهة العاصفة .

وثمة ملحوظة اخيرة.. فكم تمنيت الا تشوب الأعمال الكبيرة شوائب صغيرة .. فالسطر الاول من الصفحة (٣٨) وارد بنصه في اول الصفحة (٤٢) وهناك مكانه . ويبقى مكانه شاغرا على الصفحة (٣٨) ، وعلى الصفحة (٣٨) ذاتها نقرأ : « محمد تيمور ١٩٢١ — ١٩٨٢ » والصواب ١٨٩٢ — ١٩٢١ .

AL_MA'RIFA

A CULTURAL MONTHLY REVIEW

في الأعداد القادمة

- في المصطلح الفلسفي « الخير والشر ».
- الانسان العاقل: «نتاج جانبي من نتاجات الطبيعة»
- مقدّمة في علم الليزر .
- رؤية الدولة عند ابن خلدون .
- المدرسة الابداعيّة « الرومانية » في النقد الأدبي
- قراءة إضافيّة لمعلقة امرئ القيس .
- لسيّدة الريح مريم. «شعر» - طالب المرجان «قصّة»

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩١

سعر النسخة (١٥) ل.س او ما يعادلها